

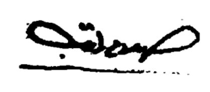
١٦٩

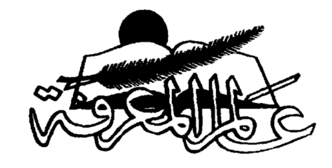
تاريخ الكتاب

القسم الأول

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش
ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



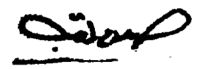
القسم الأول

تأليف: د. الكسندر ستيبتشفيتش

ترجمة: د. محمد م. الأرناؤوط

١٦٩ - رجب ١٤١٣ هـ ، يناير/ كانون ثاني ١٩٩٣م

المراسلات:
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
فاكس: ٤٨٧٣٦٩٤ ص.ب ٢٣٩٩٦ - الصفاة/الكويت 13100



العنوان الأصلي للكتاب :

Povijest Knjige,
Aleksanddar Sipćević,
Zagreb 1985.

المحتـــوى

رقم
الصفحة

مقدمــــــة

«لقد حاولت في هذا الكتاب أن أصحح الخلل
وأن أعطي كل شعب المكانة التي يستحقها».

ا. ستيبتشفيتش

تصدر الطبعة العربيـة لهذا الكتاب بعـد عدة سنـوات فقط من صـدور الطبعة الأصلية في زغرب بيوغسلافيا(*) وبعد عدة طبعات في اللغات الأوربية مما يوضح الأهمية الخاصة لهذا الكتـاب. وفي الواقع لقد اعتبر هذا الكتـاب في حينه من أفضل الكتب التي صـدرت في يـوغسلافيـا خـلال عام ١٩٨٥، إلا أنـه سرعـان ما انتـزع الاعتراف بقيمتـه على المستوى الأوربي والعـالمي. وهكذا ليس من المبـالغة القـول أن صدور الطبعة العـربية يجسد طموح المؤلف نفسـه في رد الاعتبار للعرب ولغيرهم من شعوب الشرق الذين كانوا لفترة طويلة من الزمن ضحية تجاهل أوربي متعمد.

ففي أوربا، وحتى في يـوغسلافيـا سابقا، كـانت قد صـدرت حوالي عشرة كتب بعنوان واحد (تـاريخ الكتاب أو ما شابه ذلـك) إلا أنها كانت تهمل أو تتجاهل على نحـو غـريب دور الشرق إلى أن صـدر أخيرا هـذا الكتـاب ليعطي الشرق حقـه وليخصص فصلا كاملا عن العرب. وهكذا نجد أن بعض هذه الكتب، على الرغم من العنـوان العام، يكاد يقتصر على دولـة واحدة، كما هي الحال في: «كتـب هزت العالم» لـ ك. شـوتنلوهر K.Schottenloher بالنسبة إلى ألمانيا و«تـاريخ الكتاب» لـ

(*) لقد صدرت الطبعة الأصلية في اللغة الكرواتية:

Aleksandar Stipcvi´c, Povijest knjige, Zagreb 1985

ثم صدرت لاحقا الطبعة الألبانية في يوغسلافيا في أواخر ١٩٨٨:

Aleksandar Stipçeviq, Historia e librrit, Prishtin

والطبعة الألمانية في ألمانيا الاتحادية:

Aleksandar Stipcevi´c, Die Geschichte des Buchs, Wiesbaden 1989

بينما يترجم الكتاب الآن إلى الإيطالية والإنكليزية.

أ. ادفرسيا A.Adversia بالنسبة لإيطاليا. أما البعض الآخر، مثل «تاريخ الكتاب» للدانماركي سفند دال Svend Dahl، فيكاد يقتصر على القارة الأوربية وحتى على أوربا الغربية فقط. ففي هذا الكتاب لانجد إلا القليل عن أوربا الشرقية ولانجد عن العرب سوى صفحة واحدة. وعلى الرغم من هذا فقد بقي هذا الكتاب، الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٧، يترجم ويطبع باستمرار خلال هذه السنوات الخمسين حتى كاد أن يصبح المرجع الأساسي في هذا الموضوع.

وفي الواقع لقد كان صدور هذا الكتاب المتحيز في يوغسلافيا (١٩٧٩) أحد الأسباب التي عجّلت بعمل البروفسور ستيبتشفيتش لإنجاز كتابه هذا(*). فقد كان البروفسور ستيبتشفيتش قد بدأ منذ عام ١٩٧٢ يحاضر على طلاب الدراسات العليا في جامعة زغرب في مادة «تاريخ الكتاب والمكتبات»، ولذلك فقد أخذ في تأليف كتاب جامعي يلبي حاجة الطلاب في الدرجة الأولى. ومن خلال عمله في جمع المواد، وتتبع كل ما صدر في هذا المجال، شعر البروفسور ستيبتشفيتش بنوع من التحدي العلمي لكي يكتب كتابا جديدا وشاملا بالعنوان ذاته، أي «تاريخ الكتاب»، ليتلافى فيه النظرة المحلية أو الإحادية ــ الفوقية ـ الأوربية الغربية التي غلبت على الكتب التي صدرت حتى الآن. وهكذا بعد أن كان الشرق لا يحتل إلا صفحات متفرقة، على الرغم من دوره الرائد في اختراع الكتابة وأدوات الكتابة ومواد الكتابة وحروف الكتابة الثابتة والمتحركة إلخ، في الكتب المشابهة أصبح الآن بحق يحتل المكانة التي يستحقها فعلا في هذا الكتاب الجديد.

وفي هذا الإطار الجديد لا بد أن نشيد باهتمام المؤلف لتخصيص فصل خاص عن العرب بعد أن كان العرب لا يذكرون إلا بشكل عابر في الكتب السابقة. ففي هذا الكتاب لا يكتفي المؤلف، كغيرة من المؤلفين، بالإشادة بدور العرب في نقل

(*) بمناسبة صدور كتابه انتقد البرفسور ستيبتشفيتش في لقاء مع مجلة «ناشا غنيغا» الخلل الكبير في كتاب سفند دال (تَغيُّب أوربا الشرقية وشعوب الشرق عامة عن التاريخ الحضارى) وقال بهذه المناسبة: «لقد حاولت أن أصحح هذا الخلل وأن أعطي كل شعب المكانة التي يستحقها»:

Povijest drustvene funkcije Knjige, Nasa Knjiga 13 - 14 Zagreb 1985, s.15-17.

صناعة الورق من أقصى الشرق إلى مركز العالم القديم، بل يهتم بتوضيح مساهمة العرب في ثقافة الكتاب بشكل عام، أي في قيمة الكتابة لدى العرب ومكانة الكتاب لديهم وإسهامهم في المؤلفات البيو ـ ببلوغرافية وتطور المكتبات لديهم. وإذا كان لا بد من ذكر مفارقة هنا فيكفي أن نذكر أن معظم هذا الكتاب قد ترجم في دمشق، التي كانت تعاني من **أزمة ورق في عام ١٩٨٧**، بينما يكشف لنا المؤلف في هذا الفصل الخاص بالعرب أن أوربا بقيت فترة طويلة من الزمن تستورد أفخم أنواع الورق من دمشق، ذلك الورق الذي اشتهر حينئذ في كل أوربا باسم «الورق الدمشقي» **Charta Damascena**.

ولا شك أن الميزة الأخرى للكتاب، بالمقارنة مع الكتب الأخرى، تكمن في منهج المؤلف. ففي هذا الكتاب لا يركز المؤلف على الجانب التقني لتطور الكتاب بل على مغزى تطور الكتاب عبر التاريخ ليصبح الكتاب بهذا الشكل تاريخا للثقافة الإنسانية. وهكذا يبدأ المؤلف بالمحاولات الأولى للكتابة، وأقدم النصوص، والأشكال الأولى للكتاب، وأدوات الكتابة، ومواد الكتابة، ليصل إلى مصير الكتاب في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية المعروفة. وهكذا من خلال هذا المصير، المشرق أحيانا والمظلم أحيانا، نتعرف على أهم الأحداث التاريخية ــ الثقافية وعلى أهم التغيرات الفكرية التي تركت أثرا كبيرا في وسطها وفي محيطها الأقليمي والقاري. ومن خلال هذا كله يلح المؤلف دائما على تتبع مكانة الكتاب من وسط إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر حتى أنه يكاد يحوّل هذا إلى مؤشر للحكم على أي مجتمع بمدى تخلفه أو تطوره الثقافي.

ولا بد لي هنا أن أشيد باهتمام المؤلف، الذي حرص على إرسال كل ترجمة جديدة للكتاب لكي تكون الترجمة العربية في أحسن مستوى، وأن أشكر هنا الدكتور غانم ــ الأستاذ في كلية الآداب بجامعة دمشق ـ الذي ساعد في ترجمة عناوين الكتب اللاتينية والإيطالية والألمانية الواردة في هذا الكتاب.

محمد م. الارناؤوط

دمشق ١٩٨٧ ـ اربد ١٩٩١

الفصل الأول
الحضارات القديمة في الشرق الأوسط

١ ـ السومريون

تبدأ قصة الكتاب في السهول الخصبة للجزء الجنوبي من بلاد الرافدين، حيث أقام هناك حضارة متقدمة أحد أغرب الشعوب في تاريخ الإنسانية ـ السومريون.

وفي الواقع أن مصير هذا الشعب فريد من نوعه لأسباب كثيرة. فحتى هذا اليوم، وعلى الرغم من الأبحاث الاركيولوجية الكثيفة ودراسة الجوانب المادية والروحية لحضارته، لم يتم التوصل إلى أصل هذا الشعب ولا إلى الجنس الذي ينتمي إليه. وهناك من يفترض أن السومريين في النصف الثاني للألف الخامسة قبل الميلاد (وحتى أقدم من هذا عند بعض الباحثين) هبطوا من الشمال، وربما من منطقة بحر قزوين، واستوطنوا الجزء الجنوبي للسهول الخصبة بين دجلة والفرات. وبعد عدة قرون من قدومهم كان هؤلاء قد أقاموا حضارة ممتازة، ومن هذه الحضارة تشربت كل الحضارات الكبرى التي تطورت في الشرق الأوسط. إلا أن السومريين سرعان ما اختفوا من ساحة التاريخ بعد أن فقدوا استقلالهم السياسي في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد. وفي هذه الساحة جاء بعدهم الأكاديون والبابليون والآشوريون وغيرهم، الذين أخذوا وطوروا ما كانت قد وصلت إليه حضارة السومريين، ولذلك فقد اقترنت لاحقا بهؤلاء الشعوب الإنجازات الحضارية في حقل المعرفة وتنظيم الدولة والأدب إلخ. . . وهكذا فقد ضاع في النسيان حتى اسم السومريين وبقي منسيا حتى القرن التاسع عشر، حين أخذت الحفريات الأثرية تكشف عن المدن السومرية، وعن أقنية الري، وعن الهياكل الضخمة وعن آلاف الرقم الطينية التي نقشت عليها الكتابة السومرية أو الكتابة التصويرية. وهكذا أصبحنا الآن نعرف

الكثير عن السومريين، وعاد العلم للاعتراف لهم بالكثير من الإسهامات التي كانت تُنسب على مر القرون للشعوب الأخرى. وعلى رأس هذه الإسهامات، التي تضمن مكانة الشرف لهذا الشعب في تاريخ الحضارة العالمية، تأتي الكتابة والكتاب والمكتبات.

وفيما يتعلق بالكتابة مازلنا لا نعرف على وجه اليقين هل أن السومريين بالذات هم الذين قاموا أولا باستخدام الكتابة للتعبير عن الفكر، مع أن هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعا. إن أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هي تلك الرقم الطينية الصغيرة التى نقشت عليها الكتابة التصويرية والتي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وربما يكون السومريون قد بدأوا بالكتابة قبل هذا التاريخ على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للابد. ومن المحتمل أيضا ألا يكون السومريون هم أول من توصل إلى تطوير الكتابة كوسيلة جديدة للتواصل، أي أن يكونوا قد أخذوا هذا عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد الرافدين. وربما تجدر الإشارة هنا إلى الفرضية الجديدة التي تقول إن السومريين قد تعلموا الكتابة، من أحد الشعوب الذي كان على ضفاف نهر الدانوب، ولكنهم قاموا بدورهم بتطوير هذه الكتابة. وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور في ١٩٦١ على الرقم الطينية التي تعود إلى العصر الحجرى الجديد في منطقة تارتاريا برومانيا. فالتشابه بين الإشارات الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية، ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الإشارات، بالإضافة إلى الكثير من أمثالها التي تم اكتشافها قبل وبعد ١٩٦١في ضفاف الدانوب، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبيرة للشرق الأوسط إلا أن نتائج التحاليل الراديوكربونية قد فاجأت وحيرت الخبراء لأنها أوضحت أن تلك الإشارات من ضفاف الدانوب أقدم بمئات السنين من أقدم الرقم السومرية. وليس من المستبعد أن تفاجئنا التحاليل الراديوكربونية في المستقبل أيضا، ولذلك فإن الوقت مبكر جدا لاستخلاص رأى نهائي حول هذا، أي من الذي تأثر بالآخر. وبغض النظر عن الأسبقية الآن فهناك حقيقة يمكن أن نؤكدها

فورا، ألا وهي أن السومريين هم أول من ابتدع الكتابة التصويرية ثم طوروها إلى أن حولوها إلى نظام كتابي تطغى عليه السمات الصوتية.

لقد تم العثور على مئات من الرقم الطينية التي نقشت عليها الكتابة التصويرية وهي الأقدم التي طورها السومريون، في مدينة أوروك (التي وردت في التوراة باسم ارك) وهي تعود إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد. وفي ذلك الوقت كان السومريون يستعملون حوالي ٢٠٠٠ إشارة تصويرية، إلا أن هذا العدد أخذ يقل تدريجيا نتيجة لتزايد ارتباط الإشارات بالأصوات حتى وصل عددها إلى ٥٠٠ ـ ٦٠٠ إشارة خلال الألف الثانية قبل الميلاد. وبالإضافة إلى ذلك فقد تغير شكل الإشارات السومرية في حد ذاته على مر القرون. فالأشكال الأساسية ـ المرحلة التصويرية ستنتظم في إشارات لا تشبه كثيرا الأصول الأولى التي تطورت منها. وكان مما ساهم في التطور المورفولوجي للإشارات الطريقة الجديدة لكتابة هذه الإشارات على الطين الطرى بواسطة أقلام رفيعة من القصب أو الخشب إلخ.. تلك التي كانت تتحرك على الطين إشارات طويلة على شكل مثلث تشبه المسامير. ومن هنا جاءت تسمية هذه الكتابة أيضا (الكتابة المسمارية). وقد نجح السومريون في تطوير هذه الكتابة إلى حد أنهم استطاعوا أن يدونوا بها أدق المفاهيم التجريدية وأرق المشاعر.

إلا أن الكتابة التصويرية ثم الكتابة المسمارية لاحقا لم تنشأ وتتطور بدافع الرغبة في أن تكتب بها القصائد والقصص أو النصوص العلمية ـــ التعليمية. فقد طور السومريون الكتابة لدوافع عملية، أي لكى يسجلوا بها الاتفاقيات التجارية والمعاهدات مع الدول الأخرى، أو لكى يدونوا بها البضائع أو المواشي التي يدين بها بعض الأفراد إلى المعابد أو إلى المسؤولين المحليين إلخ.. وحتى في القرون اللاحقة، أي خلال ازدهار الإمبراطوريتين البابلية والآشورية وبقية الدول في الشرق الأوسط، فإن الكتابة كانت في الدرجة الأولى تُستخدم لغايات عملية.

فمن كل النصوص التي تم العثور عليها حتى الآن، سواء أكانت مدونة على الرقم الطينية أو على الأحجار أو على بقية المواد الأخرى التي كانت تصلح للكتابة،

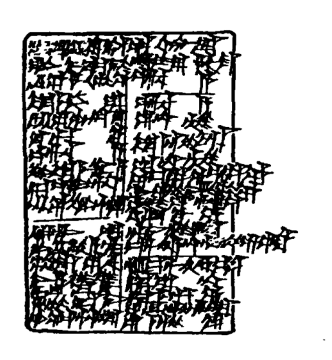
نجد أن ٩٥٪ من هذه النصوص تتعلق بأمور التجارة والإدارة وشؤون الدولة.

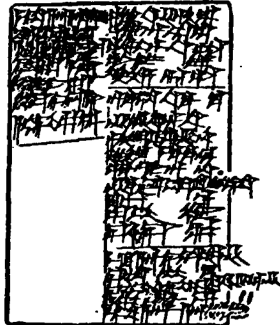
وهكذا فإن هذه النصوص لها أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة للتاريخ السياسي والاقتصادي للإنسانية، ولكن فيما يتعلق بالتاريخ الحضاري فإن النصوص الأخرى التي تتضمن الأدب والقوانين والميثولوجيا والفلك والبيطرة والتاريخ إلخ تُعتبر ذات أهمية أكبر. إن القراءة المتأنية لتلك الرقم الطينية، التي هي غالبا ما تكون مفتّتة ومتضررة كثيرا، قد قادت بالفعل إلى معارف مثيرة.

فقد كشفت هذه الرقم إن السومريين كان لهم أدب غني ومتطور وكانوا يعرفون أسس الكثير من المعارف الطبية، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتمتعون بميثولوجيا غنية جدا. وفي هذه الميثولوجيا يمكن أن نرى الكثير من الموتيفات التي استحوذت عليها لاحقا كل الشعوب في الشرق الأوسط، والتي عايشت كل التغيرات التاريخية لتصل إلى وقتنا هذا.

كان السومريون يحتفظون بالرقم الطينية في أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس. وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق في المدن السومرية الكبيرة كلاغاش وأوروك ونيبور إلخ. وفي الواقع إننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ولا نعرف شيئا عن تنظيمها وعملها. ومع ذلك فإن الخبير الأمريكي بتاريخ وثقافة السومريين س. ن. كرامر قد سلط أخيرا ضوءا ساطعا على هذه القضية المثيرة. فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على رقم طيني محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا ــ الولايات المتحدة) ما هو إلا فهرس لإحدى المكتبات. وفي الواقع أن هذا الرقم الطيني يعود إلى حوالي ٢٠٠٠ق. م، وقد تم العثور عليه في بقايا مدينة نيبور، المركز الديني والثقافي للسومريين حيث اكتشفت أيضا الكثير من الرقم الطينية بالإضافة إلى ورشة للكتابة في حالة جيدة ومدرسة أيضا. وعلى الوجه الأمامي والخلفي لهذا الرقم الطيني نجد سجلا لاثنين وستين كتابا في موضوعات مختلفة، حتى أن الكتب الـ ١٣ الأخيرة تنتمي إلى مجموعة (الحكمة). إن هذه المعلومة تقود إلى أن الرقم الطينية في مكتبات

ذلك الوقت كانت تتـوزع على مجموعات متنوعة حسب الموضـوعات المختلفة. و إذا كان كرامر على حق في ما وصل إليه فإن هذا دليل على وجود نظام للتصنيف البدائي في المكتبات السومرية.





أقدم كتالوج ـ سـجل مكتبي في العالم. اكتشف في نيبور ويعود إلى الـعهد السومـري (حوالي ٢٠٠٠ ق. م) يتضمن هذا الكتالوج ٦٢ عملا أدبيا، وهو محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا ـ أمريكا

ومن نيبور لدينـا أيضا رقم آخر محفوظ الآن في متحف اللوفر ببـاريس، وكان قد عثر عليه أيضا كرامر الباحث الجلود. وفي هذا الرقم تجد بعض عناوين الكتب التي دونت أيضـا في الـرقم المحفـوظ في فيـلادلفيا، ولكن لـدينـا أيضـا بعض العنـاوين الجديـدة بحيث يصل عـدد كل العنـاويـن المذكـورة على وجهي هـذا الـرقم إلى ٨٧ عنوانـا. وهنا لم تخف على عين كرامـر الخبيرة بعض التفاصيل المتعلقـة بالخط بحيث قاده ذلك إلى القول أن هذين الرقمين كتبتهما يد واحدة.

إننا لا نستغرب لكون القائمين على رعـاية تلك الرقم، لكي لا نقول العاملين في المكتبات ومراكـز الوثائق، الذين كان عليهم أن يجدوا الـرقم المطلوب بين المئات من الرقم، كـانوا يعمدون إلى ترتيب تلك الـرقم في الرفوف بشكل منطقي. فقـد كان في وسعهم أن يضعوا مثـلا الرقم التي تتضمن موضوعـات ميثولوجية في أحـد الرفوف،

وأن يضعوا في رف آخر الرقم التي تختص بـالرياضيات. ومن الصعب الآن أن نقطع أن هذا الفهـرس، كما نعرفـه الآن، له قيمـة عملية ولكنه دون شك يكشـف لنا عن جهد العاملين في المكتبات ومـراكز الوثائق لوضع وسيلة للتـوصل إلى ما هو مطلوب وسط الرقم الكثيرة الموجودة في المكتبات.

لقد سادت الثقافة السومرية في بلاد الرافدين فترة طويلة تزيد عن ١٥٠٠ سنة، أي من منتصف الألف الرابعـة ق. م وحتى بداية الألف الثانيـة ق. م. وخلال هذه الفترة الطـويلة تمكن الكتّـاب السـومريـون من تـدوين عدد كبير من النصـوص في موضوعـات مختلفة وفي نسخ متعددة. فبعض الحكايات الشائعـة، كما هو الأمر مع البطل غير المحظوظ جلجاميش، فقد حفظت في نسخ كثيرة وروايات متعددة. وقد كان السومريون أول من سجل هذه الحكاية ثم قام بتدوينها بعدهم الشعوب الكثيرة الأخرى التي توازنت حضـارتهم في تلك المنطقة. إلا أن الكتّاب السومـريين لم يدونوا فقط الأعمال الأدبية والميثولـوجية بل دونوا أيضا المعاجم والنصوص المتعلقـة بالبيطرة والريـاضيات وغير ذلك من النصـوص التي سجل فيها إنســان ذلك الوقت معـارفه و إنجازاته التقنية.

وفي الواقع أن السومريين هم أول من سجل تلك الإنجازات بهدف واضح، بأن يحفظوها للأجيال القادمة.

وبعبارة أخـرى فإن السومريين هم الذين خصّـوا الكتاب بالدور الـذي ارتبط به حتى هذه الأيام، أي أن يكون الحافظ للإنجازات الإنسانية الثقافية والتكنولوجية وأن يخدم أيضا الأهداف الرسمية والتعليمية وغير ذلك من الغايات اليومية.

في منتصف الألف الثـالثـة ق. م أخـذ الأكـاديـون السـاميـون ينتشرون في بـلاد الرافدين، وهكذا أخذ السومريـون يتلاشون من ساحة التاريخ تحت تأثير الضربات من هؤلاء القادمين الأقوياء. وهكذا بعـد صعود قصير وباهر في الألف الثانية ق. م حين عايشت الحضارة السـومرية أهم ازدهار لها، جـاء الآموريون الساميـون ليدمروا مقر دولتهـم، أور، وليخضعـوا أراضي السومريين إلى حكمهم. وعلى أنقاض الـدولة

السومرية والحضارة السومرية ستتطور لاحقا الدولة القوية للبابليين.

٢ ـ البابلــيون

أخـذ البابليـون وطوروا كل مـا خلفه السـومريـون في المجال الـروحي وفي حقل الحضارة المادية. فمن هـؤلاء أخذ البابليون الكتـابة المسمارية وكل المعارف الـرياضية والفلكية إلخ، بالإضافة إلى أسلوب بناء المدن والسدود إلخ. ولكي يفهموا النصوص التي ورثوها عن السـومريين فقد كان على البابليين أن يضعوا القـواميس العديدة وأن يترجموا النصـوص الأدبيـة وغيرهـا، وأن يتـابعـوا تطـويـر المعـارف حيـث تـوقف السومريون. وهكـذا فقد تفّوق المنتصرون الساميون، الذين انبهروا بـالتركة الروحية، للسـومريين المهـزومين في مجال الثقـافة والمعـارف. فقـد تحولت ملحمة جلجـاميش وغيرها من الأعمال الأدبية إلى جزء لا يتجزأ من الأدب البابلي.

لقد ورث البابليون عن السومريين أيضـا الموهبة الكبيرة للكتابة، بل إن الأساتذة البابليين قد تفوقوا أيضا على السومريين. ففي عصر الازدهار الكبير، وخاصة خلال عهد حمورابي في القـرن ١٨ ق.م توصل البابليـون إلى إنتاج كتابي ضخم ممـا دفع عالم الآثار الألماني ر. غولـدوى، الذي قام بالتنقيب في العـاصمة بابل، إلى أن يطلق على البابليين (أحباء الكتابـة) وفي الواقع أن عدد الرقم الطينية البابليـة التي تم اكتشافها حتى الآن يتجاوز ٦٠٠ ألف رقم تتضمن مختلف الموضوعات.

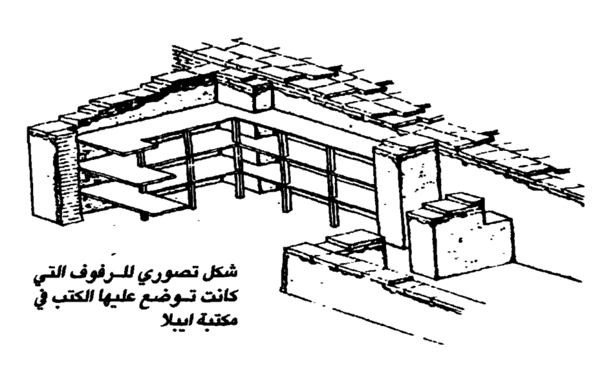
وكما في العصر السومري فقد كان البابليون أيضا يدونون وينسخون الرقم في ورش خاصـة ويحفظونها في المكتبات أو مـراكز الوثـائق، التي كانت تنتشر في المعـابد وفي قصـور الحكـام. وقد تم اكتشـاف مكتبـات من هـذا النوع تحتـوى كل واحـدة على عشرات الألوف من الرقم، في مدن كيش وسيبار وفي بقية المراكز الثقافية البابلية.

وبالإضـافة إلى البابليين فقد استعملت الكتـابة المسمارية والرقم الطينيـة شعوب أخرى في بلاد الرافدين وفي البلاد المجـاورة لها، وقد تمكن أيضا بعض هذه الشعوب من إنجاز إنتاج كتابي ضخم وتنظيم جيد للمكتبات.

٣ ـ المكتبة الرسمية في ايبلا

إن هـذه المكتبة أو مـركز الـوثائق تستحق عنـاية عـامة بسبب بعض التفـاصيل المتعلقة بها. وقد تم اكتشـاف هذه المكتبة مؤخرا في تل مـرديخ، الذي يقع على بعد ٥٥ كم في جنوب غـرب مدينة حلب بسوريـا، حيث كانت تقوم في الأزمنة القـديمة المدينة القوية والغنية ايبلا. ففي خلال ١٩٧٤ كشفت الحفريات الأثرية، التي كان يقوم بها منـذ ١٩٦٤ خبراء من جامعـة روما، عن مكتبـة أو مركز للـوثائق في حـالة جيـدة، بحيث يمكن القول إن هـذه أقدم مكتبـة تم اكتشافهـا حتى الآن في الشرق الأوسط. وخـلال الأبحاث الاركيـولوجيـة الكثيفة تم اكتشـاف بقايـا القصر الملكي الكبير الذى كـان يحتوى على قسمين خاصين بالكتب، ومن هنـا أخرج العلماء ١٧ ألف رقم طيني مـدونـة بـالحروف المسمارية ولكن في اللغـة المحليـة، أي في اللغـة الايبلية.

وقد كـان هذا القصر قد تهدم سنـة ٢٢٥٠ ق. م نتيجة للحريق الـذي شب فيه خـلال هجـوم الملك الأكـادى نارام سين. ونتيجـة لهذا الحريق فقـد التهمت النـار الرفـوف الخشبية التى كانت تحمل الـرقم الطينية، ممـا سبب تساقط هذه الـرقم فوق بعضها البعض وهذا ساعد العلماء على إعادة تصـور كيفية توزع هذه الرقم كما كانت في ذلك الوقت. وهكـذا فقد اتضح أن هذه الـرقم كانت مـرتبة الواحـد وراء الآخر



شكل تصوري للـرفوف التي كانت تـوضع عليها الكتب في مكتبة ايبلا

بحيث كـان في الإمكـان (تصفحها) كما يتصفح المرء اليـوم البطـاقـات المفهرسـة في المكتبات العامـة. أما الرقم الكبيرة، التي كانت تتعلق بشؤون الإدارة والـدولة، فقد كانت تسند على الجدار في الأرضية.

إن التحليل المتأني للمـواد المكتشفـة يكشف عـن تفـاصيل مثيرة، وهي تكشف بدورها كيف أن العاملين في تلك المكتبة قد توصلوا إلى حل جيد للوصول بسهولة إلى الرقم المطلوب. فقد كانت كل الرقم مـرتبة بحيث يبدو منها بداية النص، وفي رأس اللوح كـان يكتب العنوان بشكل مختص ولـذلك كان يمكن قـراءته بسهـولة دون أن تكون هناك حاجة إلى تحريك الرقم من مكـانه، وكان يمكن أيضا بالاستناد إلى ذلك معرفة محتوى الرقم.

بعد ذلك الحريق لم يتم تجديـد المكتبة أو مركز الـوثائق، ولا حتى القصر الملكي بكليته، ولذلـك فقد كانت هذه فرصـة نادرة لعلماء الآثار لكي يقومـوا بأبحاثهم في هذه المكتبة التي بقيت كما تركها الجنود الأكاديون. وهكذا فقد وجد العلماء ما يكفي من العناصر لإعادة تصور القصر الملكي كما كان في الواقع إلى حد كبير. فالغرفة التي عثروا فيها على النصوص الأدبية والتاريخيـة إلخ كانت مساحتها ٣×٤م وعلى جدران تلك الغرفـة بقيت آثار الحوامل الخشبيـة التي كانت ترفع الـرفوف المخصصـة للرقم الطينية الثقيلـة. وعلى الأرضية أيضا كـانت توجد وبأبعـاد مناسبة شقـوق للحوامل العامـودية التي كانت تسند الـرفوف الأفقية المملـوءة بالرقم الثقيلة. وبـالاستناد إلى ذلك أصبح في الإمكان معرفة عرض الرفوف (حوالي ٨٠سم) والارتفاع الذي يفصل كل رف عن الآخر (حوالي ٥٠سم).

ومن هـذه الـرقم المكتشفة لم يتم حتـى الآن إلا قراءة عـدد قليل، حـوالي الألف فقط.

ومن هـذه النصوص التي تمت قـراءتها يبدو بـوضوح أن القسم الأكبر من هـذه الرقم يحتوى على نصـوص إدارية وقانونية وسلطوية. وفي هـذه الرقم سجلات كثيرة للبضـائع التجاريـة التي كانت تصـل إلى أيبلا، وأوامـر ملكية مختلفـة، واتفاقيـات تجارية مـع المدن والدول المجاورة إلـخ. . ولكن في هذه الـرقم نجد أيضـا سجلات

مختلفة لحكام أيبلا ورسائل تاريخية وأناشيد وأعمال أدبية بالإضافة إلى عدد كبير من المعاجم الأيبلية ـ السومرية والحكايات الميثولوجية والأمثال إلخ ومن هذه النصوص نجد أن بعضها قد حفظ في أكثر من نسخة.

لقد كانت المعاجم توضع على رف خاص، بينما كانت النصوص الأدبية توضع على رف آخر خاص بها. وهكذا أيضا بالنسبة لبقية الموضوعات. ومن هذا يمكن أن نستخلص أن العاملين في أيبلا كانوا كزملائهم في نيبور يضعون الألواح في مجموعات منفصلة حسب الموضوعات.

ومن المحتمل جدا أن بقية المكتبات أو مراكز الوثائق في الشرق الأوسط كانت تشبه هذه المكتبة المكتشفة في أيبلا، إلا أن الحظ قد حالف العلماء هذه المرة ليجمعوا عناصر كافية تساعدهم على إعادة تصور كل الأمور الجوهرية لمكتبة من هذا النوع، وعلى التأكد من وجود نظام للتصنيف فيها.

٤ ـ الكتاب والمكتبات في أوغاريت

فيما يتعلق بتاريخ الكتاب في الشرق الأوسط، وبشكل خاص بالمكتبات، فإن المكتشفات الأركيولوجية في أوغاريت تعتبر ذات أهمية خاصة. وقد تم العثور على بقايا هذه المدينة في رأس شمرا، بالقرب من اللاذقية على الساحل السوري.

لقد كانت مدينة أوغاريت تمتد في موقع مناسب جدا حيث كانت تتقاطع الطرق التجارية والمؤثرات الحضارية للعالم في ذلك الوقت. فالتجار والدبلوماسيون والكهنة وغيرهم من أصحاب الغايات من مصر وبلاد الحيثيين والبابليين والآشوريين والمكانيين والقبارصة كانوا قد أوجدوا في أوغاريت تجمعا شرقيا وحضورا متميزا وبارزا في شوارع هذه المدينة.

وهكذا لم تكن أوغاريت مكانا للتجارة فقط بل كان يتم فيها تبادل الرأى ومعرفة كل ما يحصل في البلدان الأخرى، مما كان يخلق فيها شرطا مثاليا للمركز الديناميكي والخلاق الذي تبرز فيه الأفكار الجديدة والذي يضمن لنفسه التطور المتواصل.

لقـد وجد العلماء أنفسهم أمـام كنز لا يقـدر بثمن بعـد أن تولت بعثـة التنقيب الفرنسيـة برئاسـة ك . شافير العمل منذ ١٩٣٩ بشكـل واسع ومنظم في رأس شمرا . ومن بين الأشيـاء التي استخـرجت كانـت الرقم الطينيـة الكثيرة التي نقشت عليهـا الحروف المسمارية للغة مجهولة حتى ذلك الحين ـ اللغة الأوغاريتية ، بالإضافة إلى رقم كثيرة بلغـات تلك الشعوب التي كـان الأوغـاريتيون يقيمـون معهـا صلات تجاريـة ودبلـوماسيـة . وقد اتضح على الفـور أن مضمون تلك الـرقم مهم للغايـة فيما يتعلق بإعادة ترتيب الحوادث التـاريخية في النصف الثاني للألف الثـانية قبل الميلاد ، أى في الوقت الـذي كانت فيه أوغـاريت تعايش أعظم ازدهار اقتصـادي وثقافي . وبشكل خـاص لقد كـانت بعض الرقم تتمتع بقيمـة كبيرة ، وبالتحـديد تلك الألـواح التي تتضمن نصوصا أدبية وقـانونية ومعرفية ودينية . وبعبارة أخـرى فقد كان قد تجمع في أوغاريت جزء كبير مما أبدع خلال آلاف السنين في الشرق الأوسط . وقد كان التجار والأفراد العمليـون والأغاريتيـون قد بسّطـوا الحروف المسمارية إلى حـد كبير حتى أن عددهـا وصل إلى ثلاثين فقط ، وبهذا كـانوا قـد وضعوا واحـدة من أقدم الكتـابات الصوتية في العالم ، أي تلك الأبجدية التي تعود إلى القرن ١٥ ق . م .

وفي وسط من هذا النـوع كان لا بد بـالطبع أن تكون هنا ورش للكتابـة ومدارس للكتّاب ومكتبات أيضا ، وهي التى برزت بسرعة خلال الحفريات . ففي بداية أعمال التنقيب ، خلال عام ١٩٢٩ ، تم اكتشاف مكتبة بالإضافة إلى ورشة للكتابة في البناء ذاته . ومن خلال الكتابات الجدرانيـة اتضح أن ذلك البناء كان مقرا لسكن ومكتب رئيس الكهنـة في أوغاريت . وفي مكتبـة رئيس الكهنة كـان هذا يحتفظ بكتب دينيـة وثقافية ، نظرا للمنصب الرفيع الذي يحتلـه ، بالإضافة إلى كتب أدبية ومعاجم وحتى رسالة غير عادية بعنوان «معالجة الحصان المريض» .

ومع استمـرار الحفريـات الأثريـة تم اكتشـاف عدد آخـر من المكتبات في هـذه المدينة ، وبين هـذه كانت المكتبـات الخاصة هي الأكثـر عددا . ومن المثير فعـلا أنه حتى الآن لم يتم العثـور على مكتبة رسميـة أو مركـز للوثائق ، كما هـو الأمر مـع بقية المراكز الثقافية الكبرى في الشرق الأوسط .

فخلال عام ١٩٥٦ تم اكتشاف مكتبة خاصة في بيت أحد الموظفين الملكيين في ذلك الوقت. وفي هذه المكتبة وجدت رسائل كان هذا المسؤول قد تسلمها من حاكم قبرص ومن عدد آخر من الشخصيات الهامة في تلك الفترة. وبالإضافة إلى هذه الوثائق فقد كان هذا المسؤول يحتفظ في مكتبته بمعاجم متعددة، ومن هذه معجم بأربع لغات سومري ـ أكادى ـ حوري ـ أوغاريتي. ومن الواضح أن هذا المعجم كان ضروريا له للاتصال مع المحيط المتنوع الذي كان يتعامل معه من خلال مسؤولياته الرسمية.

وفي عام ١٩٥٩ اكتشفت مكتبة خاصة أخرى في هذه المدينة. وقد كانت هذه المكتبة موزعة على قسمين ووجد العلماء فيها معاجم كثيرة ونصوصا فلكية وأدبية، ومن بين هذه كان هناك مقطع للحكاية السومرية ـ البابلية الشائعة عن جلجاميش.

وخلال أعمال التنقيب الأخرى التى جرت سنة ١٩٦٢ ظهرت مكتبة خاصة أخرى بالقرب من أكروبول المدينة تحتوى على كتابات قانونية ومعرفية. كانت هذه المكتبة تخص أحد الموظفين الكبار في الدولة (نهاية القرن ١٥ وبداية القرن ١٤ق.م) الذي لم يكتف بتجميع النصوص التي يحتاج إليها خلال عمله الرسمي وإنما كان كغيره من المثقفين حريصا على أن يكون لديه في المكتبة من المعاجم والأعمال الأدبية الأوغاريتية والسومرية وغيرها. وفي هذه المكتبة نجد مجموعات مثيرة من الرقم الطينية التي كانت معروفة لدينا من خلال المكتبات الأخرى الخاصة في أوغاريت كتلك التى تتضمن تعابير الحكمة، التي تكشف عن الاهتمامات الفكرية للشريحة المثقفة في المجتمع الأوغاريتي. ففي أحد الرقم نقرأ ما يلي: «هل هناك حياة دون مجد وأكثر قيمة من الموت؟» وفي رقم آخر نصادف مثلا: «من الذي لا يتجاهل الضعف؟» أو «هذا هو قدر الأبرياء» إلخ.

وهكذا من المعطيات الكثيرة التى توصل إليها العلماء خلال أعمال التنقيب في المدينة القديمة يمكن لنا أن نستخلص أن الكتاب كان مقدرا جدا في الشرائح العليا للمجتمع الأوغاريتي وحتى أن بعض النصوص الأدبية والمعرفية كانت نصوصا مقررة للمتعلمين.

ومن الواضح هنا أن معرفة الأعمال الأدبية وبقية الأعمال السومرية ـ البابلية كانت في ذلك الوقت جزءا أساسيا من التعليم الأساسي. وبالاستناد إلى ذلك فمن المؤكد أن أفراد الطبقة الحاكمة من المسؤولين والكهنة والتجار كانوا يزدرون كل فرد يجهل ما يعرفونه، أو كل من لا يحتفظ في مكتبته الخاصة بالكتب المعروفة والشائعة كملحمة جلجاميش مثلا.

لقد تعرضت أوغاريت للغزو والتدمير على يد شعوب البحر. ومن حسن الحظ فعلا أنه لم يتم تجديدها لاحقا. فقد وجد علماء الآثار بقايا هذه المدينة كما تركها الغزاة، ودلّت أبحاث أولئك العلماء على أن أوغاريت لها مكان مشرف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات.

٥ ـ المكتبة الرسمية الحيثية في هاتاشاش

كان للحيثيين أيضا في عاصمتهم «حتوساس Hahusas » مكتبات أو مراكز للوثائق غنية ومنظمة بشكل جيد. وكان علماء الآثار قد حددوا ونقبوا عن هذه العاصمة في بوغاز كوى، التي تبعد حوالي ١٥٠ كم عن شرق أنقرة الحالية في تركيا. وخلال الحفريات التي استمرت منذ سنة ١٩٠٦ وحتى الآن، تم اكتشاف آلاف الرقم الطينية التي تحتوى على كتابات حيثية بالحروف المسمارية البابلية، والتى دونت خلال القرنين ١٤ ـ ١٣ق.م وتتضمن هذه الرقم نصوصا دبلوماسية وإدارية وسلطوية على الأغلب، ولكننا نجد فيها أيضا نصوصا كثيرة تحتوى على موضوعات تاريخية وعلى حكايات سومرية ـ بابلية، ومن ذلك بطبيعة الحال ملحمة جلجاميش. إلا أن هذه الحكايات لا توجد فقط في أصولها البابلية وإنما في عروضها الحيثية أيضا.

وفي الواقع إن وجود النصوص الأدبية والتاريخية كان يدفع للاعتقاد أن ما يضم هذه النصوص لم يكن مجرد مركز للوثائق. بل إن الأمر يتعلق بالمكتبة الرسمية الحيثية.

وحول هذه المكتبة أصبحنا نعرف الآن بعض المعطيات التي توضح إلى أى مدى

وصل العاملون في المكتبات بالشرق الأوسط فيما يختص بتنظيم الكتب في المكتبات. فقد استفـاد أولئك العاملون من خبرة الآخـرين المتراكمة على مر القـرون في المكتبات الأخرى للشرق الأوسـط وأصبحوا يعرفـون في ذلك الوقت كيـف يتوصلون إلى الـرقم المطلـوب وسط آلاف الرقم الأخـرى. ففي نهاية الـرقم الطينيـة في هاتـاشوش نجـد معطيات تتعلق بالعنوان، وبالتحديـد عن مضمون النص وحول الناسخ. وإذا كان النص في أحد الرقم يكتمل في رقم آخـر فإن الرقم في هذه الحالة كـانت تُرقّم، وكان النص في كل رقم آخر يبـدأ بالجملة الأخيرة الـواردة في الرقم السابق. ولمعرفـة مكان كل رقم أيضا فقد قام العاملون في المكتبـة بوضع فهرس للمكتبة. وبعبارة أخرى فإن هـذه المكتبة، كغيرهـا من المكتبـات الكثيرة خلال ذلك الـوقت في الشرق الأوسط، كانت تحظى بكل العناصر الجوهرية التي تميز المكتبة المنظمة عن المكان الذي تتجمع فيه الوثائق المكتوبة دون أي ترتيب.

٦ ـ مكتبة الملك الأشوري آشور بانيبال

بـالاستناد إلى العنـاصر المذكورة أعـلاه فقد تطـورت بأبعاد أوسع أهم مكتبـة في الشرق الأوسط، تلك التي أسّسها بكل عناية الحاكم الآشوري المثقف آشور بانيبال، الذي تولى الحكم خلال عام ٦٦٩ ـ ٦٢٧ق.م.

ولقد أدّت المصادفة أن تُكتشف هذه المكتبة في بداية التنقيبات الأثرية في بلاد ما بين النهرين. فخـلال عام ١٨٤٥ ــ ١٨٥١ كان قـد اكتشفها حينئـذ الدبلـوماسي الإنكليـزي الشـاب أ. هــ. لايرد في تل كيـونجيك بـالقـرب من الموصل، حيث تم اكتشاف بقايا العاصمة الآشورية نينوي.

وفي عــام ١٨٥٠ اكتشف لايـرد البــلاط الملكي للملك سنحــاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ق.م) ووجـد فيـه مـا سماه (غـرفة السجـلات). وقـد تـابع عملـه بعـد ذلك هــ. راسم خـلال (١٨٥٢ ـ ١٨٥٤) و(١٨٧٧ ــ ١٨٨١)، واكتشف بقـايـا قصر الملك آشور بانيبال ومكتبته التي تحتوي على أكثر من عشرين ألف رقم طيني.

لقد أثارت قراءة تلك الرقم، التي انتقلت إلى المتحف البريطاني في لندن، ضجة كبيرة سواء في وسط الخبراء في ذلك الـوقت أو في وسط المهتمين بالثقـافات القـديمة

للشرق الأوسط. وهكذا مثلا تم إكتشاف أن ذلك الحاكم الآشوري الكبير، الذي روت المصادر التاريخية الكثير عن شدته وحملاته الدموية ضد جيرانه، كان في الوقت ذاته عالما كبيرا ومحبا للكتب. وفي الواقع لقد كان هذا الملك هو أول من توصل إلى الفكرة بأن يجمع في مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السابقة في الشرق الأوسط في حقل الأدب والمعرفة، وهي المبادرة التي لامثيل لها في التاريخ.

إن الرقم التي اكتشفت في المكتبة الملكية تروى بنفسها كيف تم إنجاز هذه المبادرة. فمن خلال هذه الرقم أصبحنا نعرف كيف أن جيشا كاملا من الكُتَّاب قد كُلّف بأمر ملكي بأن ينسخ عدة مرات كل نص قديم يتم الحصول عليه. وقد كان الكتّاب يسجلون بفخر أصل وقدم الأصلي: «نص منسوخ من بلاد آشور التي هي مصدر النص الأصلي»، أو «حسب أحد الرقم من بابل» إلخ. وهكذا إن هذه الإشارات وغيرها تكشف عن الجهد والتنظيم الذي تم بها نسخ النصوص القديمة لمكتبة آشور بانيبال. وبالإضافة إلى هذا فقد تم ببساطة نقل الكثير من الرقم من المدن الأخرى للإمبراطورية الآشورية إلى هذه المكتبة. فمن هذه الرقم نفسها نعرف الآن أنه تم نقل مكتبة خاصة بكاملها من كلاح إلى نينوى.

لقد كان الملك آشور بانيبال يهتم بنفسه على أن يتم نسخ كل الرقم القديمة التي يمكن العثور عليها في أرجاء إمبراطوريته أو نقلها إلى مكتبته. ففي إحدى رسائله إلى أحد المسؤولين في بابل تجده يأمره كما يلي:

«ابحثوا عن الرقم القيّمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها لي. لقد كتبت الآن إلى رئيس الهيكل ومحافظ المدينة في بورسيبا عنك، وعليك الآن ياشادان أن تحفظ الرقم في مقرك بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئا. وحيثما تجد أي رقم أو أي نص شعائري يمكن أن يناسب قصري فخذه وأرسله إلى هنا».

ومن أمثال هذه الأوامر التي كان الملك يوجهها إلى العاملين لديه في أرجاء الأمبراطورية يمكن لنا أن نستخلص ببساطة أن الأسلوب الذي كان ينتهجه الملك لجمع الرقم المرغوبة لا يمكن أن يُمدح عليه. ولكن مع ذلك علينا أن نكون منصفين

لـه وأن نعترف بأن آشـور بانيبـال لا يمكن أن يقـارن بالكثير مـن الحكام الـلاحقين والزعماء العسكريين النابهين. وبعبارة أخـرى فإننا نعرف أن القسم الأكبر من مكتبته قد تجمع بواسطة نسخ الرقم القديمة وليس عن طريق نهب المكتبات الأخرى.

لقد سـاهم الكتّاب ــ الذين كـانوا يعملـون تحت متابعـة المسؤولين المتعلمين في القصر الملكي ـ والمصححون، والمصنفون، والعاملون الذين كانوا يشوون بعناية الرقم الطينية وأولئك الذين كانوا يرتبون الـرقم على الرفوف، بالإضافة إلى الكثيرين أيضا، لقد ساهم كل هـؤلاء تحت رعاية الموظفين الملكيين وحسب خطة الملك آشـور بانيبال نفسه في إنشاء أكبر مكتبـة في الشرق القديم. وفي الواقع لقد كـانت هذه المكتبة هي النموذج الأولى للمكتبـة، كما هو الحال مع مكتبة الإسكنـدرية من العصر الهليني، التي ستأخذ أرقى شكل لها.

كـان المسؤولـون عن تنظيم هـذه المكتبة يـواجهـون المشاكل أيضـا، مع أن تلك المشـاكل لم تبرز لأول مـرة في الشرق الأوسط. فقـد حـاول الآخـرون قبلهم حل تلك المشاكل، إلا أن هموم العـاملين في مكتبة آشـور بانيبال كـانت أكثر لأن هـذه المكتبة كانت أكبر مكتبة حتى ذلك الوقت.

فالسؤال كان دائما يدور حول أسلوب تـرتيب الرقم الطينية وطريقة تصنيفها لكي يسهل التوصل إلى الـرقم المطلوب. وبالاستناد إلى خبرة الذين سبقـوهم في حل هذه المشكـلات الصعبة فقـد كـانوا يـدركـون أنه من الصعب عليهـم التوصل إلى الـرقم المطلـوب إذا لم يكن لهذا اللـوح ما يحدد مـوضعـه على رف من الـرفوف. ولهذا فقـد استفادوا مـن الخبرة المتراكمة من الأزمنـة السابقة وقـاموا بترتيـب الرقم في مجمـوعات حسب نظام محدد بـالضبط. فقد كان لكل رقم يحدد مـوضعه في أية مجمـوعة، بينما كان في وسع المهتمين أن يحددوا بواسطة الفهرس موضع كل رقم.

كان لكل رقم مـا يشير إلى مضمونه وإلى ناسخـه وما شابـه ذلك. وفي نهاية كل رقم نص منقـوش بواسطـة قالب أو خـاتم: رُقْم رَقَم . . . . . في صف. . . . . . . قصر آشور بانيبال، ملك العالم، ملك بلاد الآشوريين.

ويبدو أن كتب هذه المكتبة كان يمكن أن تخدم دائرة واسعة من المتعلمين، وبالدرجة الأولى أولئك الذين يدخلون القصر الملكي. فوجود المعاجم اللغوية المتعددة وكتب القواعد وما شابه ذلك من الكتب يدل في ذاته على كثرة تداولها، إلا أن ذلك لا يمكن أن يقودنا إلى أن مكتبة آشور بانيبال كانت مكتبة عامة بالمفهوم الشائع في وقتنا هذا. وبعبارة أخرى لم يكن في وسع أي شخص أن يأتي ويستفيد مما هو متوفر في هذه المكتبة.

وأخيرا لقد أصبحنا نعرف لقب المنصب المهم لمدير هذه المكتبة: رب جرجيناكي، بينما كانت المكتبة ذاتها تُسمّى «جيرجيناكي» وذلك نسبة إلى اسم الخوابي الطينية التي كانت تُحفظ فيها بعض الرقم الطينية. وبالإضافة إلى ذلك نعرف أنه في هذه المكتبة كان يطبق نظام تصنيفي وعلى هذا الأساس كانت توزع الرقم في رفوف المكتبة.

بعد موت الملك آشور بانيبال جاء دور المكتبة أيضا. ففي سنة ٦١٢ق.م قام الملك الميدى كيازاس بتدمير نينوي من أساسها. وحتى هذه المدينة لم يتم تجديدها ولذلك فقد تمكن العلماء من اكتشاف بقايا مكتبة آشور بانيبال كما قد تركها الجيش الميدي.

٧ ـ المكتبات الأخرى في الشرق الأوسط القديم

تعرضنا حتى الآن إلى أهم المكتبات المكتشفة في الشرق الأوسط القديم. وتجدر الإشارة هنا، لكي لا يستخلص القارىء هنا صورة مشوهة عن أهمية الكلمة المكتوبة وتطور المكتبات في تلك المنطقة، إلى أن عددا كبيرا من الشعوب التي تعاقبت هنا، أو التي عاشت متجاورة في وقت واحد، قد خلفت كتبا ومكتبات كثيرة إلى حد يصعب فيه أن نذكرها فقط في هذا المجال. ومن هنا سنكتفي فقط بذكر البعض منها. ففي مدينة لاغاش السومرية مثلا التي نقب فيها أولا القنصل الفرنسي ارنست سرزيه خلال عام ١٨٧٧ ــ ١٩٠٠، ثم بقية العلماء بعده، تم اكتشاف أكثر من ألف رقم طيني. وفي مدينة شوروباك اكتشفت عدة مكتبات خاصة، وفي بورسيبا عُثر على مكتبة كبيرة في هيكل اللاأله بعل. ومن المصادر التاريخية نعرف أن

مدينة بابل الغنيـة كانت فيها مكتبات كثيرة. ومن هذه نذكـر على سبيل المثال مكتبة أسرة اغيبي الغنية، بينما نقلت من هذه المدينة رقم طينية كثيرة ورقوق جلدية إلى مدينة نينوى خلال عهـد الملك سرجون الثاني (نهاية القـرن الثامن ق. م). وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت كثير من الـرقم الطينية في بابل واستمـرت هذه المدينة غنيـة بالكتب حتى انهيارهـا خلال العهد الفارسي. وفي مـدينة أوروك كانت هنـاك المكتبة الشهيرة للملك الآشوري تيجـلات بيلسير الثالث (القرن الثامن ق. م)، التي كـانت تحتوى على تـرجمات من الأكاديـة إلى الآراميـة والآشوريـة، وكتب كثيرة للقـواعد ومعـاجم أيضا. وفي هـذه المكتبة كـان يوجـد رقم دونت عليه ملحمـة جلجاميش ورقـم أخر يتضمن حكايـة عن الفيضان الكبير الذي يغرق كـل العالم، وهو الرقم الـذي طلبه الملك آشور بانيبال لكي ينسخ ويحفظ في مكتبة في نينوي. وقد كان يوجد الكثير من أمثال هذه المكتبات لأنه من بداية الكتـابة وحتى العهد الفارسي كانت كل الشعوب في بلاد ما بين النهرين تحظي بثقافة مكتبية غنية.

وفي هـذه المنطقة كـان الحكام الأقـويـاء والإمبراطوريـات والمدن الغنية بين مـد وجزر، إلا أن الكتاب كان هو الذي وحد كل هذه في مجموعة كبيرة للشعوب المثقفة. فملحمة جلجـاميش وبقية النصـوص الأدبية والمعـرفية هي ملك لكـل الشعوب في تلك المنطقة بغض النظـر عن الدين واللغة والأصل. ولقد كـانت الحروف المسمارية أيضـا تربط بين تلك الشعـوب، إذ أن غالبيـة تلك الشعـوب كانت تستعمل هـذه الحروف بينما بقي البعض يستخدمها حتى القرون الأولى بعد الميلاد. وفي الحقيقة لقد كـانت هـذه الحروف تتغير وتتطـور نحـو الأحسن. ومع أن بعض الشعـوب اتخذت لنفسها لاحقا ابجديات خاصة بها، إلا أن البداية بالنسبة للجميع كانت في الحروف المسمارية.

٨ ـ الطين كمادة للكتابة

كنا قد ذكـرنا أن السومريين وبقية الشعوب في الشرق الأوسط قـد استخدموا على الأغلب الطين كمادة للكتابة. وفي الحقيقة أن الفضل فيما نعرفه عن ثقافات الشعوب

في الشرق الأوسط يعود إلى مقاومة الطين للتأثيرات المناخية، وبالتحديد إلى صلابته.

كانت تلك الشعوب تأخذ المادة الخام لصنع الرقم من ضفاف دجلة والفرات، بينما كانت طريقة صنع تلك الرقم بسيطة للغاية. ففي البداية كان الطين يوضع في إناء مع الماء بغرض تصفيته بحيث يسقط الحصى والمواد الثقيلة الأخرى نحو الأسفل بينما يطفو على السطح القش وفتات الخشب وغير ذلك من الشوائب. وفي هذه الحالة كان يلقى ما يطفو على السطح بحيث كان يسهل أخذ الطين بعد فصله عما هبط منه نحو الأسفل. وعلى هذا النحو كان يتم الحصول على الطين النقي الذي يستعمل لصناعة الرقم. وقد كان في الإمكان أيضا العثور على الطين النقي، الجاهز للاستعمال، من ضفاف دجلة والفرات، حيث كانت تقوم هناك الطبيعة بتصفية الطين عوضا عن الإنسان كما رأينا سابقا. فهنا أيضا كانت تسقط الحصى نحو الأسفل بينما كان ماء النهر يجرف الشوائب في طريقه، ولذلك فقد كان الطين مناسبا للاستعمال ولا يحتاج إلى أي تحضير.

أما حجم الرقم الطينية فقد كان مختلفا، من ٥ ـ ٦سم إلى ٢٥ ـ ٣٠سم من حيث الارتفاع.

كان الكُتَّاب ينقشون الإشارات على الطين النقي، ثم كانت توضع هذه الألواح تحت أشعة الشمس إلى أن تجف. أما الرقم التي تتضمن اتفاقيات تجارية هامة ووثائق للدولة وأعمالا أدبية ومعاجم، أو أي نص مخصص للاستخدام العام، فقد كان يتم شويها لحمايتها من التشوه.

كانت الرقم الطينية تُحفظ في الخوابي الطينية أو كانت ترتب بعد ذلك على الرفوف. وقد كانت الرقم غير المشوية حين تتصل بالرطوبة، وهي ليست حالة نادرة تمتص كثيرا من الرطوبة مع مرور الوقت حتى تتحول ثانية إلى طين طرى. وقد سبب هذا متاعب كثيرة للعلماء أثناء الحفريات، إلا أنه اليوم لدينا وسائل فعالة جدا لإنقاذ الرقم من هذا النوع. ولكن في الماضي كان يحدث من حين إلى آخر أن تضيع إلى الأبد

بعض الرقم بسبب هذا.

٩ ـ مكتبات أو مراكز للوثائق

لقد استعملنا حتى الآن تعبير «المكتبات» حين كنا نتحدث عن مجموعات الألواح الطينية المكتشفة في مدن الشرق الأوسط، وقد آن الأوان هنا لنتوقف عند هذا التعبير لكي نرى إلى حد ينطبق على تلك المجموعات من الألواح الطينية. إننا في الوقت الحاضر نقسم النصوص المكتوبة إلى مواد وثائقية (رسائل الحكام والكهنة والتجار، سجلات بيع وشراء البضائع سجلات أصحاب الديون، عقود بيع الأراضي إلخ. . .) وإلى مواد خاصة بالمكتبات إذا كان الأمر يتعلق بنصوص أدبية ومعجمية وبيطرية وقانونية إلخ، إلا أن هذا التقسيم يصعب تطبيقه على الألواح الطينية المذكورة. ولكن مع وجود العدد الكبير من الألواح التي تتضمن نصوصا إدارية وما شابه ذلك فإن تلك المجموعات من الألواح تجد مكانها في مركز الوثائق وليس في المكتبات. إلا أن السومريين أنفسهم وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط لم يهتموا كثيرا بالأمور التي ستحير المؤرخين لعدة آلاف من السنين: هل هذه مواد خاصة بمراكز الوثائق أو بالمكتبات؟ ومن هنا فقد كانت كل الألواح حينئذ توضع في مكان واحد بغض النظر عن مضمونها، إلا أن هذا لم يكن يمنع تصنيفها إلى مجموعات حسب الموضوعات التي تتضمنها.

ولذلك يمكن لنا في أغلب الحالات أن نستعمل تعبير المكتبة كمرادف لمركز الوثائق، أي مكتبة ومركز وثائق معا، إلا في الحالات الخاصة حين يتعلق الأمر بمركز للوثائق أو بمكتبة فقط.

١٠ ـ الفينيقيون

في تاريخ الكتاب، وبشكل خاص فيما يتعلق بالكتابة، يحتل الفينيقيون فصلا خاصا، وهم الذين تربطهم قرابة وثيقة بالأوغاريتيين. وقد كان الفينيقيون يسكنون منذ الألف الثالثة الشريط الساحلي لسوريا ولبنان، وأخذوا يمارسون التجارة منذ وقت مبكر جدا حتى أصبحوا مع مرور الزمن أشهر من مارس التجارة واختراق

البحار في الأزمنة القديمة. وفي الواقع لقد أملى عليهم موقعهم الاستراتيجي أن يكونوا في مفترق الطرق للحضارات المتقدمة التي كانت تتطور في البلدان المحيطة بهم كمصر وبلاد ما بين النهرين وكريت وآسيا الصغرى. ومن موانئهم المعروفة كبيبلوس وصيدا وصور وغيرها كانت تنطلق سفنهم التجارية السريعة إلى كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط، وحتى خارج هذا البحر. وقد كان للفينيقيين عدد كبير من المراكز والمستوطنات التجارية، التي كانت تضمن لهؤلاء البحارة الممتازين التجول في البحار وممارسة التجارة الرابحة.

ومن هنا لا نستغرب أن يتوصل الفينيقيون بالذات، وهم الذين اشتهروا كشعب عملي إلى المبادرة في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد لوضع نمط جديد من الحروف أسهل وأفضل بكثير من تلك المسمارية والهيروغليفية وغيرها من الحروف التي تطورت في منطقة الهلال الخصيب. وفي الواقع لقد أبدعت هذه المبادرة أبجدية جديدة بحروف مبسطة جدا لكل صوت، وبالتحديد فقد كانت هذه الأبجدية تتضمن ٢٢ رمزا للتعبير عن الأصوات فقط. وبعبارة أخرى فإن الفينيقيين، كبقية الساميين، لم تكن لديهم رموز خاصة للأصوات، وهي التي أضافها اليونانيون فيما بعد عندما أخذوا لأنفسهم الأبجدية الفينيقية.

لقد اشتهر الفينيقيون منذ العصر القديم، وبالتحديد منذ هيرودوت، بكونهم هم الذين أبدعوا الأبجدية بعد أن نشروها في كل البلدان الواقعة على البحر الأبيض المتوسط.

ولكن لا بد أن نذكر هنا أن الفينيقيين ليسوا هم أول من توصل إلى الرموز التي تعبر عن الأصوات، إذ أن هذا النوع من الحروف قد ظهرت قبلهم بثلاثة أو أربعة قرون في الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط. وكنا قد أشرنا إلى أن الأوغاريتيين قد استعملوا الرموز التي تعبّر عن الأصوات، كما أن هذه الرموز كانت معروفة في سيناء وغيرها. إلا أن هذا لم يؤثر على الشهرة التي لحقت بالفينيقيين في تاريخ الكتابة لأن الفضل يبقى لهم في أنهم هم الذين أبدعوا أبجدية جديدة ومبسطة ثم قاموا بنشر هذه الأبجدية على شواطيء البحر الأبيض المتوسط. ويكفي هنا

للتـدليل على أهمية ذلك أن اليـونـانيين قد أخـذوا هـذه الأبجديـة عن الفينيقيين ثم انتقلت بواسطتهم إلى بقية الشعوب .

لقد لعب الفينيقيـون أيضا دورا مهما كتجار لورق البردى . فمنـذ القرن ١١ق . م كان الفينيقيـون يشترون ورق البردى من مصر ثم يبيعونـه لبقية الشعوب ولليـونانيين أيضا . ولقد كان ورق البردى الـذي يشتريه اليونانيون يأتي غالبـا عبر بيبلوس ولذلك فقد أطلق اليـونانيون أولا على ورق الكتاب ثم على الكتاب نفسـه اسم «بيبلوس» أي نسبة إلى هذه المدينة الفينيقية .

أما عن الكتاب والمكتبـات عند الفينيقيين فنحن لا نعرف إلا القليل . ففي وقت متأخـر أخذ الكتّاب يـذكرون كتـب التاريخ والكتب المقـدسة المحفـوظة في المعـابد ومراكـز الوثـائق والمكتبات ، ولكنـه لم يكتب الاستمرار لشيء من هـذا . ولدينـا هنا معطيات أكثـر حول الكتاب في أهم مستوطنـة فينيقية ، في قرطـاجه التي تقع ضمن تونس حاليا . فقـد كان للقرطاجيين مراكز للوثائق ومكتبـات جيدة للغاية ، ويمكن للمرء أن يتعرف على مصير هذه بـواسطة ما خلّفه الكتاب الرومـانيون . وهكذا نجد أن الكاتب المطلع بلين الأكبر قـد ذكر في كتابـه التاريخ الطبيعي (١٨ ، ص٢٢) أن مجلس الشيوخ الروماني قد قام ، بعـد تولى القائد سكيبون الأفريقي سنة ١٤٦ق . م . الاستيلاء على قرطـاجة وتدميرها ، بتوزيع الكتب على الحكـام الأفريقيين المجاورين الذين لم يعارضوا تقدم الجيش الروماني الفاتح .

وقد كان من حظ رومـا أن يصلها كتاب الكاتب القرطاجي مـاغوا عن الزراعة ، وقد تُرجم هذا الكتاب أولا إلى اللاتينية ثم إلى اليونانية ، وقد أثر هذا الكتاب بشكل واضح على الأعمال المشابهة التي كتبت لاحقا في روما .

١١ ـ اليهــود

أن أقدم المعطيات عن الكتب والمكتبات عند اليهود نجدها في أسفارهم المقدسة حيث يتردد ذكر الكتاب والنساخ وحفظ الكتب في المعابد . فعلى سبيل المثال نجد أن الكتـاب الثاني عن المكـابيين (٢ , ١٣ ـ ١٥) يـذكر أن نحميـا كان يحتفظ بمكتبـة

تتضمن «كتب عن الملوك الأنبياء، عن داود وبقية الملوك»، كما أن يهوذا المكابي كان يملك مكتبة مثل هذه أيضا. وفي الكتاب الثاني (أخبار الأيام) (٣٤, ١٤ وغيرها) يقال إن الحبر حلقيا «وجد كتاب قوانين يهوه، التي نطق بها موسى» في «بيت يهوه»، أي في الهيكل. إلا أن ما بقي من الكتب والمكتبات اليهودية القديمة قليل جدا لأن الحروب المختلفة على مر القرون قد التهمت قسما كبيرا مما خلفه اليهود في العصر القديم. ففي فلسطين ذاتها لم يجد علماء الآثار حتى الآن إلا القليل من النصوص اليهودية المكتوبة التي ترجع إلى ماضيهم القديم، مع أن المصادر المكتوبة تشير إلى أن اليهود كانوا يملكون مكتبات كثيرة في البيوت أو في المعابد. ومن هذه الأخيرة كانت من الأهمية بمكان تلك التي وجدت في الهيكل الكبير.

وهكذا لم تكتشف حتى الآن من الماضي القديم سوى بعض الكتابات القصيرة على قطع فخارية كما في لاحيش وسماراً. أما أقدم النصوص اليهودية التي كُتبت على ورق البردى والتى حُفظت حتى الآن فهي التي اكتشفت في مطلع هذا القرن في الفانتينا قرب أسوان في مصر، حيث كانت تعيش هناك جالية يهودية قوية. وهذه النصوص ترجع إلى القرن الخامس ق.م وتحتوى على عقود مختلفة باللغة الآرامية. وقد حفظ لنا المناخ المصرى الجاف نصوصا أخرى مكتوبة على البردى فى إدفو ترجع إلى القرن ٣ ق.م، بينما لم يتم العثور في فلسطين ذاتها على لفائف من البردى إلا منذ القرن الثانى ق.م.

وقد تأخر أهم اكتشاف للنصوص الأدبية من العصر القديم حتى سنة ١٩٤٧، إلى أن تم ذلك في قمران بالقرب من البحر الميت. ففي تلك السنة كان أحد الرعاة البدو يبحث عن جدى له فدخل في كهف حيث اكتشف بالصدفة جرة من الفخار تحتوى على لفات من الرق. وقد أدت التنقيبات اللاحقة في الكهوف المجاورة إلى اكتشاف عدد كبير من المخطوطات التي تبين أنها تحتوى على مقاطع منسوخة من الأسفار المقدسة وعلى كتابات ممنوعة في ذلك الحين من ممثلي الديانة الرسمية، بالإضافة إلى نصوص مختلفة كـ«قواعد الجماعة» إلخ.

كانت هذه المخطوطات تخصّ المكتبة التي كانت تقع في المعبد القريب التابع

لطائفة اليهود الاسينيين وذلك في الفترة الواقعة خلال سنوات ١٣٦ ـ ٦٨ ق . م .(١) ويبدو أن الأحبار قد أخفوا كتبهم القيمة في الكهوف القريبة حين شعروا باقتراب الخطر الروماني، وعندما وصل الرومانيون وحولوا ذلك المعبد إلى محطة للجنود لم يتجرأ أحد على العودة للكتب .

ومنذ ١٩٤٩ تابع علماء الآثار التنقيب في مجمع المعبد المذكور وتمكنوا من اكتشاف ورشة للكتابة، حيث عثروا على محبرتين واحدة من النحاس والأخرى من الفخار مع بقايا حبر ثم على لوح كتب عليه الأحبار كتبهم وغير ذلك .

وقد أثار اكتشاف مكتبة طائفة الاسينيين في قمران اهتماما كبيرا لدى المختصين في الأبحاث التوراتية لأن بعض النصوص المكتشفة كانت أقدم ما عثر عليه حتى الآن حول الأسفار المقدسة (٢) .

لقد أوضحت مكتبة قمران، وهو ما ينتج عن كل ما نعرفه عن الكتب والمكتبات لدى اليهود القدماء، إن القائمين عليها كانوا ينسخون ويحتفظون بالأسفار الدينية المقدسة فقط، بينما كانت بقية الكتابات نادرة لديهم . ويُعتقد هنا أن أقدم قسم من الأسفار المقدسة قد برز في القرن ١٣ ق . م، بينما كتبت الأسفار الأخيرة في القرن الأول الميلادي . وقد كُتب الجزء الأكبر من هذه الأسفار في اللغة العبرية بينما كتب الجزء الآخر في الآرامية واليونانية . وبفضل إصرار اليهود على كتابة أسفارهم المقدسة خلال كل ماضيهم العاصف فقد واجهت تلك الأسفار كل التقلبات لتصل إلى عصرنا هذا .

وفيما يتعلق باستنساخ الأسفار المقدسة فقد كان من الأهمية بمكان دور الجاليات اليهودية الكثيرة التي كانت منتشرة في كل العالم اليوناني ـ الروماني . ففي مصر

---

(١) الاسينيون Essenes طائفة يهودية كانت تعيش حياة النساك، ويقال إن المسيحية الأولى قد تأثرت بهم وإن المسيح كان عضوا في هذه الفرقة الدينية . (المحرر) .

(٢) تعرف هذه الوثائق بلفائف البحر الميت Dead Sea Scrolls وقد أثار كشفها ضجة كبرى وحدثت مشكلات هائلة مع الهيئات الكنسية الرسمية بشأن نشرها رغم التحمس الشديد الذي أبداه العلماء لهذا النشر . وأخيرا أمكن التغلب على جزء من مقاومة الكنيسة الرسمية وبدأ نشر بعض الاجزاء من جامعة اوكسفورد مؤخرا، ومايزال الجدل حول هذا الموضوع مستمرا . (المحرر) .

بالذات، وتلبية لحاجة اليهود هناك، برزت مثلا الترجمة المعروفة للأسفار المقدسة بـ «الترجمة السبعينية» واستنادا إلى إحدى الروايات فقد دعيت هذه الترجمة بهذا الاسم لأن اثنين وسبعين يهوديا أنجزوا في الإسكندرية خلال اثنين وسبعين يوما هذه الترجمة من العبرية إلى اليونانية. وفي الحقيقة لقد تمت هذه الترجمة خلال القرنين الثالث والثاني ق. م.

أما فيما يتعلق بكتابة الأسفار المقدسة فقد استعمل اليهود الرق فقط، وحول هذا لدينا إشارات بارزة في الأسفار المقدسة ذاتها. وفيما يتعلق بالنصوص الأخرى، غير الدينية، فقد كانت تستعمل مواد أخرى كقطع الفخار وألواح الشمع والبردى وألواح النحاس وغير ذلك. وحتي نهاية العصر القديم كانت الكتب اليهودية تأخذ شكل اللفافات بينما أخذت أيضا منذ القرن الخامس الميلادى شكل الكراسات.

١٢ ـ مصر

على الطرف الغربي لما يسمى بالهلال الخصيب، وفي الوادى الخصب لنهر النيل، تطورت منذ نهاية الألف الرابعة ق. م الحضارة المصرية العظيمة التي حظيت فيها الكلمة المكتوبة بمكانة خاصة. فقد كانت معرفة القراءة والكتابة تعني لكل مصري تأمين مركز ممتاز في المجتمع، ولذلك فقد نصح العجوز دوا أوف بحكمة ابنه بيبيا حين وجهه إلى المدرسة بأن يحب الكتاب كأمه «لأنه لايوجد ما هو أثمن من الكتاب». وفي الواقع لقد كان الطريق مفتوحا أمام الكاتب الماهر إلى أعلى المناصب في الدولة. إلا أن تعلم الكتابة في مصر القديمة لم يكن بالأمر السهل الذي ينتهي منه المرء بسرعة.

فقد كانت الكتابات المعقدة التي كان يستعملها المصريون كالهيروغليفية (منذ الألف الرابعة ق. م) والهيراطيقية (منذ الألف الثالثة ق. م) الديموتيقية (منذ القرن السابع ق. م) تتطلب تدربا طويلا ومتأنيا وهو ما كان يصاحبه في كثير من الأحيان تأنيب الوالد والمعلم وحتى الضرب بالعصا. ولذلك فقد كان من حق أفضل التلاميذ فقط أن يأملوا في صعود سلم المناصب في الدولة أو في العمل الدبلوماسي

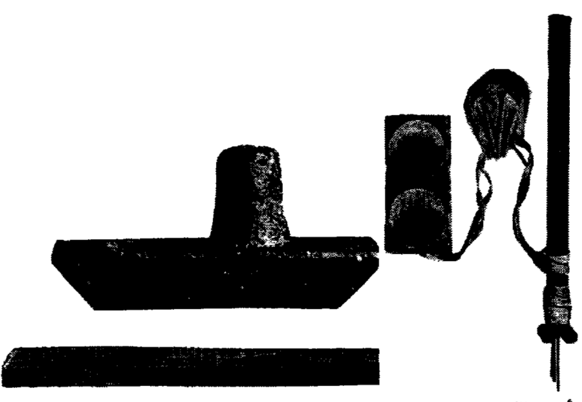
بينما كان على الآخرين ـ الأقل قدرة والأقل خبرة ـ أن يقتنعوا بالعمل كموظفين في الإدارات .

ولكن حتى هذه الوظائف كانت تعني الكثير، حتى أن تلك الألقاب «البيروقراطية» تحولت إلى مثل أعلى للشباب المصرى . ومن هنا فقد كان الآباء والآخرون الذين يهتمون بالكتاب الشباب يتحدثون بحماس عن معنى أن يكون المرء كاتبا : «إنك تسير بحرية في الطريق ولن تكون ثورا يقوده الآخرون . إنك في مقدمة الآخرين كلهم» ومن هنا فقد كان من المهم للفتى أن يتابع تعلمه وأن ينجح في المدرسة . ولذلك فقد كان التلاميذ والآباء يطلبون المساعدة غالبا من الإله توت، حامي الكتاب وراعي الآلهة، الذي كان حسب المعتقدات المصرية هو الذي اخترع الكتابة وعلمها للمصريين .

كان المصريون أيضا يقدّرون الكتاب ذاته تقديرا يكاد يقترب من العبادة . وهكذا نقرأ مثلا في أحد النصوص رأيا عميقا حول قيمة الكلمة المكتوبة : «لقد مات الإنسان وتحولت جثته إلى مسحوق وأصبح كل معاصريه تحت التراب . إلا أن الكتاب هو الذي ينقل ذكراه من فم إلى فم . إن الكتابة أنفع من البيت المبنى ومن الصومعة في الغرب ومن القلعة الحصينة ومن النصب في المعبد» .

ويتوقع المرء في هذه الحالة أن المصريين، الذين مجدوا إلى هذا الحد الكتابة والكتاب، كان لهم إنتاج كبير من الكتب وشبكة جيدة التنظيم لتوزيع الكتب ومكتبات غنية .

ولكن من كل هذا لا يجد المرء فعلا إلا القليل . لقد كانت الكلمة المكتوبة في مصر تحظى فعلا بالتقدير إلا أن العمل الثقافي لم يكن يثير الرغبة في الشرائح الواسعة للمجتمع بقدر ما كانت الرغبة تكمن في تأمين منصب اجتماعي يضمن الامتيازات عن طريق معرفة الكتابة والتفوق بها . وهكذا يستغرب المرء مثلا من أن المصريين كانوا لا يعبرون عن اهتمام كبير لكتابة تاريخهم، وحتى لكتابة المعارف الطبيعية . وفي الحقيقة أن هذه المعارف لم تكن مرتبطة بشكل ما بديانتهم أو بمعتقداتهم (كالفلك مثلا) .



أدوات للكتابة من عهد الدولة المصرية القديمة، وهي محفوظة اليوم في «المتحف المصري» - برلين

إن هذا ينطبق أيضا على الرياضيات التي توصلوا فيها إلى نتائج قيمة، ولكنهم أيضا لم يطوروها إلا بالقدر الذى كانوا يحتاجون إليه لحل الأمور العملية الحياتية.

وهكذا كان المصريون نادرا ما يكتبون مؤلفات في هذه المعارف، وقد كان السبب في هذا يكمن أيضا في أن المعرفة كانت تنتقل شفهيا من جيل إلى آخر.

وقد انتقلت هكذا أيضا الأعمال الأدبية، التي بقيت تتردد على أفواه الناس مئات وآلاف السنين دون أن يلتفت إليها أحد الكتاب لتدوينها. ولذلك فإن النصوص المكتوبة كانت نادرا ما تتضمن أعمالا أدبية، وهي التي أخذ جمهور القراء في التعرف عليها حينئذ، بل كانت تتضمن الآثار الموجودة والمعروفة من الأدب الشعبي وهي التي بقيت حية دون أن تتأثر بكونها قد دونت أولا. أما الأعمال الإبداعية كقصائد الحب ومدح الحكام والآلهة والقصص المختلفة وما شابه ذلك فقد كانت مخصصة لدائرة ضيقة جدا من الناس المتعلمين، وهو بالتأكيد السبب في عدم نسخ هذه الأعمال في أعداد كبيرة أو في عدم طرحها للبيع في الأسواق.

أ ـ مواد الكتابة وإنتاج الكتاب

كان المصريون بكتابتهم الهيروغليفية الجميلة يكتبون غالبا على الحجارة المسطحة للمعابد وعلى المقابر وبقية المنشآت ثم على الخشب، بينما كانوا نادرا ما يكتبون على المواد الطرية. وكان أولئك الذين لا يعرفون القراءة ـ وهم كانوا دائما يشكلون الغالبية ـ يتمكنون من فهم ما تريد أن تقوله تلك الكتابات بفضل الأشكال التصويرية (نقوش جدارية على مواد صلبة أو رسوم بألوان متعددة على مواد طرية) التى كانت تصاحب النصوص.

لقد كان المصريون نادرا ما يستعملون الألواح الخشبية للكتابة، وحتى إذا استعملوها فقد كانوا يتركونها لكتابة النصوص القصيرة. وقد استعمل الرق للكتابة أيضا، ولكن في حالات خاصة جدا كتدوين بعض وثائق الدولة التي لها أهمية خاصة وما شابه ذلك. وفيما يتعلق باستعمال الرق للكتابة فإن أقدم خبر عن ذلك يعود إلى الأسرة الرابعة (٢٥٠٠ق.م)، ولكن أقدم نموذج للرق المستعمل للكتابة يعود إلى الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ق.م). وبعد ذلك بقي الرق يستعمل للكتابة من حين إلى آخر حتى أواخر عهد الدولة المصرية.

أما أكثر مادة استعملت للكتابة خلال استمرار الحضارة المصرية فقد كان ورق البردى. وهناك أدلة مؤكدة تثبت أن ورق البردى استعمل منذ عهد الأسرة الأولى في بداية الألف الثالثة ق.م، مع أن أقدم نموذج من ورق البردي يعود إلى زمن الفرعون نفريركر من الأسرة الخامسة.

وفيما بعد أصبح ورق البردى سلعة مهمة للتصدير في البلدان المجاورة كما في فينيقيا وسوريا منذ القرن الحادى عشر ق.م، ثم في اليونان وروما حيث ساد كمادة إلى أن حل محله الرق أولا ثم الورق أخيرا خلال القرون الوسطى.

وفي موضع لاحق سنتحدث أكثر عن تقنية إنتاج ورق البردي، ولكن سنكتفي هنا بذكر أن استعمال الكتابة الهيراطيقية ـ وهي شكل مبسط من الهيروغليفية ـ يرتبط بشكل وثيق مع استعمال ورق البردى كمادة للكتابة.

وبفضل المناخ المصري الملائم للغـاية فقد تم الحفاظ على عدد كبير مـن لفافات البردى، وخاصة في المقـابر كما في بقايا المعـابد وحتى في البيوت الخاصـة. ولقد كان الكتاب المدون على ورق البردى فى مصر يأخذ دائما شكل اللفـافة، وقد بقي الكتاب على هذا الشكل حتى في العهود اللاحقة كاليوناني والروماني.

أما فيما يتعلق بالكتابة فقد استعمل المصريون أقلاما من نبتة تنمو في المستنقعات يتراوح طولها بين ١٦ ــ ٢٣سم. وقد كانت هـذه الأقلام تقطع بشكل مـائل في أحد أطرافها ثم يبرى رأسها إلى أن يسمح بـالكتابة الدقيقة جدا. وقـد كانت هذه الأقلام تُغمر في حبر أسود أو أحمر ثم يكتـب بها على ورق البردى أو على المواد الأخرى. وقد كانت أمثال هـذه الأقلام تحفظ في محفظة خاصة مصنـوعة من القصب، أو في علبة مستطيلة من الخشب، وأحيـانا في علب مصنوعة من العـاج أو من المرمر. وفي هذه المحافظ أو العلب كانت توجد محبرتان، واحدة للحبر الأسود وواحدة للحبر الأحمر. وبالإضافـة إلى هذا فقد كانت عدة الكاتب تشمل أيضـا كيسا صغيرا من الجلد للماء المخصص لتمديـد الحبر قبل استعماله، أو لمسح كلمة مكتوبـة بالخطأ أو لمسح رسم مرسوم بشكل سيء.

وتصور لنا الأعمال الفنيـة كيف كان الكتّاب يقومون بعملهم. فقـد كان الكتّاب يركعـون على القدم اليسرى ويستندون على القدم الأخـرى بيدهـم اليسرى التي تحمل اللفافة، وقد كـانوا يجلسون القرفصاء كما يجلس النـاس اليوم في الشرق. وحول هذا لدينا أشهر تمثال يبرز الكاتب في هذه الوضعية في متحف اللوفر بباريس.

وبالطبع فقد كـان أكثر ما كتبه الكتّاب ذو طابع إدارى. وفي الـواقع لقد كانت الـدولـة هي التي تنظم وتمول المدارس لتخـريـج الكتـاب لأنها كـانت تحتـاج إليهم بالذات لممارسة الأعمال الوظيفية وما شابه ذلك.

ومع ذلك فقد كانت تتوفر لهم أيضا الأوقـات لنسخ النصوص الدينية والسحرية المختلفـة والأدبيـة وغير ذلك من النصـوص، وخـاصـة لنسخ مـا يسمى (كتب الأموات). فقد كانت بعض الأعمال الأدبية، كالقصـة المعروفة عن سينوحي أو قصة الفـلاح البليغ وغيرهـا، تنسخ بنـاء على طلـب الأفـراد ولم تكن تنسخ لتبـاع في الأسواق.

ب ـ كـتب الأمـوات

يبدو أن الكتب الوحيدة التى كانت تنسخ بكميات كبيرة وتطرح للبيع هي كتب الموتى. وقد كانت هذه عبارة عن مجموعات تتألف من نصوص مختلفة تتعلق بالدين والسحر وينتظر منها أن تـؤمن للمدفون الـراحة في حيـاة القبر، ولذلك فقـد كانت توضع مع الأشياء الأخـرى في قبر الإنسان المدفون! وهذه المجمـوعات كانت تتألف على الغالب من فصـول غير مرتبطة بعضها ببعض وتعرضـت بدورها إلى تغيرات عبر العصور. ففي عصر الإمبراطـورية القديمـة كان يكتب على الجدران الـداخلية للقبر أحد الفصول من كتب الموتى، بينما أخذت تلك الكتب تكتب على ورق البردى منذ عصر الإمبراطورية المتوسطة وخاصة خلال عصر الإمبراطورية الحديثة. وعلى الغالب كـان الكتّـاب ينجـزون عملهم بسرعـة ودون تأني، ولـذلك فإن أفضل النماذج فقط منسوخة بشكل سليم. ومن هذا نجد أن أحد الكتاب يفخر بإنجازه لكتاب من هذا النوع خلال عهد السلالـة ١٨، وهي الفترة التي ظهرت فيها أجمل ما حفظ من كتب الموتى، ويذكر في نهاية النص أنه قد نسخ الكتاب منذ البداية وحتى النهاية وأنه «قد راجعه وقـارنه وتأكـد من كل إشارة فيـه». إلا أن بقية الكتّـاب لم يكن في وسعهم أن يفخـروا بعملهم كهذا الكـاتب، ولكنه كـان من الواضح أنـه لم يكن هناك مـا يبرر للطـرفين ـ للكتّـاب أو للمشترين ـ أن يجهدوا أنفسهم بعمل لن يتمكن أي إنسـان حى من قراءته ومراجعته.

أن أجمل النماذج من هذه الكتب هي تلك التي زُيّنت بـرسوم ملونه تمثل مشـاهد من حياة القبر لـلإنسان المدفون وما شـابه ذلك. وكثيرا ما يُقال هنـا أن هذه الكتب تُعتبر أقدم الكتب المصورة في العالم.

كانت هذه الكتب تكتب من قبل الكهنة، وقد كان هؤلاء يتركون في النسخ المعدة للبيع في الأسواق مكانا فارغا ليكتب فيه اسم الشخص المتوفي.

وفيما يتعلق بالتجارة في هذه الكتب فإننا لا نعرف الكثير بعد، إلا أن هذه الكتب كانت تُباع بـالفعل ولدينا معطيات من عهد الأسرة ١٨ توضح سعـر كتابين من هذا النوع.

ج ـ إعداد وحفظ الكتاب

إن المشاهـد الكثيرة تساعدنـا على معرفة كيف أن الكتب، التي كـانت على هيئة لفافات من البردى، كـانت تُحفظ في صناديق خشبية أو في جرات فخـارية. وقد تم العثور في المقابـر على صناديق مزينة، وفي أحد القبـور في طيبة اكتشف صندوق من هذا النـوع يرجع إلى الأسرة ١٣. وفي هذا الصندوق كـانت قد وضعت عدة لفـافات من ورق البردى التي تحتوى على نصوص طبيـة وجغرافية بالإضافـة إلى قصة سنوحي وبعض النصوص الأدبيـة الأخرى. وبالقـرب من سقارة اكتشفت جـرة تحتوى على نصين، الأول قانوني والثاني طبي. ومن المعتقد هنا أنه في هذا النوع في تل العمارنة تم اكتشـاف ذلك اللـوح من البـورسلان الـذي يحتفظ بـه اليـوم المتحف البريطـاني في لندن.

ففي هذا اللوح نجد اسـم الفرعون أمينوقيس الثالث واسم زوجته تييـا بالإضافة إلى عنوان كتاب «كتـاب حول التين والزيتون». ومن الـواضح أن ذلك الكتاب كان ملكا للحاكم المذكور وزوجته. ويمكننا من هذا أن نستخلص أن هذين أيضا، مثل ذلك المدفون في طيبة، كانت لهما مكتبة خاصة وضعت لهما في الصندوق.

د ـ المكتبات في مصر الفرعونية

تبلغ نسبة كتب الموتى ٩٥٪ من كل مـا حفظه لنا الـزمن من الكتب المدونة على ورق البردى، أى تلك الكتب التي كانت تنسخ كثيرا والتى لم تكن في الواقع مخصصة للقـراءة. أما بقيـة الكتب التي كـانت تتمتع بشهـرة ما فقـد كـانت تنسخ للمثقفين الذين كانوا يشكلون دائرة ضيقة نسبيا.

أما من كان يملك مكتبة خاصة فقد كان يعتبر من النادرين، وإذا استندنا إلى ما نعرفـه عن هؤلاء يمكن القول أن هذه المكتبـات كانت تحتوى على قـدر متواضع من الكتب.

وفي الواقع لقـد كانت هناك أسباب وراء نـدرة المكتبات وقلة مـا فيها من كتب: الإنتاج المحدود للكتاب، وعـدم تطور التجارة بالكتب، وانحصار الكتـابة بالكهنة والطبقة البيروقـراطية. وباستثناء مـا كان في حوزة بعض الأفراد فقـد كانت الكتب

تحفظ في المعابد، أو في المدارس التابعة لتلك المعابد، ثم في قصور الحكام.

وبالإستناد إلى الوصف الذي خلفه لنا المؤرخ اليوناني ديدرو الصقلي، من القرن الأول ق.م، فقد أصبحنا نعرف عن وجود مكتبة الفرعون رمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥ق.م) في مدينة طيبة. ومع ذلك فإن التنقيبات الأركيولوجية في المعبد الضخم لرمسيس لم تنجح بشكل قطعي في إثبات وجود بقايا هذه المكتبة. إلا أنه بالقرب من هذا المعبد تم اكتشاف قبرين للمسؤولين في المكتبة، لأب وابنه. وقد كان الأب يحمل لقب «مدير الكتب» بينما كان الأبن يشغل منصب «رئيس قسم الكتب». وفي الواقع أن هذا الاكتشاف يفيد كدليل غير مباشر في التأكيد على وجود ذلك الفرعون.

وقد كانت هناك مكتبة أخرى بالتأكيد في المعبد المعروف للإلهة أزيدا في جزيرة فيلاى، فقد تم هنا اكتشاف لوحة كتب عليها: «هذه صالة الكتب للمكرّمة سيشات، إلهة التاريخ، التي تحفظ فيها وثائق ازيدا التي تهب الحياة». وقد إكتشفت في القاعة التي وجدت فيها هذه اللوحة رفوف داخل الجدران، حيث كان من الواضح أنها تستعمل لحفظ لفافات البردي.

ومن بين المكتبات التي لا يشك في وجودها بمصر القديمة تأتي تلك المكتبة التي اكتشفت في معبد الإله هوروس في موقع إدفا. ففي بقايا هذا المعبد هناك قاعة على رفوف داخل الجدران لحفظ لفافات البردى، بينما وجدت على أحد الجدران قائمة بالكتب المحفوظة (٣٧ عنوانا). وفي الواقع أن هذا أقدم فهرس للكتب يعثر عليه في مصر، وهو يرجع إلى النصف الثاني للقرن الثالث ق.م.

إن هذه المكتبة تثبت كيف أن الكتاب، وحتى في تلك الفترة المتأخرة لمصر الفرعونية، كان نادرا للغاية وغير متوفر لدائرة واسعة من القراء. فبينما كانت هذه المكتبة تحتوى على ٣٧ كتابا، وربما أكثر بقليل من هذا، نجد أنه في الوقت ذاته كان الحكام البطالسة في مصر، وبالتحديد في الإسكندرية التي كانت قد أسست حينئذ، قد بنوا مكتبة حوت خلال وقت قصير على مئات الألوف من الكتب. وهذا التباين الهائل يصور بشكل واضح الفرق بين الثقافة الفرعونية السكونية المحافظة وتلك

الهلنستية الحيويـة في مصر. فبينما كانت مكتبة الإسكندريـة تقوم بدور ضخم في تطور المعرفة والثقافة لإنها كانت مفتوحة أمام الناس المثقفين لممارسة نشاطهم الثقافي، نجد أن مكتبة الإله هوروس كانت تستقبل فقط كهنة ذلك المعبد. وحتى هؤلاء كانوا لا يستفيدون من المكتبـة كثيرا بسبب فقر محتـويات الكتب التي كـانت تحفظ فيها، والتي كانت على الأغلب تتعلق بالديانة والسحر وما شابه ذلك.

المراجـع

حول تاريخ الكتاب والمكتبات في الشرق الأوسط لدينا مرآة جيدة لدى :

F.Milku-J. Schawe, Der alte Vorderorient,

وذلك في :

Handbuch der bibliothekswissenschaft, 2. Aufl., Wiesbaden 1955 Bd.III

حيث لدينا قائمـة كبيرة بالمصادر القديمة . وقد وسع ميلكا ودراستـه هذه و إصدرها في كتاب مستقل بعنوان «تاريخ المكتبات في الشرق القديم» :

F. Milkau, Geschichte der biblioteken des Alten Orient, Lajpcig 1935.

انظر أيضا :

B. Teloni, Libri, documenti e biblioteche nell'antica Mesopotamia, Revista delle biblioteche 2 (1889), p. 134-150.

G. H. Bushnell, The World's Earliest Libraries, London 1931.

E. Chiera, They Wrote on Clay, The Babylonian Tablets Speak Today, Chicago-London 1975.

وحول السومريين وكتبهم بشكل خاص انظر:

S. N. Kramer, History Begins at Sumer, New York 1959.

J. P. Peters, The Nippur Library, Journal of the American Oriental Society, 26 (1905), p. 145-164.

حول مكتبة ايبلا ومركز الوثائق فيها :

P. Matthiae, La biblioteca reale di Ebla (2400-2250 A.C.), Rendiconti della Pontificia Accademia Romana di Archeologia, 48(1976), p. 19-45.

P. Matthiae, Ebla un impero ritrovato, Torino 1977.

ولدينا وصف مفصل للمكتبة لدى :

H. H. Wellish, Ebla: The World's Oldest Library, The Journal of Library History, 16(1981), Nr. 3, p. 488-5090.

ولدينا وصف مفصل للمكتبات الخاصة في أوغاريت لدى :

V. Burr, Bibliotheken in Ugarit, Zeitschrif fur Bibliiothekswesen und Bibliographie, 14(1967), p. 154-167.

حول مكتبة أشور بانيبال كتب الكثير، ومن أهم الدراسات نذكر هنا :

G. Smith, Babylonian and Assyrian Libraries, North British Review, 120(1870), p. 305-324.

B. Meissner Wie hat Assurbanibal seine Bibliothek zausmengebracht?

التى نشرت في مجموعة :

Aufsatze Fritz Mikau gewidmet, Lajpcig 1921, p. 244-248.

C. Bezold, Bibliotheks-und Schriftwesen in alten Ninive, Zeitschrift zur Bibliothekswesen, 21(1904), p. 257-277.

وعن المكتبات اليهودية القديمة انظر:

L. Blau Studien zum althebraischen Buchwesen, 1902.

A. H. Sayce, The Library of David and of Solomon, Journal of the R. Asiatic Society (1931), p. 783-790.

V. Burr, Marginalien zur Bibliothek von Qumran, Libri, 15(1965), p. 340-352.

C. Wendel, Der Thorasschrein im Altertum, Halle-Saal (1950.

V. Burr, Bibliothekarische Notizen zum Alten Testament, Bon 1969; The Hebrew Book, An historical survey, ed. by R. Posner and Ta-shema, New York-Paris-Jerusalem 1975.

ولدينا حول الكتاب في مصر الفرعونية دراسة شاملة :

J. Cerny, Paper and Books in Ancient Egypt, London 1952.

وحول بعض القضايا المتعلقة بإنتاج الكتاب انظر:

A. Herrmann, Buchillustrationen auf agyptischen Bucherkasteh, Mitteilungen des Deutschen Archaologischen Instituts, Abt. Cairo, 15 (1957), p. 112.

ولـدينا في دراسـة ميكا وشـاو المذكـورة (ص٤ ـ ١٧) صـورة جيدة عن المكتبـات في مصر. وعن المكتبات الأخرى انظر:

E. C. Richardson, Some Old Egyptian Librarians, New York 1911.

Ch. L. Nichols. The Library of Rameses the Great, Boston 1909.

V. Wessetzky, Die agyptische Tempelbibliothek, Zeitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskunde, 100(1973), p. 54-59.

الفصل الثاني

الحضارات القديمة للشرق الأقصى

١ ـ الصين

بعد الحضـارات الكبري في الشرق الأوسط ظهرت في أودية أنهار يـانسه ـــ كيانغ وهـوانغ ـــ فو بـالصين ثقـافـة كبرى تميزت بـالمكـانـة الخاصـة التي كانت للكتـابـة والكتاب .

أ ـ بـداية الـكتابـة

يُعتقد أن الصينيين بدأوا منذ الألف الثالثة ق . م يتـوجهون للكتابة وحسب رواية متأخرة فإن الصينيين كانـوا يستخدمون أولا للكتابة نظـام العقد، ثم لجأوا لاحقا إلى الكتابـة التصويريـة التي فقدت صلتها بـالأشياء التى تـرمز إليها بفضل التـزيينات الأسلوبية التي لحقـت بها مما جعلها تتحول في منتصف الألف الثـانية ق . م إلى نظام أيديوغرافي . ومع الزمن تم تبسيط هذا النظام وتنظيمه، ولكن حتى الآن لم يتغير هذا النظام الكتابي بشكل جوهرى بعد ثلاثة آلاف وخمسائة سنة من استخدامه .

ب ـ مواد الكتابة وشكل الكتاب

قبل أن يكتشف الصينيـون الـورق كـانوا يستخـدمـون للكتـابة شرائط طـويلـة مصنـوعة من أعـواد البامبـو، ثم درع السلحفاة والعظـام وألواح الخشب والأحجـار وأواني النحـــاس إلخ، بينما لجأوا أخيرا إلى استخـــدام الحريـر أيضـــا . وقـــد كتبت النصـوص الطويلـة على شرائط البـامبـو وعلى الحرير بينما كتبت النصـوص القصيرة (المعادلات السحـرية المختلفـة، أسماء الناس إلخ) على مواد أخـرى . وكان البـامبو يقسم إلى شرائط طويلة بحيث كان يمكن أن يكتب عليهـا عموديا سطرا أو سطرين

أو عدة سطـور. وفي رأس الشريط كان هناك ثقب بحيث كـان يمكن أن تجمع عدة شرائط معا. وهذا الشكل للكتاب كان يبدو أيضا عندما تتم الكتابة على مواد أخرى كألواح العظام والخشب. كانت ألواح الخشب أعرض من شرائط البامبو ولذلك كان يمكن أن تكتب بها سطـور عموديـة أكثر. أمـا الحرير فقد كـانت لـه ميزة كبيرة على الأنواع الأخرى المذكورة لأنـه كان لينا ومناسبا للكتابة ممـا كان يجعله يشبه كثيرا ورق البردى في مصر.

ولكن بالمقارنة مع ورق البردى كانت له نقيصة واحدة، إذ أنه كان غاليا جدا.

كانت الكتب المصنوعة من هذه المواد، باستثناء الحرير، ثقيلة جدا وغير ملائمة للاستعمال. ولذلك لا يوجد داع لنذكـر المشاكل التى كان يخلقها الكتّاب لأنفسهم ولغيرهم، أي للذين يـرغبون بقراءة كتبهم. وهكـذا نقرأ في أحد النصوص رأيـا يقرر هذه الحقيقة بشكل سـاخر: «إن هوى هو كان كـاتبا ممتلئا بالأفكـار، ولذلك كانت كتبه يمكن أن تملأ خمس عـربات». ومن الطبيعى ألا يكـون العمل سهلا في مـراكز الوثائق التابعـة للدولة، سواء للعاملين في هذه المراكـز أو لأولئك الذين يحتاجون إلى الاطلاع على الوثائق المحفوظة في هذه المراكز. ويبدو هذا بوضوح حين قرر الإمبراطور تشين شي ـ هـوان أن يطلع على مضمون وثائق الـدولة في هذه المراكز إذ كـان يضطر يوميا إلى أن يطلع على وثائق تزن ٥٥ كغ. وهكذا فالحاجة كانت أم الاختراع، وكانت المسألة مسألة وقت فقط إلى أن يكتشف أحدهم مادة مناسبة أكثر للكتابة.

ج ـ بداية إنتاج ورق البردى

في القرن الخامس الميلادى سجل لنا مـؤرخ البلاط فان يه كيف أن الخصي تساني لون اكتشف سنة ١٠٥م طريقة لإنتاج الورق. وحسـب رأي هذا المؤرخ فإن الصينيين حتى ذلك الحين كـانـوا يكتبون على شرائط البـامبـو أو على الحرير. وفي تلك السنـة المذكورة رفع تسـاي لون تقـريرا إلى الأمبراطـور عن اكتشافـه لإنتاج الـورق «نظرا لأن الحرير كـان غاليا وشرائط البمبو ثقيلـة مما كان يجعلهما غير مناسبين للكتـابة». وكما يضيف المؤرخ فانن يه فإن الورق منذ ذلك الحين أصبح يُستعمل في كل مكان.

إلا أن المؤرخين اليوم لديهم ما يجعلهم يعتقدون أن اكتشاف الوسيلة لإنتاج الورق لا يرتبط بفرد واحد بل بسلسلة من الاكتشافات والإضافات للأفراد الذين سبقوا تساي لون. وعلى كل حال إن هذا الرأي يدعمه الآن اكتشاف قطعة من الورق تُعتبر أقدم قطعة ورق معروفة حتى الآن، وهي تسبق التقرير الذي كتبه تساي لون سنة ١٠٥م.

وبالإضافة إلى هذا هناك مؤشرات توحي بأنه قبل تساي لون كان يُستعمل نوع من الورق المصنوع من الحرير الخام. وبهذا يُعتقد أن أسلوب إنتاج الورق قد اكتشف قبل ذلك، إلا أن فضل تساي لون يكمن في اكتشاف طريقة أفضل وأرخص لإنتاج الورق على نطاق واسع.

وقد سجل لنا المؤرخ فان يه أن تساي لون قد استخدم لإنتاج الورق لحاء الشجر والحبال القديمة والخرق البالية وشبكات الصيد القديمة. وقد عمد تساي لون إلى طحن هذه المواد الأولية و إضافة الماء من حين لآخر حتى توفرت له عجينة، ثم فرش هذه العجينة على شكل شريحة رقيقة فوق مصفاة. وحين جفّ الماء أخذ شريحة الورق ودقها لكي تجف تماما. وبهذا الأسلوب توصل تساي لون إلى طبق رقيق ومتين من الورق.

إن تحليل النماذج التي بقيت من الورق من ذلك الوقت يثبت أنه في ذلك الزمن كان الورق يُصنع فقط من المواد الأولية المذكورة، أي دون استخدام الصمغ. وخشية من انتشار الحبر في موضع الكتابة كان يتم طلاء الورق بالجبس. وفيما بعد أصبح يضاف للخلطة الصمغ، وهو نوع من الهلام المصنوع من الأشنة أو النشاء. وبهذا الشكل كان يتم الحصول على ورق من نوع ممتاز وسعر رخيص، ولذلك لا نستغرب أن يكون الورق قد انتشر بسرعة إلى حد أنه في زمن فان يه، في القرن الخامس الميلادى، كان يُستعمل على نطاق واسع.

لقد بقي الورق حتى منتصف القرن الثاني الميلادى يُنتج في الصين أو في المناطق المجاورة التي تخضع لتأثيرها الثقافي بشكل مباشر. وهكذا فقد وصل الورق أولا إلى كوريا، ثم عن طريق كوريا توصل اليابانيون إلى معرفة إنتاج الورق حوالي سنة

٦١٠م. وحتى ذلك الوقت كانت تقنية إنتاج الورق في الصين قد وصلت إلى قمتها حتى أن العرب والأوربيون لم يحتاجوا إلى أن يضيفوا شيئا جوهريا إلى هذه التقنية.

د ـ إنتاج الكتاب

كان الصينيون في عصورهم الكلاسيكية يعمدون إلى الإكثار من الكتب عن طريق النسخ. ونظرا لتعقيد الكتابة الصينية فإن النسخ كان عملا مرهقا بالنسبة للنسّاخ الصينيين وذلك بالمقارنة مع عمل زملائهم في حوض المتوسط. ولذلك فليس من المستغرب أن النسّاخ الصينيين كانوا يرتكبون أخطاء كبيرة مما كانوا يتسببون في مشاكل مشابهة لتلك التي كان يتورط بها النساخ في اليونان أو في روما.

ومن هنا فقد كانت طبقة رجال الدين القوية تهتم دائما بهذه المشاكل، وبالتحديد في كيفية الحفاظ على الشكل الأصلي للنصوص الدينية المقدسة سواء أكانت كونفوشية أم بوذية.

وهكذا فقد دفع الحذر من النساخ الصينيين لكي يخترعوا طريقة جديدة لنسخ الكتاب، وهي التي ستؤدي لاحقا إلى اختراع الطباعة في بلادهم. فقد صُرفت الجهود والأموال إلى أن استطاع الحكام الصينيون في ذلك الوقت تأمين نقش النصوص الدينية المقدسة على قوالب خشبية، ثم كانت تترك هذه في أماكن عامة حتى يمكن أخذ نسخ منها على الورق. وهكذا كان بإمكان كل من يريد أن يأخذ نسخة طبق الأصل عن النصوص المقدسة أن يفعل ذلك. وفي حوليات أسرة هان (من ٢٠٢ قبل الميلاد إلى ٢٢٠ بعد الميلاد) توصف هذه الطريقة بشكل حي كما يتم الحديث عن السبب الذي دفع الحكام الصينيين إلى نقش النصوص الدينية على قوالب خشبية. فهذه الحوليات تؤكد أولا الرأى القائل بأن أعمال الحكماء قد تعرضت إلى تغييرات وتشوهات، ولذلك كان من الضروري أن تنقش تلك الأعمال بصورتها الأصلية على الحجر لكي يتم تفادى أخطاء النساخ. وفي سنة ١٧٥م توجه تساي يونغ وبعض رفاقه المثقفين بعريضة إلى الإمبراطور الصيني تتضمن اقتراحا بأن تراجع أعمال الحكماء الستة على أصولها وأن تنقش على الحجر. وفي ذلك الحين وافق الإمبراطور على هذا الاقتراح وترك لتساي يونغ أن ينجز هذا العمل. وحول هذا

تضيف الحوليات أن تساي يـونغ نقش بيده النص الصحيح على الحجر مقـابل بوابة الأكاديميـة القوميـة. وقد أصبح الأسـاتذة والطـلاب ينظرون حينئـذ إلى هذا النص بـاعتباره الأصل الصحيح. وبعـد أن تم إنجـاز النقش جاء الكثير من النـاس ليروه ويأخذوا نسخة منـه حتى أنه أصبح يتجمع هناك في كل يـوم آلاف العربات، حتى أصبحت كل دروب وشوارع المدينة ممتلئة بالعربات.

لقد وضعت هذه النقوش من ذلك الحين في عاصمة الإمبراطورية، في لو ـ يانغ. وقـد اشتغل حينئذ لإنجـاز هذه النقـوش الكثير من العلماء. فقد كـان يجب مراقبـة النصـوص المقترحة للنقـش ومقارنتهـا ومطـابقتهـا مع الأصل. وكان تسـاي كـونغ نفسه، وهو الذي كان معروفا كأحد أشهر الخطاطين من عصره، يقوم بإنجاز النماذج ويعطيها بعد ذلك للآخرين كي ينقشوها على الحجر. وبفضل هذه النقوش وبعض المصادر الأخرى أصبحنا نعرف الآن أسماء ٢٥ من أولئك العلماء الذين كانوا يعملون في هذا المشروع الكبير.

وقـد انتهى العمـل أخيرا في هـذه النقـوش في سنـة ١٨٣م، إلا أن معظم هـذه النقـوش تحطمت بعـد عـدة سنوات فقط (١٩٠م) خـلال تمرد حـدث في المدينـة. وهكذا لم يبق لنا إلى اليوم أى نقش كامل من ذلـك الوقت، ولكن لدينا مئات القطع التى من بينها واحدة اكتشفت سنة (١٩٣٢) وهي تتضمن «تعليق كانغ ـ يانغ».

وقـد تابع الحكـام الصينيـون لاحقـا، سواء في العصر القـديم أو الـوسيط نقش الأعمال الكلاسيكية من الحجر لـلأسباب ذاتها، وحتى نقش بعض الأعمال التاريخية المختلفة. وهكذا فقد نُقشت على الحجـر خلال سنوات ٢٤٠ ـ ٢٤٨ بعض الأعمال التاريخية. وقد نُقشت هذه الأعمال حينئذ على مبني الأكاديمية القومية بالذات بطول يصل إلى ٧٠ مترا.

أما النصوص البوذية فقد أخذت تُنقش على الحجر منذ القرن الخامس الميلادى. وقـد كـانت الأسبـاب الـدافعـة لـذلك هي نفسهـا التي قـادت إلى نقش أعمال كونفـوشيوس أى الحرص على النصوص الأصليـة سواء من قلة انتبـاه النساخ أو من تآكل مواد الكتابة. وقد أوضح أحد موظفي الأسرة الشمالية تشين في تقرير له أفضلية

نقش النصوص المقـدسة على الحجـر بالمقـارنة مع المواد الأخرى: «إن الحريـر يتأكل وأعواد البامبو ليست دائمة والحديد ـ كما يبدو ـ ليس خالدا بينما يتمزق الجلد والورق بسهولة».

وفيما يتعلق بنسخ هـذه النقـوش، أي بأخـذ نسخـة على الـورق من النصـوص المنقوشة على الحجر، فقد كانت الطريقـة سهلة للغاية. فقد كان الحجر يطلى بالحبر باستثناء الحروف المنقوشة أو البارزة على الحجر، ثم تـوضع مادة الكتابة (الورق أو أية مادة أخرى) عليه ويُضغط عليها بإحكام ثم تُنزع بحيث يظهر اللون الأسود على كل مساحتهـا باستثناء الحروف البارزة، أي أن النسخـة كانت تبدو بحروف فـاتحه اللون على أرضية سوداء.

وبهذه الطريقـة كانت تُنسخ النصوص الـدينية المهمـة، أما بقية النصـوص فقد بقيت تُنسخ باليد إلى أن اكتشف الصينيـون طريقة أخرى، أسرع وأرخص، ألا وهي طبع النصوص بالقوالب الخشبية.

س ـ أداة الكتـابـة

في الأوقات القـديمة كان يُستعمل للكتـابة على الغالب القلم المصنـوع من عود البامبـو حين كان الأمر يتعلق بالكتـابة على مادة لينـة. وفي سنة ٢١٥ ق.م اكتشف الزعيم العسكري مينغ تين الـ«بي» وهي فرشاة مصنوعة من وبر الجمال كانت تناسب جـدا الكتابـة على الحرير، ثم على الـورق لاحقا. وهكـذا فقد ألغت هـذه الفرشـاة استخدام قلم البـابو أو القلم المعدني. وقد كـان لهذا التحول تأثيره الكبير على شكل الحروف الصينيـة. فقد كـانت هذه في السـابق تتميـز بخطوط رفيعـة في الزوايـا بينما أصبحت الآن مع استخدام هذه الفـرشاة مستديرة. وقد ساعـد هذا التحول النساخ على أن يحولوا الخط الصيني إلى فن حقيقي. وهكذا فقـد ازدهرت حينئذ مهارة الخط التي أصبحت شـائعـة، والتي أصبحت إحـدى السمات المميـزة للخط الصيني ولخطـوط الشعـوب الأخرى التي تعتمـد الخط الصيني، بل إحـدى السمات المميـزة لثقافة الصين والشرق الأقصى بشكل عام.

ش ـ ملاحقة الكتب

ساهم تطور الأدب والعلم، ثم بروز وانتشار تعاليم كونفوشيوس في ظهور مؤلفات مختلفة لم تكن تتفق دائما مع الأفكار والآراء الدينية للأوساط الحاكمة. وفي الواقع أن موقف السلطات لم يكن يختلف كثيرا عن موقف السلطات الحاكمة في بلدان أخرى من أمثال هذه الكتب، ولكن ما يثير الاستغراب هو الصرامة التي كان ينهجها الحكام الصينيون في تصفية حساباتهم مع الكتب غير المرغوبة أو الخطرة بالنسبة لهم.

وهكذا فقط حفظ لنا التاريخ عدة حالات عن الرقابة وملاحقة الكتب وحرقها في الصين خلال العصر الكلاسيكي. ومن أشهر حالات حرق الكتب وملاحقة الكتّاب ما حصل سنة ٢١٣ق.م حين أخذ الإمبراطور تشين شي ـ هوانغ ـ تي بنصيحة المستشار الأكبر لي سوا وأمر بحرق كل الكتب بما في ذلك مؤلفات كونفوشيوس ولم يستثن من ذلك إلا المؤلفات التي تتعلق بالطب والصيدلة والزراعة والنصوص التي تتضمن إشارات نبوية مختلفة. وبهذا العمل أراد الإمبراطور حينئذ أن يحدّ من تأثير الكتب المضّره على المجتمع الجديد الذي أراد أن يخلقه، المجتمع الذي يجب أن يتخلص من عبء الماضي ومن تأثير الأفكار المريضة على حد تفكيره. وقد اندفعت حينئذ جماهير كثيرة لحرق عدد كبير من الكتب التي كان الصينيون قد كتبوها حتى ذلك الحين، وهذا يُعتبر أحد الأسباب التي كانت وراء عدم تعرفنا اليوم على المؤلفات التى كتبت في العصور القديمة للتاريخ الصيني.

ومن ناحية أخرى فقد كان الإمبراطور تشين شي ـ هوانغ ـ تي قد أمر بهذه المناسبة بحرق ٤٧٠ كاتبا خلال يوم واحد وذلك لأنهم تجرأوا أن يكتبوا ضد الإمبراطور.

إلا أن الإمبراطور أصدر أمرا آخرا ساهم في حفظ ذكره في التاريخ العالمي للكتاب. فقد أمر الإمبراطور بحفظ نسخة واحدة من كل كتاب يحرق في المكتبة الإمبراطورية. ومن الصعب هنا الاعتقاد أن الإمبراطور كان له هدف نبيل من هذا التصرف وذلك بحفظ الأعمال الأدبية وغيرها للأجيال القادمة، بل أن تصرفه يكاد يعبر عن العقلية البوليسية بحفظ هذه النسخ من الكتب كأدلة للإدانة.

وعلى كل حال فقد ساهم هذا «الدافع البوليسي»، كما يروى لنا التاريخ اللاحق، على إنقاذ الكثير من الكتب من الضياع التام. ولكن من الصعب أن نعرف مدى مساهمة هذا في عمل الحكام الصينيين اللاحقين لإعادة بعث المؤلفات التي كتبت في السابق وذلك بسبب الحريق الذي التهم القصر الإمبراطوري سنة ٢٠٦م، أثناء القتال في شوارع العاصمة الإمبراطورية «هسين ـ يانغ»، والذي أنهى بدوره حكم أسرة تشين. وبعبارة أخرى لقد أتى هذا الحريق على الكتب التي سلمت من الحرق الجماعي التي نظمها أتباع الإمبراطور سابقا.

لقد أساء هؤلاء الأتباع كثيرا إلى الكلمة المكتوبة في الصين لأن تصرفهم جاء بعد الازدهار الكبير للفلسفة والأدب الصيني في الحقبة المسماة بـ «حقبة الفلاسفة المئة»، التي تبدأ من ٥٠٠ق.م. وفي الواقع أن هذه الحقبة العظيمة للثقافة الصينية تبدأ مع نشاط كونغوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ق.م) وتستمر في الحقل الديني مع تلميذه وناشر أفكاره مانس (٣٧١ ـ ٢٨٩ق.م). ففي هذه الحقبة وضع الفلاسفة بآرائهم المختلفة أسس الفلسفة الصينية، وفي هذه الحقبة أيضا وُضعت أهم المؤلفات في الرياضيات والطب وبقية العلوم بالإضافة إلى الأدب. وقد ساهم تسامح الحكام في ذلك الوقت إزاء كافة التيارات الفلسفية والدينية والأدبية إلخ في خلق مجال مناسب جدا لتطور إنتاج الكتاب أيضا.

وبعد سقوط أسرة تشين (٢٠٧ق.م) جاء حكام أسرة هان ليشجعوا على نسخ الكتب وانتشارها في الشعب. وهكذا فقد كان من الواجب إعادة بعث الكتب التي ضاعت من قبل الأسرة السابقة وذلك عن طريق نسخ المؤلفات التي حفظت أو عن طريق تسجيلها من أفواه الحافظين لها. وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان المبعوثون الخصوصيون يبحثون في المكتبات الخاصة وفي مكتبات المعابد عن الكتب النادرة. وحين يجدون كتابا جديدا كانوا يستعيرون هذا الكتاب لقاء تعويض مالي كبير ثم يقومون بنسخ الكتاب وإيداع نسخة منه في المكتبة الإمبراطورية المركزية. وقد تكثفت هذه الجهود بشكل خاص خلال حكم الإمبراطور فو (١٤٠ ـ ٨٧ق.م) ووزيره كونغ ـ سن هونغ. وبفضل هذا الاهتمام تم العثور على كتب مفقودة ونسخت ثانية لتحفظ للأجيال القادمة.

إلا أن سقوط أسرة هان في القرن الثالث للميلاد كان بداية للاضطرابات الطويلة وللحروب الداخلية ثم الحروب مع البرابـرة الذين تغلغلوا من الشمال. ومن الطبيعي ألا تساعد هـذه الأوقات الصعبة على تطور الكتاب والثقافـة بشكل عام، إلا أنه في هذه الحقبة المظلمة والمؤلمة من التاريخ الصيني بدأت تتوطد ديانة جديدة (البوذية)، التي ستبعث ثانيـة تطور الفن والأدب وأخيرا إنتـاج الكتاب خـلال حكم أسرة تانغ اللاحقة.

٢ ـ الهـــند

ظهرت الكتـابة في شبـه القارة الهنـدية في وقت مبكـر. ففي الألف الثـالثة ق. م تطورت الكتابة الهندية القديمـة في المدن الكبرى كـ موهينو دارو وهارابا إلخ في وادى نهر الهند.

وقـد كـانت هـذه الكتابـة تتألف من ٢٥٠ إشـارة مختلفـة تكتب بها النصـوص المختلفة على الحجر والخزف وألـواح النحاس، إلا أن العلماء لم يتمكنوا حتى الآن من قراءة هذه النصوص.

وفي الواقع أن أقدم هـذه النصوص بهذه الكتابة تـرجع إلى النصف الثاني للألف الثالثة ق. م، واستمـرت هذه الكتابة عدة قـرون. وكما برزت هذه الكتابـة الغامضة بشكل مفـاجيء فقـد اختفت بشكل مفـاجيء دون أن تترك أي أثر على الكتـابـات اللاحقة في الهند.

أما أقـدم الآثار التي وصلتنـا بالحروف الهنـدية المعـروفة فترجع إلى الألف الثـالثة ق. م وهي المراسيم المشهورة التي أمر الملك آشـوي (٢٧٢ ـ ٢٣٦ق. م) بنقشها على الحجر. ومع هذا فمن المعروف أن هـذه الحروف قد استخدمت في وقت أقدم، وربما في القرن ٨ قبل الميلاد. وفي الواقع لدينا في هـذه النقوش في عهد الملك آشوي نوعان من الكتـابة يشتهـر الأول باسم خـاروشيش والثاني بـاسم براهمي. ومن هـذا الأخير تطورت فيما بعد أنواع أخرى من الكتابة استخدمت لاحقا في عدة ولايات هندية.

ومن المثير أن الكلمـة المكتويـة في الهند لم تكن تتمتع بـذلك القدر من الاعتبـار

سواء حين كان يستعمل هذان النوعان من الكتابة، أو حتى حين ظهرت لاحقا أنواع أخرى من الكتابة. فبالمقارنة مع الكثير من حضارات العالم القديم، في أوربا وآسيا وأفريقيا الشمالية، نجد أن الطريقة الرئيسية لانتقال النصوص الدينية والأدبية والعلمية من جيل إلى آخر هي المشافهة. وهكذا عن طريق المشافهة انتقلت إلينا الملاحم البطولية الضخمة مهابهاراتا ورامايانا والفيدات والأعمال الأخرى المشهورة للأدب والفلسفة الهندية القديمة، ثم المؤلفات التاريخية والبيوغرافية والكتب المقدسة لكثير من الديانات الهندية. . وهكذا فإن الخط البوذي تريبيتاكا قد دُون لأول مرة في نهاية العصر القديم في سري لانكا، بينما دون الخط المقدس الآخر للطائفة الجائينية المعروف باسم سيدذانتا في القرن الخامس الميلادى فقط، مع أن هذه الطائفة كانت قد برزت قبل أكثر من ألف سنة. ويبدو أن السبب الرئيسي في عدم الاهتمام بتدوين النصوص المقدسة وغيرها يكمن في تركيب المجتمع الهندي، حيث أن الطبقة الفوقية (البراهمانا) كانت تعتبر من حقها فقط أن تعرف النصوص المقدسة وأن تتعرف على الإنجازات العلمية والفنية إلخ. وهكذا فقد كان أفراد هذه الطبقة يتجنبون أن يدونوا معارفهم خشية أن تنتشر في الطبقات الاجتماعية الأدنى. ولم يتغير الأمر إلا مع ظهور البوذية في القرن السادس ق. م التي صاحبتها فكرة الديمقراطية المتواضعة، أي نشر المعرفة التى تهدف إلى تجذير الدين في وسط الشعب.

وهكذا لم يصل إلينا من العصر القديم إلا أقل القليل مما كان يكتب في الهند. وفي الواقع أن هذا يجب ألا يثير استغرابنا لأنه، بالإضافة إلى الأسباب السابقة، يرتبط أيضا بمواد الكتابة. فقد كان الهنود يستخدمون حينئذ لحاء أشجار النخيل، خاصة في جنوب شبة القارة الهندية، الذي لم يكن يصمد في وجه الزمن. أما شمال الهند فقد كانت تستخدم هناك للكتابة القشرة الرقيقة البيضاء لشجرة البتولا، إلا أن الكتب المدونة على هذا النوع أيضا لم تصمد طويلا في وجه الزمن. وعلى الرغم من أنه لا يُعرف بالضبط متى بدأت الكتابة في الهند على هذين النوعين من مواد الكتابة إلا أنه لدينا مؤشرات توحي بأن بداية الكتابة على هذين النوعين ترجع إلى عدة قرون قبل الميلاد. وعلى كل حال فإن اكتشاف هذه المواد يعود إلى عصر متأخر. إن أقدم نص مكتوب على لحاء النخيل يعود إلى القرن الرابع الميلادى لم يعثر عليه في الهند، حيث

كانت الظروف المناخية لا تناسب هذا النوع، بل عثر عليه في آسيا الوسطي. أما فيما يتعلق بقشور البتـولا فإن أقدم القطع تعـود إلى وقت أسبق، بينما تعود معظم النماذج إلى القرن الثاني عشر الميلادى وبعده.

إننا لا نعرف الكثير أيضـا عن المكتبات في الهند القديمة. ففي المصادر المدونـة تذكر مجموعات من الكتب في المعابد العائدة لـديانات مختلفة ثم في قصور الحكام، إلا أن كل هذه كانت عبارة عن مكتبات متـواضعة سواء من حيث عدد الكتب فيها أو من حيث مواضيع هذه الكتب. وعلى كل حال لقد كان تأثير هذه المكتبات محدودا جدا سواء على تطوير المعرفة والأدب أو على المجتمع بشكل عام.



المراجـــع

حول الكتابة في الصين القديمة انظر:

P. Boodberg, Some Proleptical Remarks on the Evolution of Archaic Chinese, Harvard Journal of Asiatic Studies, 2 (1937), P-329-372;

A. von Rosthorn, Zur Geschichte der chinesischen schrift, Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morganlandes, 48 (1941), p.121-142;

وحول إنتاج ومصير الكتاب انظر:

E. Chavannes, Les Livres chinios avant l'invention du papier, Journal asiatique, ser. X, vol. 5 (1905), p.1-75;

ولدينا معالجة مفصلة وجامعة لهذا الموضوع لدى:

Tsuen-Hsuin Tsien, Written on Bamboo and Silk, the Beginning of Chinese Books Inscription, The University of Chicago Press, Chicago 1962;

ومن الدراسات الكثيرة حول إنتاج الورق في الصين يكفي أن نذكر بعضها:

A. Blum, On the Origin of Paper, New York 1934;

B. Laufer, Paper and Printing in China, Chicago 1931;

A. Blanchet, Essai sur l'histoire du papier, Paris 1900.

الفصل الثالث

العالم اليوناني ـ الروماني

١ ـ التطور التاريخي

أ ـ الكتابة والكتاب في الحضارة الكريتية الميسينية.

أسهمت الثقافة المينوياسية المتطورة في كريت ثم الثقافة الميسينية في اليونان في تطوير الكثير من عوامل الحضارة المدنية وبهذا تعتبران بداية الروح الأوربية في الفن والأدب والثقافة بشكل عام. وهكذا فإن هاتين الثقافتين تأتيان في الطليعة من حيث استخدام الكتابة في أوربا.

لقد ظهرت الكتابة في كريت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، وذلك في شكلها التصويري أولا. وفي فترة لاحقة ظهرت للوجود الكتابة الخطية الأولى (A)، ثم ظهرت الكتابة الخطية الثانية (B) في زمن ازدهار الحضارة الميسينية في النصف الثاني للألف الثانية في كريت ثم في اليونان. وبهذا النوع من الكتابة، وهو الوحيد الذي تمكن العلماء من حل رموزه، ودونت الكثير من الملاحظات على الرقم الطينية، تلك التي اكتشفت في ميسينيا وبيلوس (مدينة نسطور الأسطوري التي يذكرها هومير) وكنوسوس في كريت وغيرها. وفي هذه الأماكن اكتشفت آلاف الرقم الطينية التي تحتوي نصوصها على معطيات اقتصادية فقط. وهكذا فقد دونت في هذه الرقم سجلات العمال الذين كانوا يعملون في القصر الملكي، وسجلات أنواع الحيوانات التي كان على الرعاة أن يسلموها للحاكم أو لزعيم القرية، ثم سجلات المنتوجات الزراعية التي يجب أن توهب للآلهة الخ. وهكذا لا نجد في هذه الرقم مايشير إلى وجود نصوص أدبية أو تاريخية أو ماشابه ذلك.

وقد قاد التحليل الدقيق لهذه الرقم إلى اكتشاف مفارقة غريبة. فسجلات الحيوانات والمنسوجات الزراعية تعود كلها إلى سنة واحدة مما دفع العلماء إلى الاستنتاج بأن هذا النوع من التسجيل كان يتم كل سنة بحيث كانت السجلات القديمة تتلف بعد أن تفقد راهنيتها بالنسبة للسلطة. وبعبارة أخرى لا نجد في هذه المدن مراكز لحفظ الوثائق كما في مدن الشرق الأوسط.

وبالإستناد إلى هذه الحقيقة يمكن أن نستنتج أن الكتابة في الحضارة الكريتية ـ الميسينية كانت تستخدم فقط تلبية لحاجات السلطة. وربما تثير هذه الحقيقة الاستغراب لأن شيئا مثل هذا لا نجده في مصر أو في بلاد الرافدين وحتى في أقدم حضارة في تلك المنطقة ـ الحضارة السومرية. ففي هذه الحضارات، كما مر معنا، كانت الكتابة تستخدم في الدرجة الأولى للأغراض العملية، إلا أنها كانت تستخدم أيضا منذ أقدم العصور في تدوين القصص والنصوص الفلكية إلخ. وربما يكون الكريتيون الميسينيون وغيرهم في اليونان قد دونوا بعض النصوص الأدبية والعلمية على مادة أخرى للكتابة، على الرق مثلا، لم تستطع أن تصمد في وجه الزمن. ولكن لا يوجد بين أيدينا الآن ما يؤيد هذا الافتراض. ويبدو أن التحليل الأقرب إلى الصحة هو أنه في هذه الحضارات اليونانية القديمة، كما في تلك اللاحقة في العصر الكلاسيكي كانت المشافهة تعتبر أفضل طريق لنقل النصوص الأدبية والتاريخية من جيل إلى جيل.

وهكذا مثلا لا نجد في العالم الذي تصفه لنا ملاحم هومير، وهو بالضبط العالم الميسيني الذي أبدعت في عصره بعض هذه الملاحم، لا نجد ما يشير إلى تقليد تدوين النصوص الأدبية والتاريخية. ولذلك لا يجب أن نستغرب لعدم عثورنا في هذه الرقم الطينية على أي نص أدبي أو تاريخي، بل على أية رسالة أو وصية.

إن المعطيات القليلة التي دونت في هذه الرقم لها بالطبع أهمية كبيرة في إعادة تصور العلاقات الاجتماعية والبنية الاقتصادية والكثير من جوانب الحياة اليومية. ولكن مع ذلك لا نجد جوابا واضحا من هذه الرقم على الكثير من الأسئلة التي

تهمنا. وهكـذا فنحن لا نعرف شيئا عن الكتبة، وعن المدارس التي كـان يتعلم فيها الطلاب القراءة والكتابة، وعن الـوضع الاجتماعي للمعلمين والكتبة، وعن إمكانية وجود مراكز رسمية للوثـائق كما في الشرق الأوسط ألخ. إننا نعرف فقط الوسيلة التي كانت تحفـظ بها هذه الرقم. فقـد كانت هـذه الرقم تحفظ في قـوالب من الخشب أو الجبس، بينما كانت الكبيرة توضع في سـلات، وعندما كانت تمتلىء هذه بـالرقم كان يوضع فوقها سجل طيني يدون الرقم المحفوظة هناك.

وحسب كل الاحتمالات فإن عدد أولئك الـذين كانوا يعرفون الكتـابة كان محدودا جـدا في إطار وسط ضيـق من الموظفين والكتبة العـاملين لـدى الدولـة، إذ أنـه من الواضح أن الكتابة كانت تمارس فقط لأغـراض بيروقراطية ـ إدارية. وربما هنا يكمن السبب في عدم استمراريـة هذه الكتابة بعد انهيار الجهـاز الإداري مع نهاية الحضارة الكريتية ـ الميسينية.

لقد بـذل العلماء محاولات مضنية لفـك ألغاز هذه الكتـابة ولكـن دون جدوى. وهكـذا بقيت هـذه لغزا من الألغـاز إلى سنـة ١٩٥٢ حيث تمكن مهنـدس معماري شاب، ألا وهو ميشيل فنتريستي: من اكتشاف المفتاح الذي يساعد على قراءة هذه الكتـابة التي كـانت تستعمل منـذ نهاية القـرن ١٥ حتى القـرن ١٢ ق. م في مدينـة كنوسوس في كريت وفي المراكز الميسينية الأخرى من اليـونان. وقد ساعد هذا المفتاح على تغيير معلوماتنـا من الأساس حول التاريخ اليونـاني القديم، إذ تم التأكد من أن النصوص المدونة في هذه الرقم إنما هي تمثل لهجة يونانية قديمة ولذلك فإن أصحاب النصوص كانـوا ينتمون إلى الاثنوس اليوناني وليس إلى أي شعب آخـر سابق كما كان يعتقد سابقـا. وهكذا بفضل هذا الاكتشاف أصبحـت بداية الكتابـة والكتاب عند اليونانيين أقدم بعدة قرون مما كنا نعتقد سابقا.

ب. اليونانيون الايونيون في آسيا الصغرى

لا يوجد هنـاك استمرارية بين الكتابة الكريتيـة ـ الميسينية وبين الكتابة اليـونانية اللاحقة. فاليونانيون لم يـرثوا حروفهم الجديدة من أسلافهم الكريتيين ـ الميسينيين بل

من شعب آخـر، من الفينيقيين. ولكن حتـى الآن لا نعـرف بـالضبط متى أخـذ اليونـانيون حـروفهم من الفينيقيين، لأننا نفتقـد أية أدلـة أثريـة أو أية أدلـة في اللغة اليونـانية من العصـور القديمة. إلا أنـه يبدو أن هـذا قد حصل في القـرن التاسع أو العاشر ق.م. وكان هيرودوت قـد سجل في تاريخه في القرن الخامس الروايـة القائلة بأن قدموس الفينيقي هـو الذي جلب الحروف الجديدة إلى اليونـانيين. ومع أنه يقال بأن المؤشرات اللغوية تقود إلى أن عهد الأبجدية اليـونانية كان في كريت إلا أن غالبية العلماء يعتقدون بأن اليونـانيين في آسيا الصغرى هم الذين تعرفـوا أولا على الأبجدية السـامية بـواسطـة التجـار الفينيقيين الذين كـانـوا كثيرا ما يـزورون بسفنهم مـوانىء الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى.

إلا أن الأمر لا يتعلق بالأبجـدية فقط بل بالكثير من المزايا الثقـافية الأخرى التي كانت تنتقل من الشرق إلى اليـونان. فقد كـان لليونانيين الايونيين مـدنهم الغنية على الشاطيء العـربي لآسيا الصغرى، حيث كـانوا يتصلون هنـاك بالانجازات المتقـدمة لحضارات الشرق الأوسط. وهكـذا فقد أخذ اليـونانيون من الشعـوب المختلفة التي كانت تعيش في الشرق المتوسط التي أقامت ثقافاتها تحت تأثير كبير لحضارات الهلال الخصيب، الانجـازات العلميـة والأصول الميثـولـوجيـة وفن التصـوير الميثـولـوجي بالإضافة إلى سلسلة كاملة من العناصر الثقافية التي أدرجوها في ثقافتهم.

وفي هذه المدن الايـونية تطـور إنتاج الكتـاب وأسست هناك المكتبـات على نمط المكتبات في الشرق الأوسط. إلا أن إنتاج الكتاب في ذلك الوقت كان لايزال محدودا. ويعتقد هنا أن المؤرخين والجغرافيين والفلاسفة أخذوا منذ القرن السابع ق. م يكتبون المؤلفات في تلك المدن لإطـلاع معاصريهم من ناحية على هذه المؤلفـات ولحفظ هذه المؤلفـات للأجيـال القادمـة. ولكن في ذلك الوقت لم يكن هنـاك بعد انتشـار واسع للكتـاب، بل إن الكتاب لم يكن يـؤلف ليباع. فـالمؤلف كان يحرص بنفسـه على أن يصل كتـابه إلى أيدي أصـدقائه والقـراء المهتمين. ويبدو من ذلـك الحين أن الكلمة المكتوبة كانت تعتبر النـاقلة والحافظة للمعرفة ولذلك نجـد أن الكاتب هيراقليط قد وضع مؤلفـه «حول الطبيعة» في المعبد لكي يحفظـه للأجيال القادمـة. وبالفعل فإن

أرسطو قد جاء بعد مئة وخمسين سنة، كما يخبرنا ديوجين، ليقرأ هذا الأثر.

ولكن مع ذلك مازلنا لا نعرف الكثير عن الكتب والمكتبات لدى اليونانيين الايونيين. ويعتقد هذا بحق أنه في القرنين ٧ ــ ٦ ق. كانت هناك مكتبة رسمية في ميليت بالتحديد مكتبة أو مركز للوثائق على ذلك النمط الشائع في الشرق الأوسط. وبفضل الكتب التي كانت موجودة في هذه المكتبة، سواء في اللغة اليونانية أو في لغات بقية الشعوب المتحضرة في ذلك الوقت، كان من الممكن للعلماء والفلاسفة في ذلك الوقت أن يمارسوا نشاطهم كالرياضي والفلكي المعروف تاليس والفيلسوف آنا كسيمين والفيلسوف والجغرافي أناكسيماندر والجغرافي هاكاتاي وغيرهم الكثير. إلا أن هذه المكتبة في مدينة ميليت، التي كانت أشهر مدينة أيونية، قد دمرت من قبل الفرس سنة ٤٩٤ ق. م بالإضافة إلى مجموعات الكتب الأخرى في المدينة. وعلى كل حال لقد قامت هذه المكتبة دون شك بدور الجسر الذي انتقلت عليه معارف الشرق الأوسط إلى العالم اليوناني.

وبالاستناد إلى ما نعرفه عن المكتبات اليونانية اللاحقة في العصر الهلنستي يمكن القول أن تلك المكتبات قد أخذت وطبقت كل الإنجازات التي كان علم المكتبات قد توصل إليه خلال ألف سنة في بلاد الرافدين. وهكذا إن مقارنة المعطيات التي نعرفها عن تنظيم مكتبة آشور بانيبال في نينوى (طريقة كتابة عناوين الكتب، تحديد مصدر المحفوظة، تنظيم فهارس للمواد الموجودة في المكتبة، تنظيم المواد حسب الفروع العلمية إلخ) ومع مكتبة الإسكندرية يكشف لنا عن تشابه كبير إلى حد أنه يرى بوضوح هذا الارتباط بين علم المكتبات اليوناني وعلم المكتبات الآشوري ـ البابلي، كما يبدو من الواضح أن اليونانيين الأيونيين في آسيا الصغرى هم الذين نقلوا إنجازات هذا العلم إلى العالم اليوناني.

ج ـ الكتاب في اليونان الكلاسيكية

ساهم تدمير الفرس لمدينة ميليت والمدن الأخرى لليونانيين الأيونين، وتطور أثينا كأكبر قوة سياسية واقتصادية للعالم الهلنستي، في انتقال مركز الحياة الثقافية من آسيا الصغرى إلى أثينا. ففي هذه المدينة أخذ يتجمع منذ القرن السادس ق. م وخاصة

منذ عصر بيركليه ومن بعده، الفنانون والأدبـاء والفلاسفة الكبار من كل أنحاء العالم اليوناني ليؤلفوا هناك تلك المؤلفات الخالدة.

وفي ذلك الحين تحولت أثينـا إلى مـركز لثقـافـة الكتاب، بينما أصبحـت الكتابـة شائعـة بين المواطنين إلى حد أن القرارات المهمة والـوثائق الرسميـة كانت تنقش على الحجـر أو تكتب على ورق البردي أو الـرق وتعلق في الأمـاكن العـامة. ويـدل هـذا التقليد بطبيعـة الحال أن عدد أولئك الـذين كانوا يعـرفون القـراءة كان كبيرا إلى ذلك الحد الـذي أصبح فيـه ممكنـا التواصل بين سلطـات الـدولـة والمواطنين عن طـريق الكتابة.

وعلى عكس مـا قـد يتوقع المرء فـإن إنتاج الكتـاب في أثينـا لم يكن كبيرا في عصر أكبر ازدهار ثقافي للمدينة. وهكذا فإن انتشار الكتـابة والقراءة وتطور الحياة الثقافية في أثينا، وإلى حد ما في بقيـة المدن اليونانية، لم يكن كافيا لـلانتقال من التواصل من طريق المشافهة إلى التواصل عن طريق الكتابة، وبـالتحديد في تعزيز مكانة الكتاب في المجتمع كأسلوب لنقل المعـارف. فكل ما نعرفـه من أخبار الكتّاب اليـونانيين في ذلك العصر، وهي ليست كافية أيضا، يـدل على أن «الحضارة الحقيقية للكتاب» في العـالم اليونـاني بدأت فقط في القـرن الثالث ق. م أي في عصر الهيلينيـة فحتى ذلك الحين كانـت الأعمال الأدبية وحتى تلك العلميـة والفلسفية تنتقل في غالـب الأحيان من جيل إلى جيل عن طريق المشـافهة. والمغنون الشعبيون كـانوا يتناقلون جيـلا بعد جيل عن طريق المشافهة الأغاني الملحمية والقصص الميثيولوجية والروايات التاريخية، ويتنقلون من مكـان إلى آخر حيث كانـوا يفضلون على الغـالـب الإقامة قـرب الحكام كمغنين للبـلاط. وفي ذلك العصر كانت شـائعة ملحمتـا هـــومير «الاليـــاذة» و«الأوديسة»، التي كـان هؤلاء المغنون ينشدونها بـروايات مختلفة حيث كانـوا كثيرا ما يضيفـون إليها الأبيـات من عندهـم. وهكذا بقي الأمـر إلى القرن ٤ ق. م حين أمـر حاكم أثينا المستبد بيزسترات بتدوين هاتين الملحمتين. ولم يكن الهدف من هذا الأمر تـوسيع دائرة القـراء لهاتين الملحمتين بل للحفـاظ على النص الأصلي لكي ينشـد في الاحتفالات العامة في أثينا. وبعبارة أخـرى فقد بقيت غالبية الناس تتطلع إلى هاتين

الملحمتين من طريق السماع وليس عن طريق القراءة.

وفي الواقع لقد كان هذا مصير النصوص الشعرية والمسرحية، بل حتى الكتابات التاريخية كتواريخ هيرودوت مثلا. وهكذا فنحن نعرف الآن أن هيرودوت كان يقرأ كتابه على المستمعين المجتمعين في الأولمب. وبالطبع فإن هيرودوت قد كتب مؤلفه أولا ثم قرأه لاحقا على المستمعين، وكذلك كان يفعل الكتاب الآخرون في عصره إذ أنه كان من الطبيعي جدا أن يجتمع الناس المهتمين للاستماع إلى كتاب ما عوضا عن أن يقرأوه في المكتبات. وحتى أفلاطون نفسه (٤٢٧ ــ ٣٤٧ ق. م) كان يعطي الأفضلية للسماع أكثر من القراءة، مع أنه كان قد كتب الكثير، وكان على هذه الشاكلة أيضا الكثير من كتاب عصره الذين كانوا يتحدثون بازدراء عن أولئك الذين يقرأون كثيرا.

وعلى الرغم من كل هذا فإن صيرورة الانتقال التدريجي في المجتمع اليوناني من التواصل بالمشافهة إلى التواصل بالقراءة لم تتوقف أبدا. وهكذا فخلال القرن الخامس ق. م وخاصة خلال القرن الرابع ق. م أصبح الكتّاب وسيلة أساسية لنقل المعارف. فخليفة هيرودوت في حقل التاريخ، المؤرخ توكيديد (٤٦٠ ـ ٤٩٦ ق. م)، كتب مؤرخه المعروف حول حرب البيلوبينز لكي يُسمع وسيعمد إلى هذا التقليد مزيد من الكتّاب لاحقا وخاصة كتاب النثر. وهكذا سيؤدي التعاظم التدريجي لدور الكتاب في أثينا، في النصف الثاني للقرن الخامس، إلى ظهور النساخ المحترفين وباعة الكتب وتأسيس المكتبات الأولى.

وفي الواقع لا يمكن الحديث عن نشاط واسع للنساخ في أثينا، وفي اليونان بشكل عام، إلى العصر الهلنستي. وحتى ذلك الحين كان المؤلفون غالبا ينسخون مؤلفاتهم، أو يعهدون بذلك إلى عبيدهم، بينما غالبا كان يلجأ إلى التوصية لنسخ كتاب ما ذلك الذي يريد الاحتفاظ بنسخة منه في مكتبته الخاصة. وسيتحول هذا التقليد إلى سمة لكل العصر القديم، خاصة في الحالات التي يفتقد فيها سوق الكتب ما يطلبه الزبائن.

وهكـذا نجـد النسـاخ المحترفين في أثينا لأول مـرة في عهـد بيريكلـه . وفي ذلك العصر أيضا يرد ذكـر بائعي الكتب لأول مرة حيث كانوا يملكـون دكاكينهم في أكثر الأماكن حركة في المدينة ، أي في الأغـورا . ومع أننا لا نعرف الكثير عن هؤلاء النساخ وأولئك البائعين ، إلا أن بعض المعطيـات التي خلفها لنـا كتّاب ذلك العصر تسمح لنا بإعادة تصور تلك الدكاكين المقامة على عجل وتقييم أهميتها بالنسبة لنشر المعارف الأدبية والعلمية . وهكذا فإن أرستوفان في كوميديته «العصافير» التي كتبها سنة ٤١٤ ق . م يذكر أن أهالي أثينا يخرجون عـادة بعد الفطور إلى دكاكين الكتب للاطلاع على الكتب الجديدة ومناقشة مافيها . وحسب مـا يذكره الكتّاب الآخرون فإن زبائن هذه الدكاكين كانـوا من المثقفين وأنه كانت تُنشد الأشعار بها أو بالقـرب منها للفت انتباه المارة . وعادة كان يـأتي إلى هذه الأمكنة من يمتلك الرغبـة والقدرة على شراء كتاب ، ومن يمتلك الـرغبة فقط لـلاطلاع على مـا ينتجه الشعـراء من جديـد وللاشتراك في الأحاديث التي كانت تـدور هناك . ولدينا هنا نادرة متأخـرة سجلها ديوجين تفيد أن زينون الكيتـوني (حوالي ٣٥٠ ــ ٢٦٤ ق . م) قد قـرر أن يلتفت إلى الفلسفـة بعد أن شارك أحد باعة الكتب في أثينا في قراءة نص لكينوفون .

في نهاية القرن الخامس ق . م أصبحت أثينا أهم مركز للكتاب في العالم اليوناني ، إلا أن إنتاج الكتـاب بقي أقل مما يمكن أن يتـوقع المرء إذا أخذنا بعين الاعتبـار أهمية هذه المدينـة في ذلك الوقت . وبـالإضافة إلى هـذا فإن شبكة تـوزيع الكتاب لم تكن عملية إذ أن الكتاب كان يصل بصعوبة إلى المراكز الثقافية الأخرى . فالمؤلف كان هنا مسؤولا عن توزيع الكتـاب كما كان مسؤلا عن نسخه ، وبالتحديـد كان المؤلف هو الـذي يهتم بإرسال كتـابـه إلى أصدقـائه . وتفيـد المعطيات التـي لدينـا بأن كثيرا من الكتب قـد وصلت إلى المدن الأخرى بعـد أن قام أصحـابها بزيارة أثينـا ، وشراء تلك الكتب هناك . فقد كثرت المصاعب التي كانت تعيق انتشار الكتاب بسرعة حتى أن خطيب أثينا المعروف أزوكرات (٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق . م) عبر عن أسفه في إحدى رسائله لأن قلة قليلة من سكـان اسبارطة تملك خطبه . فقد كان على المهتمين فعـلا بامتلاك كتـاب ما أن يمتلكـوا القدرة على ذلك وأن يقلـدوا مـا فعل الملك المقدوني أنتيغـون

غونات (ق ٣ ق. م). فقد كان هذا الملك مهتما بالتعرف على تعاليم الفيلسوف الرواقي زينون، ولذلك فقد أرسل مبعوثين له إلى أثينا لكي يدونوا محاضراته ويرسلوها إليه في مقدونيا.

د. الكتاب في العصر الهلنستي

في نهاية القرن ٤ ق. م وبداية القرن ٣ ق. م ازداد باستمرار عدد الكتب المتداولة. فقد أخذ باعة الكتب الجوالون بعرض بضاعتهم التي كان يشتريها الأفراد الأغنياء ثم أخذت تشتريها بسرعة بعد ذلك المكتبات العامة.

وهكذا فقد تحولت رودرس وأنطاكية وبرغام وخاصة الإسكندرية إلى مراكز هامة لإنتاج الكتاب والاتجار به. وفي هذه المدن تطورت بسرعة المكتبات العامة الكبرى التي ستصبح أكبر زبون لشراء الكتب، وهكذا فقد شجعت على تطوير غير متوقع لإنتاج الكتاب. ومن ناحية أخرى فإن هذا الإنتاج المتزايد للكتاب سيساعد بدوره على التطور السريع لهذه المكتبات. وبالإضافة إلى هذه الصلة المتبادلة والمثمرة بين إنتاج الكتب وشبكة توزيع الكتاب، وهذا العدد الكبير للمكتبات العامة والخاصة، لابد أن نضيف عاملا مهما كان له دوره في تشجيع إنتاج الكتاب في العالم اليوناني: بروز مراكز ثقافية قوية في كل أنحاء العالم اليوناني في عصر الإسكندر المقدوني وخلفائه. ففي ذلك العصر لم يعد كافيا للمرء أن يعيش في أثينا وأن يعرف كل ماهو مهم في المجال الأدبي أو العلمي كما كان الأمر في السابق. وبالتحديد فإن تعددية المراكز الثقافية اليونانية، الذي صاحب إتساع العالم الهلنستي بعد فتوحات الإسكندر المقدوني، قد أثمرت بشكل حاسم في تعزيز دور الكلمة المكتوبة كوسيلة ناقلة للمعارف العلمية وغيرها.

وقد كان من نتائج الانتقال النهائي إلى التواصل عن طريق الكتابة، عوضا عن التواصل عن طريق المشافهة، في العصر الهلنستي الاهتمام بالنصوص الأصلية الصحيحة للمؤلفات الأدبية وغيرها. وهكذا سيجتمع الفلاسفة في أكاديمية ومكتبة الإسكندرية ويقارنون مختلف النسخ المجموعة من أبعاد العالم اليوناني لمؤلف ما لكي

يعتمدوا نسخة واحدة تكون مصدرا للنسخ لفترة طويلة. وفي الواقع أن هذا العمل هو إحدى نتائج ذلك التحول من الانتقال الشفوي للنصوص الأدبية وغيرها، حيث كان كل فرد يضيف شيئا إلى النص الأصلي أو يحذف منه شيئا كما يريد، إلى عصر ثقافة الكتاب حيث أصبح الاحترام الصارم للنص الأصلي أحد سماته الأساسية.

هـ ـ الكتاب عند الاتروسكيين

أخذ الاتروسكيون، وهم الشعب الغامض الذي أنشأ في القسم الغربي من إيطاليا واحدة من أهم الحضارات في حوض البحر الأبيض المتوسط من القرن ٨ إلى القرن ٣ ق. م، أبجديتهم من اليونانيين ليكتبوا بها منذ القرن ٧ ق. م كتبهم ونقوشهم على اللوحات التذكارية فوق القبور وعلى الأواني.

وفي الواقع أننا لا نعرف الكثير عن كتب الأتروسكيين لأن «الفضل» في هذا يعود للرومانيين الذين حرصوا على تدمير المدن الأتروسكية بعد الاستيلاء عليها. ولكن بالاستناد إلى المعطيات التاريخية القليلة ومقاطع بعض كتبهم التي حفظت في مؤلفات الأدباء الرومانيين، بالإضافة إلى المعطيات الأثرية، يتضح لنا أن إنتاج الكتاب كان متطورا نسبيا لدى الأتروسكيين. ومعظم هذه الكتب هي ذات طابع ديني وسحري وأصبحنا نعرف منها على الأقل ثلاثة أنواع:

ـ كتاب الشعائر (كما كان يسميه الرومانيون) كان يضم الأسس المختلفة للنشاط الشعائري بمناسبة تأسيس المدن وتكريم المعابد وغيرها من المناسبات المشابهة في الحياة اليومية.

ـ كتاب البرق، وهو يضم تفسير مغزى الصاعقة والبرق.

ـ كتاب العرافة، كان يساعد رجال الدين الأتروسكيين على التنبؤ بالأمور بالاستناد إلى مراقبة الأعضاء الداخلية وخاصة كبد الحيوانات التي تقدم للتضحية.

وكما يبدو فإن كل هذه الكتب كانت تتصل بذلك العالم المعقد من الاعتقادات

والخرافات والتنبؤات التي اشتهر بها الأتروسكيـون في روما خلال العهد الجمهوري. ولكن لم يصل إلينـا أي شيء يثبت ما ذكـره الكتاب الـرومانيون مـن أن الاتروسكيين كانت لهم أيضا كتب غير مقدسة. ومع هذا لا يمكن للمرء أن يتجاهل ما ورد لدى بعض الكتاب الـرومانيين، ومن بينهم تيت ليفي، عن المؤلفات الاتروسكيـة الأدبية التاريخية التي كانت لديهم والتي استفادوا منها. وهكذا يخبرنا فارون مثلا أن الكاتب الاتروسكي فولنيوس قد ألف عدة مسرحيـات بينما يذكر الإمبراطور كلود، الذي كان يعرف جيـدا تاريخ الأتروسكيين، «الكتاب الأتـروسكيين» كمؤلفين لبعض الكتب التاريخية التي استفاد منها لكتابة مؤلفاته.

إن ظهور الكتـاب على الأواني وعلى جدران القبور يثبت أن شكل الكتـاب لدى الأتروسكيين لم يكن يختلف كثيرا عن شكله لدى اليونانيين أو لدى الشعوب الأخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط.

فقد كان الكتاب غالبا يأخذ شكل اللفافة أو الدبتك(*) وقد كانت هذه الكتب تـوجد دائما بيـد الموتى أو بيد الشيـاطين التي تعيش تحت الأرض أو بيـد المخلوقـات الجبـارة وبهذا يتضح أنه كـان لها مغـزى رمزيـا. وفي الـواقع أن ظهور الكتـاب بهذا الشكل يرتبـط بالاعتقاد الشـائع، الذي انتشر في رومـا لاحقا، إنـه في جوف الأرض يـوجـد أرشيف ضخم يضم الكتـابـات التي تتعلق بمصـائر كل النـاس على سطح الأرض.

ويذكر لنـا الكتّاب الرومانيون أن الأتـروسكيين كانوا يكتبون مـؤلفاتهم على البز. ولكن حتى اليوم لا نعرف في العالم الا نسخة واضحة من كتاب مكتوب على البز، إلا أن هذا لم يأتينا من اتـروريا بل من مصر البعيدة. وهذا الكتاب، الـذي يصل طوله إلى ١٣,٧٥م، يرجع إلى القـرن الثاني أو الأول ق. م وقد لُف بـه جسد موميـاء امرأة أتروسكية عاشت في مصر ويعتقد أنها كانت زوجة تاجر أو عسكري أتروسكي. وكما

(*) الدبتك deptych اللوح المزدوج: لوحان من خشب أو معدن كان اليونانيون والرومانيون يصلون مـا بينهـا بضرب من المفصـلات ويكسـون بـاطنهـا بـالشمع ثم يكتبـون عليهـا بقلم خـاص. (المترجم)

يبدو فإن هذا الأتـروسكي قد اتخذ هنا في مصر العادة المحليـة في بلسمة المتوفي. ولا يوجـد هنا شك في أن هذا الكتاب المكتـوب على البز، الذي يحتـوي على أطول نص مكتوب في اللغة الأتروسكية إذ أنه يحتـوي على ١٥٠٠ كلمة منها ٥٠٠ أساسية، قد صنع في أترووريا بالـذات لأنه صنع من البز ولم يصنع من ورق البردي. ولحسن الحظ فقـد حفظ هذا الكتـاب بفضل المناخ المصري الجاف الـذي حفظ الكثير من الكتب الأخرى. وتجدر الإشـارة هنا إلى أن هـذه المومياء مع هذا الكتـاب الفريـد تنقلا كثيرا قبل أن يستقرا أخيرا في متحف الآثار في زغرب، حيث لا يزالان إلى اليوم.

و ـ عصر الجمهورية الرومانية

اتصل الـرومانيون في وقـت مبكر مع الأتـروسكيين، ومع اليونـانيين القاطنين في إيطاليا الجنـوبية، وتعلموا منهم الكتابة واحترام الكتـاب. ويذهب بعض الباحثين هنا إلى أن الرومانيين قد أخذوا كتابتهم بشكل مباشر من الأتروسكيين، الشيء الذي لم يتأكـد بعد. ويبـدو أن الأقـرب إلى الصحة الـرأي القـائل بأن الـرومانيين أخـذوا كتابتهم بشكل مباشر من المستـوطنات اليونانيـة التي كان اليونانيون قـد أسسوها في إيطاليا الجنوبيـة. وعلى كل حال فقد كان اليونانيون هم الذين سيـدفعون الرومانيين إلى عالم الأدب والفلسفـة والعلوم. فمنـذ نهاية القـرن الثالـث ق. م، خلال الحرب البونيـة، أخذت المؤثرات الثقـافية اليونـانية تفـرض نفسها على العالم الـروحي للقوة الـرومـانيـة الضـاربـة في حـوض المتـوسط. فمع تـوسع دولتهم أصبحت صـلات الرومانيين مباشرة مع اليونانيين في إيطاليـا ثم مع اليونانيين في إيطاليا الجنوبية ثم مع اليونـانيين في بلادهم الأصليـة. وهكذا لم يعـد القادة العسكـريون يعـودون إلى روما بالعبيد والذهب وغنـائم الحرب الأخرى بل بمكتبات كاملة نهبوهـا في المدن اليونانية المفتوحة. فقد حمل القائد لوتسيل أميل باول معه إلى روما مكتبة الحكام المقدونيين في عاصمتهم بلاّ بعد أن انتصر على المقدونيين وحطم دولتهم سنة ١٦٨ ق. م في موقعه بيدنا. أمـا القائد لوكول فإنه بعد أن انتصر على ملك بـونت ميتريدات حمل إلى روما مكتبته الغنية. وهكذا تصرف أيضا القائد سول، الذي فتح أثينا سنة ٨٤ ق. م، إذ أنه ضمّ إلى غنائمه بقايا مكتبة أرسطو التي ضمت مخطوطات تلميذه تيوفراست.

وطالما أن هؤلاء القـادة العسكريين يقدرون فائدة حمل المكتبـات إلى روما فإن هذا

يدل على موقف جديد للرومانيين إزاء الكتاب، على المكانة التي أخذ الكتاب يحتلها في نظر هؤلاء القادة العسكريين وفي نظر الشريحة العليا من المجتمع الروماني. وفي الحقيقة لقد أخذ هؤلاء الكتب بأسلوب نرفضه اليوم ولكن علينا أن نقبل بأن ما فعله القادة العسكريون كان شيئا شائعا في العصور السابقة والعصور اللاحقة، ولذلك لا يمكن أن ندين هؤلاء القادة فقط على مافعلوه.

وإلى جانب تغلغل الكتاب اليوناني في روما فقد نشأ هنا، وخاصة من القرن الثالث ق. م، تقليد الكتابة باللغة المحلية (اللاتينية) مما أدى إلى أن تنشأ في روما وفي بقية المدن الثنائية اليونانية ـ اللاتينية إزدواجية في الثقافة، ستترك أثرا عميقا في الحياة الثقافية خلال العصر القديم كله.

وفي الواقع أن هذه الازدواجية تبدو أيضا سواء في إنتاج الكتاب وتوزيعه أو في تركيب مجموعات الكتب سواء في المكتبات العامة أو الخاصة في روما وفي بقية المدن.

وفيما يتعلق بإنتاج الكتاب في اللغة اللاتينية في روما خلال القرن الثاني والأول قبل الميلاد فلا يوجد لدينا معطيات كافية إلى أن أخذ شيشرون يكتب عن ذلك في رسائله الكثيرة. وهكذا لا نعرف عن الفترة السابقة لشيشرون سوى أنه لم يكن يوجد إنتاج منظم للكتاب. فقد كان على المؤلفين، أو أصدقائهم، أن يهتموا بأنفسهم بنسخ الكتاب وتوزيعه وغالبا على شكل هدية للأصدقاء والمعارف وبالإضافة إلى هذا لم تكن توجد في روما مكتبات عامة يمكن أن تحفظ فيها الكتب أو يمكن أن يلجأ إليها القراء المهتمين للاطلاع على الكتب. وقد خطر ليوليوس قيصر فقط أن يؤسس مكتبة ضخمة على نمط مكتبة الإسكندرية، إلا أنه لم يستطع تنفيذ هذه الفكرة خلال حياته. وقد تمكن أخيرا صديقه أذنيه بوليون من تحقيق فكرته وتأسيس أول مكتبة عامة، ويدل تأسيس أول مكتبة عامة، في النصف الثاني للقرن الأول ق. م على أن متطلبات إنتاج الكتاب أصبحت كبيرة إلى الحد الذي برزت فيه أخيرا فكرة مكتبة عامة كبيرة.

وفي القرن الأول ق. م، أي في نهاية العصر الجمهوري، لم يعد الكتاب يلبي حاجة النخبة الروحية للمجتمع الروماني الراقي فقط بل أصبح زينة لبيوت وقصور الأغنياء ومظهرا من مظاهر التقليد. ولاشك أن التسابق على تقليد الآخرين يوضح في حد ذاته المكانة التي وصل إليها الكتاب آنذاك في المجتمع الروماني.

أما إنتاج الكتاب فقد تطور كثيرا في نهاية العصر الجمهوري كما تطورت أيضا شبكة توزيع الكتاب. وهكذا أصبحت كتب فارون وشيشرون وغيرهم من الكتّاب والشعراء الرومانيين الكبار تنسخ وتباع في روما وفي بقية مدن الدولة الرومانية الواسعة. وفي ذلك الوقت برز حرص متزايد على تنقيح المخطوطات للوصول إلى النصوص الأصلية لقطع الطريق على إساءة النساخ إلى المؤلفات التي ينسخونها، إذ أن التشويه كان قد وصل في بعض المؤلفات إلى الحد الذي استحال معه الوصول إلى النص الأصلي.

ويقدّم لنا شيشرون في رسائله الكثيرة صورة حية عن الوضع المتعلق بالكتاب في نهاية العصر الجمهوري. وبالاستناد إلى هذا نفهم علاقته بالناشر تيت بومبونيه، وعن مشاكله مع الناشرين غير الشرعيين، وعن طريقة جمع الكتب في مكتبته الخاصة. وفي الواقع أن الرسائل تساعدنا على التعرف على الوضع من ناحية أخرى، إذ أنه كانت قد توفرت كل الشروط الضرورية لإنتاج ضخم للكتاب في العصر اللاحق ـ العصر الإمبراطوري.

ز ـ العصر الإمبراطوري

يبدأ العصر الذهبي للثقافة الرومانية مع الإمبراطور الأول أوغسطس. ففي هذا العصر تطور كثيرا الإنتاج الأدبي والعلمي، وأدى اهتمام الجمهور الكبير بمؤلفات الشعراء الكبار كفرجيل وهوراس واوفيد إلخ إلى دفع الناشرين لكي يطرحوا في السوق مؤلفاتهم، كما أنهم شجعوا باعة الكتب على أن يطوروا نشاطهم ليصبحوا الوسطاء بين الناشرين وبين القراء.

وحول كل هذا لدينا معطيات وافية لدى الكتّاب الرومانيين أنفسهم. فهؤلاء

الكتاب أنفسهم يتحدثون باستمرار عن الكتب وعن الناشرين، عن النساخ وباعة الكتب، عن ملاحقة الكتب المختلفة وملاحقة مؤلفيها، عن ثمن الكتاب وعن شكله وعن المادة التي يصنع منها، عن المكتبات وعن العاملين فيها، بالإضافة إلى الكثير من التفاصيل التي تساعدنا على تكوين صورة واضحة جدا لكل ما يتعلق بالكتاب. ونظرا لأننا سنتوسع في الحديث لاحقا عن بعض هذه المسائل فسنكتفي بتعداد أهم المعطيات فقط.

في هذا الإطار يدخل تشييد المباني الضخمة للمكتبات الجديدة في الإمبراطورية، الشيء الذي يدل على أهمية الكلمة المكتوبة في المجتمع الروماني. وهكذا فقد بنى أوغسطس نفسه مكتبتين عامتين في روما، أما الإمبراطور ترايان فقد بنى أكبر مكتبة في روما القديمة وذلك في مركز المدينة بالذات (الفوروم). ويمكن لنا أيضا أن نذكر كظاهرة مصاحبة للأهمية الكبيرة للكتاب بروز هواة جمع الكتب والمولعين بالكتب، الذين صورهم بعض الكتاب الساخرين كلوكيان وسنيكا على نحو رائع. ولاشك أن هؤلاء الهواة والمولعين بالكتب يستحقون ما كتبه عنهم هذان الكاتبان، إلا أننا لا نستطيع اليوم أن ننفي دورهم في تطور إنتاج الكتاب، نتيجة لطلباتهم وإقبالهم على شراء الكتب، وخاصة في رفع قيمة الكتاب في نظر الرومانيين.

وفي الحقيقة أن تضخم إنتاج الكتاب ودوره كوسيلة للتواصل جاء إلى حد كبير نتيجة لظهور عدد كبير من المراكز الحضرية في كل الإمبراطورية، واستمرار الازدهار الاقتصادي والثقافي للمدن التي كانت موجودة سابقا في العالم اليوناني. وقد أصبحت الكلمة المكتوبة لا يمكن الاستعاضة عنها في دولة واسعة، هي الإمبراطورية الرومانية، وخاصة لوجود مراكز ثقافية قوية ومتباعدة في آن واحد كالإسكندرية في مصر وأثينا في اليونان وغيرها من المدن التي عرفت كيف تحفظ لنفسها مكانة في الإنتاج الأدبي والعلمي في عهد الازدهار الكبير لروما وللثقافة اللاتينية. وفي هذا الإطار فإن بروز أدب الرسائل المهم للغاية (شيشرون بلين إلخ) يدل أيضا على أهمية الكلمة المكتوبة في نقل المعارف عبر الدولة الرومانية الكبيرة.

إلا أن الأزمة الاقتصادية والسياسية في الإمبراطورية كانت قد بدأت تبرز منذ القرن الثاني الميلادي، وأخذت تتضح بسرعة في المجال الثقافي. وهكذا فقد غرب ببطء عصر الكتَّاب الكبار وبرز مكانهم المقلدون الذين عاشوا في ظل أسلافهم، يشرحون مؤلفاتهم ويعلقون عليها أو يجمعون أفكار الآخرين ويشرحونها. وعلى الرغم من هذا نجد أن الاهتمام بالكتاب لا يتراجع. فقد كان عدد المكتبات العامة في ازدياد متواصل كما أن الأفردا كانوا يتسابقون لكي ينفرد كل واحد بأكبر مجموعة أو أثمن مجموعة من الكتب في بيته. ومن ناحية أخرى فقد طرأ تحول مهم على شكل الكتاب ومادته من القرن الثاني إلى الرابع الميلادي. ونظرا لأفضليته على ورق البردي فقد أخذ الرق يستعمل بازدياد للكتابة، كما أن شكل الكتاب أخذ باستمرار يتحول من اللفافة إلى الكراس Codex. وقد كان لهذا التحول نتائج بعيدة المدى لأن الكراسات المصنوعة من الرقوق ستصمد في وجه الزمن خلال العصر القديم بكامله وستبقى صالحة للاستعمال في أوربا حتى زمن غوتنبرغ.

ويجب ألا ننسى أخيرا الدور المهم الذي مارسته في إنتاج الكتاب الأطراف اليونانية للدولة الرومانية. فعلى الرغم من الفقر النسبي لهذه الأطراف بالمقارنة مع المركز (روما) إلا أن المراكز الثقافية الكبيرة في الأطراف اليونانية قد بقيت تمارس دورها الكبير في إنتاج الكتاب، وخاصة في نسخ مؤلفات الكتاب اليونانيين الكلاسيكيين.

ح ـ الكتاب في القرون الأخيرة للعصر القديم

في نهاية العصر الروماني الإمبراطوري طرأت تغيرات كبيرة على إنتاج الكتاب، وبالتحديد على شكله وعلى مادته التي يكتب عليها. فمن ناحية كانت النخبة المثقفة للبنية التقليدية الاجتماعية تحاول أن ترعى وأن تطور التراث الثقافي اليوناني ـ الروماني الوثني، ومن ناحية أخرى أدى توطيد المسيحية إلى إحداث تحولات ستغير بدورها الحياة بشكل جذري في الإمبراطورية الرومانية بما في ذلك إنتاج الكتاب. وهكذا سينعكس هذا التضاد بين هذين التيارين الايديولوجيين على إنتاج الكتاب

وشكله وعلى المادة التـي يصنع منها: فقـد كان التقليـديون، حماة الثقـافة الـوثنية، يفضلون لفافات ورق البردي بينما كان أنصار الديانة الجديدة ـ المسيحية ـ يميلون إلى الكراسات المصنوعة من الرقـوق. وهكذا فإن توطيد المسيحية وتحولها إلى دين رسمي للدولة سينعكس على مصير الكتاب وشكله في القرون الأخيرة للعصر القديم.

في القـرون الأولى لـلإمبراطـوريـة كـان المسيحيـون يحصرون إنتـاجهم للكتـابـة الطقـوسية والسجـالية والمرافعـة عن الدين. وقـد كانت المسيحيـة حتى نهاية القـرن الثالث متواضعة جـدا لأن الإمكانيات المادية لاتباع الدين الجديـد كانت متواضعة، ولأن نسخ الكتب كـــان يتم من قبل المؤمنين المتحمسين لتلبيـة حـــاجـات المجتمع والكنـائس والمدارس الـدينيـة وليس من قبل نسـاخ محترفين. أمـا في القـرنين الـرابع والخامس، بعد أن تسلم المسيحيـون السلطة في الإمبراطوريـة، فقد أصبحت كتبهم في غـاية الأنـاقة وأصبحت لا تقـارن من حيث أناقتهـا وأسعارهـا بما أنتج في العصر القديم. وفي ذلك الوقت أصبح نسخ وتزيين الكتب يتم في ورشات خاصة، بعضها مدني وغـالبيتها دينية، وجـدت في إطار المكتبات والأديـرة المسيحية. ونعلم الآن أن ورشة من هذا النوع كانت في مكتبة قيساريـة منذ تأسسها في القرن الثالث الميلادي، كما كانت هنـاك ورشة أخرى في المكتبـات المسيحية الكبيرة في الإسكندريـة والقدس والقسطنطينيـة. وبـالإضافـة إلى هـذه كـانت هنـاك ورش خـاصة أخـرى لاتـرتبط بالكنيسـة، حيث كان يتم نسخ المؤلفات الدينيـة واليونانية ــ الرومانية الكـلاسيكية لتلبية طلبات النخبة المسيحية والارستقراطية الرومانية القديمة. وفي الواقع لقد بقيت هذه الورش الخاصـة تعمل حتى بعد أن تولى المسيحيون السلطـة، ولكن كان عليها الآن أن تتكيف مع الوضع الجديد ومع الطلبات الجديدة ومع المادة الجديدة (الرقوق) والشكل الجديـد للكتـاب (الكـراس). إلا أن الارستقراطيـة المسيحيـة الجديـدة لن تقتصر طلبـاتها في هذه الـورش على الكتب الدينيـة فقط بل وعلى مـؤلفات الكتّـاب الوثنيين أيضا.

وعلى الرغم مـن هذا فقد كـانت هذه الـورش الخاصة تعـد أيامهـا الأخيرة. فقد اختفت غالبيتهـا مع اختفاء الحضارة التي خلقتهـا والتي كانت بحاجة إليهـا. فقد

كانت الشريحة المثقفة من الارستقراطية الرومانية، التي حافظت بطلباتها على هذه الورش الخاصة حتى بداية العصر الوسيط، تضعف باستمرار من الناحية الاقتصادية والسياسية. أما في الناحية الأخرى، فقد كانت الورش المتكاثرة التابعة للأديرة قادرة على تغطية الطلبات المتناقصة للكتب. وبهذا الشكل أصبحت هذه الورش الممثلة النموذجية لثقافة الكتاب القروسطية، هي المنتج الوحيد للكتاب وبقيت على هذه الحالة ألف سنة، أي إلى نهاية العصر الوسيط.

أما المراكز الوثنية كأثينا والإسكندرية وروما إلخ فقد تابعت في الأيام الأخيرة للإمبراطورية ممارسة النشاط الأدبي والعلمي محاولة أن تحافظ بإصرار على القيم التقليدية لثقافة العصر القديم. وفي هذا الاتجاه وجدت هذه المراكز حلفاء لها في أوساط المثقفين المسيحيين، الذين حاولوا بدورهم أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه من ثقافة العصر القديم. وهكذا أصبح إنقاذ تراث العصر القديم مهمة مشتركة للنخبة المثقفة والمسيحية، وكان لهذا التواصل أهمية كبرى في إنقاذ مؤلفات الكتّاب الوثنيين القدماء ونسخها من ورق البردي الذي لا يصمد طويلا إلى الرقوق التي كانت تصمد جيدا في وجه الزمن. وفي هذا الاتجاه لدينا تفضيل مهم يتعلق بمبادرة الإمبراطور قسطنطين الثاني الذي أمر في منتصف القرن الرابع الميلادي بنقل مؤلفات الكتاب الكلاسيكية من لفافات البردي إلى كراسات الرقوق وذلك لأجل المكتبة الإمبراطورية التي كان قد أسسها حينئذ في القسطنطينية. وقد تركت حينئذ مهمة إنجاز هذا العمل الكبير إلى الورشة التي أسست في إطار المكتبة نفسها. أما في روما نفسها فقد قامت أخيرا الشريحة التي بقيت تتمتع ببعض النفوذ (من الشيوخ والخطباء وبقية أفراد الإرستقراطية المثقفة) بمحاولة يائسة خلال القرنين ٤ ــ ٥ لبعث الثقافة الوثنية والحفاظ على إشعاعها. إلا أن عصر هؤلاء كان قد غرب إذ أن هذه الإرستقراطية بعد اعتناقها للمسيحية لن تستطيع أن تنقذ نفسها من المأزق الذي سقطت فيه. وعلى كل حال فبفضل هؤلاء تمكنت الكثير من المؤلفات اليونانية والرومانية من الاستمرار في بعض الأيام الصعبة حتى نهاية الإمبراطورية وبداية العصر الوسيط.

وخلال الفوضى العامة التي شملت في نهاية العصر القديم الجزء الغربي من

الإمبراطورية الرومانية سيضطر الكثير من المثقفين الرومانيين إلى الالتجاء مع كتبهم إلى القسطنطينية طلبا للحماية ضمن أسوارها. وهناك سيحاول الأباطرة بدورهم أن يؤمنوا للكتاب تطورا متواصلا. ففي القسطنطينية، وفي الإمبراطورية الرومانية الشرقية بشكل عام، سيتم هذا التواصل بين العالم القديم والعالم المسيحي بحيث سيعايش الكتاب هنا تطوره الكبير الأخير في العصر القديم.

٢ ـ مواد الكتابة ـ أدوات الكتابة ـ شكل الكتابة

كان اليونانيون والرومانيون والشعوب الأخرى، التي خضعت لهم أو التي كانت تحت تأثيرهم، يكتبون خلال العصر القديم في غالب الأحيان على ورق البردي والرقوق وعلى مواد أخرى في بعض الأحيان. وهكذا فقد كانوا يستخدمون الحجر للكتابة على القبور والنصب التذكارية واللوحات التذكارية على الميادين العامة إلخ. وقد كانت النصوص المكتوبة على المعدن أيضا ذات طبيعة معينة وهو الشيء الذي يشمل النصوص المكتوبة على مواد أخرى كما سيمر معنا لاحقا.

وفي الواقع إن اختيار مادة للكتابة لم يكن ينبع فقط من طبيعة النص، بل من وجود أو غلاء المادة المناسبة للكتابة. إن هذا يشمل لحاء الشجر (في اللاتينية liber)، الذي أطلق الرومانيون اسمه على الكتاب لاحقا (liber)، وبعض أنواع الأوراق (خاصة أوراق النخيل) والعاج والزجاج والطين المشوي الخ.

وفي الأوقات القديمة كان الرومانيون أيضا يكتبون بعض كتبهم على النسيج أي كجيرانهم الأتروسكيين. ومع أنه لم يصلنا كتاب واحد من هذا النوع إلا أن وجود هذا النوع من الكتب يؤكده تيت ليفي الذي سجل لنا أنه كان يوجد كتاب تاريخي قديم للشعب الروماني مكتوب على النسيج في معبد الالهة يونو سونيتا في روما. ومن ناحية أخرى يتحدث الكاتب بلين في مؤلفه «التاريخ الطبيعي» (١٣، ص ٨٨) عن كتب قديمة مكتوبة على النسيج.

وقد حظيت ألواح الشمع باستعمال أوسع، وقد استخدمت لكتابة النصوص

القصيرة وحتى في بعض الأحيان لكتابة الرسائل للأصدقاء. وفي الواقع لقد كانت هذه تصنع من الخشب أو من العاج ثم تطلى بشريحة رقيقة من الشمع ثم يكتب عليها، أو بالأحرى ينقش، بقلم رفيع. وقد كانت تربط هذه الألواح بشريط بحيث يمكن أن تطوى. وقد أطلق الرومانيون على هذا اسم «الكراس» codex أو الألواح الشمعية tabellae ceratae. وإذا كان هذا «الكراس» يتألف من لوحين يسمى dyplices وإذا كان من ثلاثة ألواح كان يسمى triplices وهكذا. قد أطلق الرومانيون على الكراس الصغير اسم codicilli أو pugillares على اعتبار أنها يمكن أن تحمل بسهولة في اليد.

في الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية كانت أغلفة هذه الكتب تزين بمختلف الأشكال. أما في الداخل فقد كانت الكتابة تتم على وجه واحد من الألواح، وبالتحديد على الوجه المحفور الذي كان يملأ بشريحة رقيقة من الشمع. وحين كان يتم جمع لوحين أو أكثر كان اللوح المطلي بالشمع يوضع دائما في الجهة الداخلية لكي يتم حماية النص من أي حك غير متعمد. وحين كان يتطلب الأمر مسح الكتابة فقد كان يتم تسوية سطح الشمع بأداة مستوية، بحيث كان يمكن الكتابة ثانية على الشمع. ونظراً لسهولة الكتابة والمحي والحجم الصغير فقد كانت هذه الألواح عملية جدا وكان يمكن الذهاب بها إلى الاجتماع أو إلى السوق كما كان يمكن أن تدون عليها أية توصية.

كان اليونانيون يستعملون ألواح الشمع منذ أقدم الأوقات ثم أخذ الرومانيون يستعملونها أيضا. ومما يدل على هذا العدد الكبير من هذه الألواح التي اكتشفها علماء الآثار في المدن القديمة بالإضافة إلى الرسوم التزيينية لهذه الألواح من ذلك العصر.

وكان يكتب على هذه الألواح بقلم مصنوع من المعدن أو العاج وحتى من العظم. وكانت هذه الأقلام رفيعة من طرفها الأول وعريضة في طرفها الثاني لكي تستعمل في تسوية ألواح الشمع. وحسب هذا الوضع ظهر تعبير «قلب القلم»

للدلالة على محي النص على حين أنه بالمعنى الاستعاري يعني تصحيح النص.

ولتدوين النصوص القصيرة كان اليونانيون يلجأون إلى الكتابة على قطع الأواني الفخارية المحطمة، التي كانوا يسمونها «أوستراكون» ostrakon وعادة كان يكتب على سطحها الخارجي. ومن المعروف أن الأثينيين كانوا يكتبون على هذه القطع أسماء الذين يعاقبون بالنفي. وهكذا فقد أصبح القرار بالنفي يدعى أيضا باسم هذه القطع، أي ostrakism وقد اكتشفت حتى الآن أكثر من ألف قطعة من هذا النوع بأسماء المحكوم عليهم بالنفي من أثينا.

إلا أن هذه القطع الفخارية لم تكن مناسبة لكتابة نصوص طويلة بسبب مساحتها المحدودة، ولكنها كانت رخيصة أو حتى مجانية إذ أنها كانت تتوفر في كل بيت وفي كل شارع. ولهذا السبب فقد كانت القطع الفخارية مادة الفقراء. فالفيلسوف ديوجين يذكر لنا في خبر له أن الفيلسوف اليوناني كليانت كان فقيرا إلى حد أنه كان يدون محاضرات أساتذة زينون على قطع الفخار لأنه كان عاجزا عن شراء ورق البردي.

لوح طيني من بيلوس (اليونان) من منتصف القرن ١٥ ق. م. النص يوناني بدائي مدون في ما يسمى «الكتابة الخطية ب» متحف الآثار - أثينا

ولم تكن هذه القطع الفخارية تستخدم في اليونان فقط بل أنها كانت تستخدم أكثر في مصر في شتى العصور، سواء في العصر الفرعوني أو البطالمي وحتى في العصر الروماني وما بعده. وفي هذه القطع الفخارية نجد نصوصا متنوعة، إذ نجد الأشعار والقصص القصيرة والوصفات الطبية إلخ سواء في اللغة المصرية القديمة أو في بقية اللغات التي

كانت تستعمل خلال العصر الهلنستي وخاصة اليونانية.

أما في القرن ٣ ق. م فقد أصبحت الكتابة على القطع الفخارية شائعة لتدوين الوثائق الرسمية للحسابات المختلفة والصلوات والرسائل وحتى الاتفاقيات التجارية. وكان الأطفال أيضا يستخدمون القطع الفخارية للتدرب على الكتابة في مدارسهم. وفي هذه القطع الفخارية التي كانت تستخدم في المدارس نجد بعض النصوص القصيرة لأشهر الكتاب اليونانيين القدامى (أوريبيد، هيزيود إلخ). وهكذا بفضل هذه القطع المكتشفة أصبح في الإمكان إعادة تركيب قصيدة للشاعرة سافو. وفي الواقع لقد كانت هذه المادة مناسبة بشكل خاص للتدرب على الكتابة في المدارس لأنه كان يمكن مسح الكتابة منها بسهولة ثم الكتابة عليها ثانية. ويعتقد بحق أن القطع الفخارية كانت على الغالب مادة الكتابة للشرائح الاجتماعية الفقيرة في مصر التي لم تكن قادرة على شراء ورق البردي الرخيص نسبيا في البلاد.

وقد تابع القبط في مصر الكتابة على القطع الفخارية واستمروا على ذلك حتى قدوم العرب. وقد كتب القبط على القطع الفخارية الأدعية المختلفة ومقاطع من الكتاب المقدس وبعض النصوص الشعائرية الخ. وقد اكتشف علماء الآثار في مصر آلاف القطع الفخارية التي تتضمن النصوص المختلفة وحتى بعض الرسوم التزيينية. وفي الواقع أن هذه القطع الفخارية تعتبر مصدرا أساسيا للتعرف على الحياة الاقتصادية والمعتقدات الشعبية والعادات والجوانب الأخرى من حياة الفقراء في مصر القديمة.

ومن بين المواد التي استخدمت للكتابة لدينا جلد الثعبان. ففي رواية سجلها الكاتب البيزنطي زانورا في القرن الثاني عشر الميلادي يرد أن الحريق الذي التهم في نهاية القرن الخامس ق. م المكتبة الإمبراطورية في القسطنطينية كان قد أتى على كتاب نادر يصور ملاحم هومير كان قد كتب بماء الذهب على جلد الثعبان.

وفي العصر القديم استخدمت أحيانا للكتابة شرائح الذهب والفضة، بينما استخدم الرصاص أكثر. وهكذا يذكر لنا باوزان أنه قد رأى في هيليكون (اليونان)

نسخة من كتاب هزيود «الأعمال والأيام» مكتوب على شرائح من الرصاص. أما بلين فيذكر لنا في كتابه «التاريخ الطبيعي» (١٨، ص ٨٨) أيضا كتبا قديمة مكتوبة على شرائح الرصاص.

وقد أكد علماء الآثار هذه الأخبار بعد أن اكتشفوا عددا كبيرا من شرائح الرصاص تتضمن نصوصا مختلفة. وقد أوضحت هذه الاكتشافات أن شرائح الرصاص كانت نادرا ما تستعمل لتدوين النصوص الأدبية والأخرى المشابهة بل كانت غالبا ما تستعمل لتدوين الملاحظات الدينية والسحرية المختلفة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن استخدام شرائح الرصاص بدأ في اليونان منذ القرن الخامس ق. م، وانتشر من هنا إلى بقية بلدان المتوسط. وإلى ذلك الوقت، القرن الخامس أو الرابع ق. م، ترجع شريحة الرصاص الأتروسكية البيضوية الشكل التي اكتشفت في إيطاليا الوسطى. ونلاحظ هنا أن الكتابة ملأت سطحي الشريحة وتتضمن نصا بحوالي ٧٠ كلمة يشمل على ذكر بعض الآلهة والأضحيات التي كانت تقدم لها.

وفي الواقع لقد كان الرصاص ملائما جدا للكتابة إذ أنه كان لينا ولذلك كانت الحروف تكتب عليه بسهولة، كما كانت ليونته تساعد على طويه بأي شكل حسب الحاجة (على شكل لفافة مثلا). ومن ناحية أخرى فقد كان الرصاص متينا إلى حد يمنع محو الحروف بشكل غير متعمد. إلا أن كل هذه المزايا لم تكن هي التي حملت اليونانيين وغيرهم من شعوب المتوسط على استخدام هذا المعدن بقدر ما كان ذلك يتعلق بالمعتقدات التي كانت تؤمن بالمزايا السحرية الخاصة لهذا المعدن. فمنذ القديم كان المصريون يربطون الرصاص البارد المائل للون الرمادي بالأموات والعالم السفلي، وكانت هناك شعوب أخرى أيضا تؤمن بهذه الصلة. ولذلك فقد كان اليونانيون والأتروسكيون، وخاصة الرومانيون، يستخدمون ألواح الرصاص ليكتبوا عليها الإشارات السحرية لكي يستعينوا بقوى العالم السفلي للتأثير على شخص أو إلحاق الضرر بآخر. وقد كان الرومانيون يطلقون على هذا النوع من الألواح الرصاصية «tabellae defitonum» وكانت معظم هذه تصنع على شكل صفائح رقيقة بأبعاد صغيرة. وقد وجدت من هذه المئات في أنماط مختلفة من الإمبراطورية، وحتى في يوغسلافيا (سيساك، بتوي ـ تروغير الخ).

وبالإضافة إلى الرصاص فقد استخدم البرونز لكتابة نصوص معينة، وغالبا لكتابة الوثائق المهمة والقوانين والنصوص الدينية وما شابه ذلك. فعلى البرونز مثلا كانت قد كتبت «قوانين اللوائح الاثنى عشر» في منتصف القرن الخامس ق. م، التي دمرت سنة ٣٨٧م في الحريق الذي أشعله الغاليون.

وقد شاعت «الشهادات العسكرية» في العصر الروماني، وكانت هذه الشهادات تتألف من لوحين متساويين حيث يكتب في الداخل مرسوم الإمبراطور، وبناء على هذه الشهادة كان يمنح العسكري الذي انتهت خدمته الأراضي والامتيازات الأخرى وقد كانت هذه الألواح تحوي في أحد الطرفين ثقوبا ينفذ منها ثلاثة حلقات لتمسك بها. وفي الطرف الآخر كان هناك ثقب ينفذ منه شريط معدني لربط الشهادة. وقد كان هذا الشريط يختم في سبع مواضع، ولكي يعرف مافي الشهادة فقد كان النص ذاته ينقش أيضا على السطح الخارجي للوحين بحيث يمكن أن يرى أيضا. وقد تم اكتشاف الكثير من هذه الشهادات العسكرية حتى في يوغسلافيا (سولين، سرسكا متروفيتا، سيساك الخ).

أما ورق البردي فقد كان أهم مادة للكتابة تم استعمالها في العالم اليوناني ـ الروماني ـ وقد كان هذا الورق يؤخذ من نبتة تنمو في المستنقعات **Cyperus papyrus**، وخاصة في مصر على دلتا النيل. وحسب الوصف المفصل الذي تركه لنا بلين الكبير في كتابه «التاريخ الطبيعي» (١٨، ص ٧٤ ـ ٨٢) فإن ورق البردي كان يصنع من ساق تلك النبتة التي توجد تحت الماء والتي يمكن أن يصل عرضها إلى عرض يد الإنسان. وبعد أن تزال كانت الساق تقسم إلى شرائح طولية تمتد إلى متر تقريبا ثم توضع الشريحة فوق الأخرى بشكل متصالب. وبعد ذلك كانت الشرائح تغمر بمياه النيل ثم تجفف تحت أشعة الشمس وتصقل بعد ذلك وتسوى أطرافها أخيرا بحيث لا يتعدى طول الصفحة ٢٥ ـ ٣٠ سم. وإذا كان الأمر يتعلق بنص طويل فقد كانت تلصق عدة صفحات من هذا النوع بحيث يتشكل شريط يتراوح طوله من ٦ إلى ١٠ أمتار. وفي حالات نادرة كان الشريط الواحد يمتد إلى ٤٠ مترا وأحيانا أكثر من ذلك.

وقد كـان الشريط من هذا النـوع يلف حول عـود من الخشب أو من العـاج كان يُدعى omfalos من قبل اليونانيين و umbilicus من قبل الرومانيين. أما اللفافة من ورق البردي فقد دعيت توموس Tomos أو Kylindros في اليونانية وvolumen في اللاتينية.

كانت الكتابة على ورق البردي تتم على شكل أعمدة على طول الشريط، وتتصل ببعضها من اليسار إلى اليمين. وهكذا فإن القارىء يمسـك طرف اللفافة بيد ويفتح بالأخرى النص من أوله إلى آخره. وقد كـان كل عمود من هذه يسمى باغنيا pagina وقـد أطلق هـذا الاسم على الصفحـة حين تحول شكل الكتـاب من اللفـافـة إلى الكـراس. وإذا لم تتسع لفافـة واحدة لكل النص فقـد كـانت تستعمل لفافـة ثانيـة وثالثة إلى أن تكمل كتـابة النص. وعلى طرف اللفافة، وخاصة إذا كـانت محفوظة في مكتبـة مـا، كـانت تـوضع قطعـة صغيرة من الجلـد أو ورق البردي تتضمن عنـوان النص. ولحماية هذه اللفافات فقد كـانت تغطى أحيانا بغلاف جلدي خاص، بينما كانت توضع أحيانا في صناديق خاصة.

لقد استخدم ورق البردي للكتـابة في وقت مبكر جدا. فأقـدم النماذج المحفوظة في مصر تعود إلى نهاية الألف الـرابعة ق. م، ولكن يعتقد أن بدايـة الكتابة على ورق البردي تعـود إلى منتصف الألف الـرابعـة ق. م. وقـد وصل ورق البردي إلى فينيقيـا حـوالي سنـة ١١٠٠ ق. م، بينما نجده في آشـور في القـرن الثـامن ق. م. وفي ذلك الـوقـت، وربما من القـرن ٩ ق. م، وصل ورق البردي إلى اليـونـانيين عن طـريق الفينيقيين. وليس من المعروف بعـد منذ متى بدأ اليـونانيون يـدونون كتبهم على ورق البردي، ولكن يعتقد أنهم بـدأوا في استعمال هذا الـورق في القرن ٦ أو نهايـة القرن ٧ ق. م، أي في الوقت الـذي تخلص فيه اليـونانيـون من الوسـاطة الفينيقيـة وأصبحوا يتزودون بأنفسهم من هذا الورق من مصر.

ومن المحتمل جدا أن ورق البردي دخل إيطاليا عن طريق المستوطنات اليونانية. وقد أخذ الرومانيـون اسم هذا الورق عن اليونانيين (charta)، ولا يستبعد أن يكـون

الرومانيون قد ذهبوا بأنفسهم إلى مصر ليتزودوا بورق البردي.

وقد أصبح ورق البردي يستعمل في روما على نطاق واسع خلال العهد الجمهوري والإمبراطوري، بينما انتشر استعماله في مناطق أوربا الأخرى مع توسع الإمبراطورية الرومانية. ونظرا لتزايد الطلب على ورق البردي فقد أصبحت مصر أكبر منتج ومصدر لهذه المادة. وقد أصبح ورق البردي يستعمل للكتابة في البلدان التي وصل إليها تأثير الحضارة الرومانية إلى أن أخذ الرق يزاحمه في الفترة الأخيرة من عصر الإمبراطورية الرومانية قبل أن يحل محله تماما.

وقد وصل إلينا من العصر اليوناني ـ الروماني عدد كبير نسبيا من النصوص المكتوبة على ورق البردي، ومعظم هذه النصوص جاء من مصر التي ساعد مناخها الملائم جدا على حفظ هذه المادة القابلة للعطب بسرعة.

وقد حفظت كمية صغيرة من النصوص المكتوبة على ورق البردي في بلدان الشرق الأوسط حيث يتشابه المناخ فيها مع المناخ في مصر. أما في البلدان الأخرى للإمبراطورية الرومانية فقد كان العثور على نص من هذا النوع أمرا نادرا. ولدينا استثناء هنا يتعلق باكتشاف عدد من لفافات البردي في أحد بيوت مدينة هيركولانه Herkulane والتي غطاها بركان فيزوف القريب بحممه خلال ثورته سنة ٧٩م، مما أدى إلى حفظ لفافات البردي كما هي.

وحسب أحد الجغرافيين من القرن الرابع الميلادي أن ورق البردي ينتج في ذلك الحين في الإسكندرية وضواحيها فقط. وقد كانت الإسكندرية بالطبع هي الميناء الذي تأتي إليه السفن من بلدان حوض المتوسط للتزود بهذه المادة الثمينة. وفي الواقع لقد كان ازدهار الإسكندرية الاقتصادي منذ تأسيسها ينبع من التجارة بورق البردي، بينما كانت ضواحيها قد استفادت كثيرا من هذا قبل تأسيس هذه المدينة.

كان إنتاج ورق البردي في أيدي الأفراد سواء في عهد الفراعنة أم في العهود اللاحقة، ولكن بيع هذه السلعة المهمة كان دائما يتعرض لمراقبة يقظة من قبل السلطة المركزية. وفي الواقع لقد كان المنتجون والتجار، وخاصة في العصر الروماني، يلتزمون بتزويد السوق بشكل منظم بورق البردي لأن أي اختلال كبير بتوزيع هذه المادة كان

يمكن أن يؤدي إلى اضطراب خطير في عمل الإدارة وفي الحياة العامة. ويكفي هنا للتدليل على مدى أهمية تزويد السوق بشكل منظم بالنسبة لروما أن نذكر ماحدث مرة في عهد الإمبراطور تيبر. ففي ذلك الحين حدث نقص في ورق البردي مما دفع مجلس الشيوخ إلى تشكيل لجنة خاصة كلفت بتوزيع الكمية القليلة المتبقية في المستودعات من ورق البردي لأن الحياة العامة في روما، كما يروي لنا بلين، تعرضت للشلل تماما بسبب ذلك. ولكي لا يتكرر ذلك مرة أخرى في المستقبل فقد تم تحديد الكميات التي يجب أن يسلمها المنتجون والتجار المصريون إلى روما في كل سنة.

وقد كان ورق البردي يصل إلى روما بالسفن عن طريق ميناء أوستيا ثم ينقل من هناك إلى المدينة حيث يخزن في مستودعات خاصة كانت توجد على رابية أوبيا. ومن هذه المستودعات كان يتم تزويد تجار المفرق بورق البردي تحت رقابة السلطات الرسمية.

وإلى جانب ورق البردي فقد كان الرق من أهم مواد الكتابة في العصر القديم.

وفي الواقع لقد كانت حضارات الشرق الأوسط تستعمل الجلد العادي للكتابة قبل أن يتم التوصل إلى إنتاج الرق. وقد وجد أقدم نص مكتوب على الجلد في مصر، وهو يرجع إلى القرن الخامس عشر ق. م. أما فيما يتعلق ببلاد الرافدين فترجع أقدم النصوص المكتوبة على الجلد إلى القرن التاسع ق. م، ومن هذين المركزين الحضاريين انتشر استعمال الجلد ليصل إلى بلاد الفينيقيين والشعوب الأخرى في شرق البحر الأبيض المتوسط. وقد استعمل اليهود بشكل خاص الجلد، ثم الرق لاحقا، لكتابة أسفارهم المقدسة. ومن هيرودوت نعرف أن اليونانيين في آسيا الصغرى كانوا يستعملون الجلد للكتابة قبل أن يتحولوا إلى ورق البردي.

أما في العصر الهلنستي فقد تم التوصل، وفي مدينة برغام Pergam كما يرجح، إلى أسلوب جديد لمعالجة الجلود بحيث إن المادة الجديدة للكتابة ــ الرق ـ أصبحت تسمى في اللاتينية باسم المدينة pergamen(*)

---

* ومن اللاتينية اشتقت اللغات الأدبية الحديثة هذه التسمية، فهي في الألمانية pergament وفي الفرنسية perchmine وفي الإنجليزية parchment الخ. (المترجم).

ومع أن الكتّاب القدامى لم يتركوا لنا وصفا مفصلا لأسلوب إنتاج الرق إلا أنه يمكننا بسهولة أن نتصور ذلك نظرا لأن أسلوب الإنتاج لم يتغير خلال عدة قرون، بل بقي كما هو حتى العصر الوسيط في أوربا. فعلى الغالب كانت تستخدم جلود الحيوانات الصغيرة، الغنم والماعز، وكانت تغطس أولا ثلاثة أيام في ماء الجير لكي يذوب عنها الشحم وبقايا اللحم. وبعد ذلك يزال الصوف عنها وتشد ثم تترك مدة من الزمن لكي تجف تماما. وفي النهاية كانت تؤخذ لتصقل من الطرفين وتقطع على شكل مربعات، وبهذا كان الجلد أخيرا يتحول إلى رق جاهز للاستخدام.

كانت الكتابة على الرق تتم دائما على الوجهين، وكانت الكتابة غالبا ما تمحى لعدم الحاجة إليها أو لكتابة نص آخر مكان النص الأول. وتسمى هذه الرقوق التي استعملت للكتابة أكثر من مرة palimpsesstat وهي ذات قيمة كبيرة للمؤرخين لأنه غالبا مايكون النص الأقدم أهم بكثير من النص الأحدث. وفي الواقع لقد أصبح الآن في الإمكان بواسطة الأشعة إعادة تسجيل النص الممحي وقراءته بسهولة.

وحسب إحدى الروايات، التي أوردها أولا فارون ثم بلين وبقية الكتّاب الرومانيين، فإن أسلوب تحويل الجلود إلى رقوق قد تم التوصل إليه في مدينة برغام. خلال حكم الملك أومنست الثاني في القرن الثاني ق. م، بعد أن أوقف الحكام المصريون تصدير ورق البردي إلى هذه المدينة نتيجة للمنافسة بين الطرفين. ويعتقد أن هذه الرواية لا تتضمن إلا بعض الحقيقة، أي أن التوصل إلى تطوير الأسلوب لتحويل الجلود إلى رقوق جاء نتيجة للطلبات المتزايدة للمكتبة الملكية التي أسست في ذلك الحين ونتيجة لصعوبة التزود بانتظام بورق البردي من مصر.

إن هذه الرواية، وبغض النظر عن أنها قد لا تنسجم تماما مع الحقيقة التاريخية، قد برزت في العصر اليوناني ـ الروماني للتعبير عن المنافسة بين هاتين المادتين المستعملتين للكتابة. فقد كانت مصر توفر للسوق ورق البردي الذي كان رخيصا نسبيا، إلا أن الرق كانت له أفضلية في عدة نواحٍ. فقد كانت أفضلية الرق تكمن أولا في أنه يمكن أن ينتجه كل من يملك الحيوانات الصغيرة. ولكن من الناحية

الأخرى كانت مصاريف إنتاج الرق أكبر بكثير بالمقارنة مع ورق البردي، كما أنه كان من الصعب تلبية حاجات السوق المتزايدة خاصة في عهد الإمبراطورية الرومانية. ومن هنا فقد كان ورق البردي يفرض نفسه كمادة للكتابة. ونظرا لأن الطلب كان أكبر بعدة أضعاف من العرض الذي يمكن أن يوفره الرق فقد كانت أفضلية هذه المادة لا تؤخذ بعين الاعتبار، ولذلك بقي الرق عاجزا عن منافسة ورق البردي.

وقد استمر هذا الوضع حتى الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية حين تناقص كثيرا عدد المستهلكين لورق البردي بحيث إن الرق أصبح في وسعه تلبية حاجة السوق. وهكذا فقد انتصر الرق أخيرا على منافسه القديم، ورق البردي.

إلا أن هذا ليس السبب الوحيد لإزاحة ورق البردي لصالح الرق. ففي هذا الاتجاه كان للمسيحية دورها أيضا إذ أنها كانت تفضل استعمال الرق كمادة للكتابة عوضا عن ورق البردي. وفي الواقع لقد كان المسيحيون، واليهود أيضا، لا ينظرون إلى الكتّاب الذي يضم النصوص المقدسة كمادة قابلة للاستهلاك. فقد كانت للكتب المقدسة، الإنجيل لدى المسيحيين والتوراة لدى اليهود، أهمية تعادل أهمية أمكنة العبادة ولذلك فقد كان لابد أن تكون مكتوبة في مادة متينة يمكن أن تصمد في وجه الزمن. وبعبارة أخرى لقد كان الأمر لدى المسيحيين واليهود يتعلق بموقف آخر من الكتاب يختلف عن موقف العالم الوثني اليوناني ـ الروماني. فاليونانيون والرومانيون كانوا ينظرون إلى الكتاب نظرة عادية غير مقدسة أي كشيء يمكن أن يستعمل ويمكن أن يطرح في أية زاوية إذا لم تعد إليه حاجة، وحتى يمكن أن يمزق.

ومع توطيد المسيحية كان دور الرق كمادة لكتابة يتعاظم، ثم أصبح مادة عادية للكتابة حين تولى المسيحيون الحكم في الإمبراطورية الرومانية المنهكة في ذلك الحين. ومع إزاحة الرق لورق البردي أخيرا ساد الشكل الجديد للكتاب (الكراس) عوضا عن الشكل القديم (اللفافة).

إلا أن المنافسة بين هذين الشكلين للكتاب لم تنته بسهولة كما انتهت المنافسة بين

المادتين المعروفتين للكتابة ـ الرق وورق البردي. فقد كان اليونانيون، والرومانيون إلى عهد متأخر، وبقية الشعوب التي كانت تكتب على ورق البردي أو الجلد العادي، يعتبرون أن اللفافة هي الشكل الطبيعي الذي يناسب الكتاب أكثر. وقد نستغرب اليوم لموقف من هذا النوع لأن اللفافة لا يمكن أن تكون مناسبة كشكل للكتاب أكثر من الكراس، سواء فيما يتعلق بالكتابة والقراءة أو فيما يتعلق بالاستفادة من الرفوف. ويذهب بعض الباحثين إلى أن الكراس كشكل جديد للكتاب برز لدى الحيثيين منذ الألف الثانية ق. م، إلا أن هذا ليس مؤكدا. ويميل البعض بحق إلى أن فكرة الكراس كشكل جديد للكتاب جاءت من تقليد الكتابة على عدة ألواح خشبية أو معدنية قابلة للطوي والربط. وقد كان الكراس يتألف من طوي قطعة رق على شكل مربع في منتصفها ثم كانت تربط عدة صفحات من هذا النوع إلى أن يتكامل الكراس. وكان الكراس عادة يحمى بغطاء من الرق أو الجلد السميك، أو من الخشب والمعدن، أو من أي مادة قوية أخرى.

إن بروز هذا الشكل الجديد للكتاب ليس بالضرورة نتيجة مباشرة لاستعمال الرق. فمن المعروف أن الرق، والجلد العادي أيضا، كان يستعمل قبل وقت طويل من ظهور الكراس، أي أن شكل الكتاب لم يتغير فقط لهذا السبب. فقد كانت لفافات الرق تستخدم منذ العصر البابلي والمصري، بينما لدينا من القرن الأول ق. م نماذج جميلة من هذه اللفافات من مدينة قمران قرب البحر الميت، حيث اكتشفت سنة ١٩٤٧ مكتبة كاملة لإحدى الطوائف اليهودية تحتوي على عدد كبير من اللفافات. وأخيرا فإن الكتب في مكتبة برغام كانت على شكل لفافات ولم تكن على شكل كراسات.

كان الكراس كشكل جديد للكتاب له أفضلية كبيرة على الشكل القديم (اللفافة)، إلا أنه لم يتمكن أن يحل بسهولة محل اللفافة كما يمكن أن يعتقد المرء للوهلة الأولى. ففي روما برز الكراس كشكل جديد للكتاب في القرن الأول الميلادي إلا أن الشكل القديم (اللفافة) بقي سائدا حتى القرن الثالث الميلادي، بينما لم يتمكن الكراس من إزاحة اللفافة تماما إلا في القرن الرابع الميلادي. وفي الواقع إن

الإصرار على استخدام اللفافة هذه الفترة الطويلة في الإمبراطورية الرومانية كان نتيجة للعادة والتقليد في الأوساط العليا للمجتمع الروماني أكثر مايكون نتيجة للقناعة بأفضلية هذا الشكل للكتاب. فبالنسبة إلى الناس المتعلمين في روما لم يؤثر حينئذ الارتباط بين انتشار استعمال الرق كمادة للكتابة وبين انتشار الكراس كشكل جديد للكتاب، لأن الارستقراطية الرومانية بقيت تفضل ورق البردي المستورد من مصر المتحضرة على الرق الذي كان يمكن لكل شخص أن يصنعه في بيته.

إلا أن أفضلية الكراس على اللفافة كان لابد أن تظهر مع الزمن. فقد كان في الإمكان أن تدون الكتابة على وجهي الرق في الكراس وليس فقط على وجه واحد كما كان الأمر مع ورق البردي في اللفافة. وعلى وجه الرق كان يمكن أن تمحى جمل وحتى صفحات كاملة وأن تكتب من جديد بينما كان هذا صعبا وحتى مستحيلا بالنسبة لورق البردي. وقد كان الكراس أسهل سواء للحمل في اليد أو للتوصل إلى مقطع ما في الكتاب. وقد كانت هذه الميزة شديدة الأهمية للكتب القانونية، وحتى غيرها من الكتب، حيث يرغب المرء أن يجد بسرعة ما يريده. وبالإضافة إلى هذا فقد كان ترتيب الكراسات في الرفوف أسهل بكثير من ترتيب اللفافات، لأنه كان يمكن وضع الكراس الواحد فوق الآخر أو الواحد جنب الآخر دون أن يخشى عليها من التقوس.

وهناك أيضا ميزة مهمة للكراس بالمقارنة مع اللفافة، ألا وهي إمكانية تزيين النص برسوم بشكل أسهل. فعلى ورق البردي كانت الرسوم ممكنة بالألوان المائية فقط لأنها كانت تبقى ثابتة في حالة لف ورق البردي. إلا أن شكل وحجم اللفافة لم تكن تمنح الفنان، أو الرسام، تلك الإمكانية التي يوفرها له الكراس. فعلى الصفحات الواسعة والمتينة للرق كان بوسع الفنان الرسام أن يستخدم تقنيات مختلفة ومواد مختلفة (استخدام شرائح الذهب على سبيل المثال). وبالإضافة إلى هذا فقد كان الفنان ـ الرسام يجد في الصفحة المربعة حرية أكبر لكي يخطط وينفذ ما يرى برسمه، بحيث يمكن أن يبدو الارتباط أكثر بين موضوع الرسم وبين النص في الصفحة ذاتها أو على الصفحة المقابلة.

وقد أدت كل هذه المزايا إلى ازدياد الاعتماد على الشكل الجديد للكتاب (الكراس) وعلى الرق كمادة للكتابة. وعلى الرغم من الانتصار الذي حققه الكراس على اللفافة إلا أن المثقفين ظلوا ينظرون بتقدير إلى لفافة البردي، ولذلك بقيت تستخدم إلى القرن السادس الميلادي. وإلى هذا القرن بالذات ترجع كلمات المدح التي أطلقها كاسيودور على لفافة البردي.

إن التحليل الوافي لمضمون الكراريس خلال وجود الدولة الرومانية يدل على أن استعمال الشكل الجديد للكتاب (الكراس) كان على الغالب لدى المسيحيين. وبعبارة أخرى إن تزايد الاعتماد على الشكل الجديد للكتاب، الذي يرتبط بدوره باستعمال الرق للكتابة، كان يتزايد مع تزايد تأثير المسيحية. ويعتقد هنا أن توجه المسيحيين لاستعمال الرق كان ينبع من وضعهم الاقتصادي، إذ أنهم في القرون الأولى للإمبراطورية الرومانية كانوا ينتمون إلى الشرائح الدنيا والفقيرة من المجتمع، ولذلك فقد كان من الأرخص لهم إنتاج الرق في ورش بيتية من شراء ورق البردي. وبالإضافة إلى هذا هناك سبب آخر لميل المسيحيين إلى الرق، ألا وهو أن النصوص الأولى من الكتاب المقدس كانت مكتوبة في كراريس من الرق، ولذلك كانوا يعتقدون أن هذا الشكل (الكراس) وهذا النوع (الرق) يناسبان كتبهم المقدسة. وتبقى هنا حقيقة لابد من ذكرها، ألا وهي أننا لا نعرف إلى اليوم أية نسخة للكتاب المقدس مكتوبة على لفافة بردي من العصر القديم.

ومع اشتهار الشكل الجديد (الكراس المصنوع من الرق) أصبح الكتاب يأخذ باستمرار ملامح فاخرة واستعراضية. وهكذا سيصبح تجليد الكتاب في نهاية العصر القديم وخلال العصر الوسيط من أهم الملامح الفاخرة للكراس، بينما ستصبح بسرعة المواد التي تزين بها الأغلفة مؤشرا لثروة المالك ولوضعه الاجتماعي. فمنذ نهاية العصر القديم أصبحت الأغلفة تصنع من شرائح الذهب والفضة، التي تزين بشكل فني فاخر، بينما كانت أحيانا تزين بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة. ومع إنتاج الكتاب منذ نهاية العصر القديم في الكنائس والأديرة المسيحية تطورت سلسلة كاملة من الحرف الفنية المرتبطة بتشكيل وتزيين الكتاب. وللتدليل على الأهمية

الكبيرة التي أصبحت تعطى لتجليد الكتب بشكل فاخر نجد أن الإمبراطور قسطنطين (حوالي ٢٨٠ ــ ٣٣٧م) يوصي الأسقف أوزوب في قيسارية على خمسين نسخة من الإنجيل لكنائس القسطنطينية مع الإصرار على أن تكون مجلدة بشكل فاخر.

ومن ناحية أخرى فقد كان الكتّاب الوثنيون يتخلّون ببطء عن لفافة البردي لصالح الشكل الجديد للكتاب (الكراس). وقد سجلت عدة حالات من هذا النوع في القرن الثاني الميلادي، الا أن القرن الثالث الميلادي سيشهد صدور أعمال هومير وشيشرون وبقية الكتّاب القدامى في كراريس من الرق، بالإضافة إلى صدور القوانين المختلفة والأعمال المشابهة التي كانت رائجة في ذلك الحين. أما في بعض الأوساط المثقفة في روما فقد كانت الفكرة القائلة بأن الكتاب ليس بالضرورة لفافة البردي تتغلغل ببطء حتى أن رجل القانون أولبيان يرى من الضروري في القرن الثالث الميلادي أن يشرح لمواطنيه بروح سجالية أن تعبير «الكتاب» لا يعني بالضرورة لفافة البردي بل كل نص مؤطر بغض النظر عن المادة المستعملة للكتابة.

وقد كان لنسخ الأعمال القديمة وكتابة الأعمال الجديدة في كراريس الرق خلال القرن ٣ ــ ٥ الميلادي أهمية كبيرة لإنقاذ التراث الأدبي والعلمي للعصر القديم للأجيال القادمة. وحين أدركت روما أخيرا أفضلية الرق على ورق البردي بدأت عملية نسخ منظمة لنقل النصوص من ورق البردي إلى الرقوق.

ومن المعروف هنا ماحدث في مكتبة «أوريغنا وبامفيلا» في قيسارية حيث أخذ الاسقفان أكاتس واوزوي في نقل الكتب من ورق البردي إلى الرقوق لأنه في ذلك الحين كان ورق البردي قد تعرض للتلف. وفي الواقع لقد سجلت لنا عدة حالات من هذا النوع.

وبفضل القاعدة الوثنية التي بقيت تؤثر في تكوين المثقفين المسيحيين فقد تم بإصرار نسخ كل مؤلفات الكتّاب الوثنيين القدامى خلال الفترة الممتدة من نهاية العصر القديم إلى بداية العصر الوسيط، ولم تستثن هنا سوى نصوص أولئك الكتّاب الذين كتبوا ضد المسيحية. ومن المرجح أننا لن نعرف أبدا كم من أعمال الكتّاب

الوثنيين قد فقدت للأبد لأن أصحابها لم يروا من الضروري أن ينسخوها ثانية على الرقوق. وهكذا فمن المعروف أنه قد فقدت أعمال لـ تاس، وديودور، وغيرهم من كتاب العصر القديم لأن أعمالهم لم تدون حينئذ على الرقوق مما حكم عليها بالضياع إلى الأبد. فورق البردي، باستثناء الحالات النادرة كما في مصر، لم يكن في وسعه أن يصمد في وجه الزمن كل هذه القرون لكي يصل إلينا سالما. وحتى كراريس الرقوق من نهاية العصر القديم لم يبق منها إلى اليوم إلا عدد صغير. وعلى كل حال فقد بقيت الأعمال المدونة على ورق البردي تستخدم فترة طويلة من الزمن بحيث كان يمكن أن تنسخ ثانية في العصر الوسيط لكي تنقذ من المصير الذي آلت إليه.

وفي نهاية هذا القسم من الكتابة في العالم اليوناني ـ الروماني بقي أن نشير أخيرا إلى أدوات الكتابة. ففي حديثنا عن ألواح الشمع كنا قد ذكرنا طبيعة الأقلام التي كانت تستخدم للكتابة. وفي الواقع أن اكتشاف كمية كبيرة من هذه الأقلام في بقايا المدن القديمة وفي المقابر يوحي بالاستخدام الواسع لها. وفي العادة كانت هذه الأقلام بسيطة، ولكن اكتشفت أيضا أقلام مزينة وأخرى مذهبة.

أما على ورق البردي والرق فقد كانت تستعمل للكتابة أقلام مبرية من القصب (في اللاتينية calamus). وكانت هذه الأقلام تحفظ في علبة خاصة تسمى المقلمة (في اللاتينية theca calamaria أو calamarium) لكي لا تتعرض للضرر.

وكانت تستعمل أيضا للكتابة ريش الطيور بالإضافة إلى الأقلام المعدنية (في اللاتينية penna)، التي كانت تصنع من البرونز وفي حالات نادرة من الفضة.

وكانت الكتابة على ورق البردي والرق تتم باستعمال الحبر الأسود أو الأحمر. وكان الحبر يحفظ في محابر خاصة تصنع من الفخار أو من البرونز. وقد كانت محابر البرونز تتميز بشكلها الإسطواني وبوجود غطاء لها، وغالبا ما كانت تزين برسوم مأخوذة من الميثولوجيا. وقد اكتشفت عدة محابر مزدوجة، أي واحدة للحبر الأسود وواحدة للحبر الأحمر. ولدينا من هذا النوع محبرة جميلة اكتشفت في سولين.

٣ ـ إنتاج وتوزيع الكتاب

لم يكن الكتَّاب اليونـانيون والرومانيون على الدوام خـلال عهود العصر القديم في مستوى واحد من الاهتمام بتدوين المعطيات التي تتعلق بإنتاج الكتاب وتوزيعه، عن شكله ومادته، أو عـن التفاصيل الأخرى المتعلقة بالكتاب. كـان الكتّاب في اليونان الكلاسيكيـة نادرا مايسمـون هذه الأمـور، بينما تجد أن خلفاءهم في العصر الهلنستي يقدمون بعض التفـاصيل عن هذه الأمور. ومع هذا لم يخطر بـذهن أحد الكتّاب أن يخصّص نصاً ممـا يكتبه عن الكتـاب، أو عـن مكتبـة من المكتبـات ـــ كمكتبـة الإسكندرية أو مكتبة برغام ـ طالما أنهم كانوا يعرفون جيدا أهمية هذه المكتبات. ومن الواضح أن الكتّـاب في ذلك الوقت كانوا يعتبرون هـذه الموضوعات غير مثيرة أو غير مهمة. أما الكتّـاب الرومانيون فقد كانـوا يكتبون أكثر عن الكتب، عن ورق البردي والرق، عن بيع الكتب وعن بـائعي الكتب، عن أسلوب توزيع الكتـاب إلخ. وقد ألف مـارك فارون، الـذي كلفه يوليـوس قيصر بتأسيس أول مكتبـة عامـة في روما، كتـابا خـاصا عن المكتبـات (De bibliothecis) إلا أنـه فقد لـلأسف ولم يصلنـا. وباستثناء فارون، الذي تولى بهمة كبيرة المهمة التي كلفه بها يوليوس قيصر، فإن بقية الكتّاب اكتفوا غـالبا بتقديم بعض المعطيات، التي تتعلق بهم بشكل مـا، أو بذكر بعض الحقـائق والحوادث التي لها علاقـة بالكتب التي كـانت تبدو لهم مثيرة وقيمـة حتى تستحق أن يشـار إليهـا. وبعبـارة أخـرى لا تـوجـد لـدينـا نصـوص تتضمن مناقشات منظمة بل مجرد معطيات متفـرقة وغير مترابطة. إلا أننا اليوم، حين نجمع في موضع واحد كل هذه المعطيات المتفرقة في أعمال كثير من الكتّاب، يمكن لنا أن نتصور ثانية مسيرة الكتاب من لحظة ولادته إلى لحظـة وصوله ليد القارىء، وأن نتابع مصيره بعد ذلك.

وسنحـاول هنـا بـاختصـار أن نتعـرف على هـذه الجوانب الأسـاسيـة من مسيرة الكتاب.

أ ـ القـراءة العلنـية

ذكرنا ســابقا أن القراءة العلنية والإلقـاء كانت من الأمور المحببـة إلى اليونانيين في

العصر القديم. وفي العهد الهلنستي ترسخ أكثر مع تزايد مكانة الكلمة المكتوبة حتى أن مناسبات القراءة العلنية ستتزايد كثيرا في مكتبة الإسكندرية.

لقد انتقل هذا التقليد إلى روما، حسب ل. سنيكا، بفضل بوليون، ذلك المثقف الذي تولى مهمة تأسيس أول مكتبة عامة في روما. وهكذا في النصف الثاني للقرن الأول ق.م، أي في الوقت الذي كانت فيه غالبية السكان في روما عاجزة عن امتلاك كتاب، نجد أن هاتين المبادرتين الخلاقتين لـ بوليون ـ المكتبة العامة والقراءة العلنية ــ كانت لها أهمية ثورية حقيقية بالنسبة إلى مد الصلات بين الكتّاب ومستمعيهم، وبالتحديد قراؤهم.

وقد أصبحت القراءة العلنية لاحقا، في عهد الإمبراطور أوغسطس بشكل خاص، منتشرة جدا حتى أنها بالنسبة للكثير من الرومانيين كانت بالتأكيد الوسيلة الوحيدة للتعرف على بعض الأعمال الأدبية، بل هي الوسيلة التي تحكم بشكل مباشر على مصير كتاب ما من خلال تأييده أو نبذه.

وفي الواقع لقد كان من الشائع أن يقوم الكاتب نفسه، أو من يكلفه بذلك عوضا عنه، بقراءة كتابه أمام أصدقائه في بيوتهم الخاصة أو في بيوت هواة الكتاب وأصحاب النفوذ. وفي كل بيت من بيوت الأغنياء كان هناك لهذه المناسبات أشخاص متدربون على الإلقاء الجيد (lectores أو recitatores) يقومون بقراءة الأعمال الأدبية وغيرها على الضيوف. ويذكر لنا مثلا بلين أنه خلال العشاء الذي أقامه على شرف ضيوفه قام هؤلاء المتدربون على الإلقاء بقراءة الأشعار والخطب والنصوص التاريخية. ومن المعروف أن الشاعر فيرجيل قد قام بإلقاء مقاطع من ملحمة «الإنيادة» أمام الإمبراطور أغسطس وأصدقائه. وقد كان لهذا النوع من الإلقاء أهمية كبيرة في نشر المعلومات الأولى عن كتاب جديد، أدبي أو علمي، لأن بيوت الأغنياء كانت كثيراً ماتجمع العلماء والشعراء والفلاسفة.

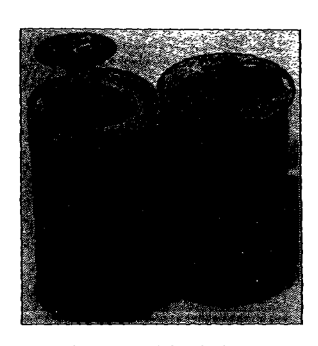
وخلال هذه اللقاءات أو السهرات المختلفة كانت تُسرد أخبار المؤلفات الجديدة وتناقش النصوص المسموعة . ومن المؤكد أنه بالنسبة إلى الغالبية فقد كانت هذه هي



لوحة تخيلية تمثل أحد اقسام مكتبة الاسكندرية

الفرصة الوحيدة لسماع أشعار الشعراء الكبار، والوسيلة الوحيدة للتعرف على مايجرى في الحقل الأدبي والعلمي.

لقد كانت عادة الإلقاء شائعة جدا في الأمكنة العامة أيضا. فالكاتب الذي يود أن يعرّف جمهوره على آخر ماكتبه كان يمكنه أن يخرج بنفسه وأن يلقي قصائده على الجمهور، أو كان يمكن أن يترك ذلك لمحترفي الإلقاء. وفي عهد الإمبراطورية الرومانية، كما يقول بلين، ارتفع عدد الشعراء الذين يلقون أشعارهم في الأمكنة العامة إلى حد أنه لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ أحدهم أشعاره في مكان عام. ونظرا



محبرة من سيكوليا بطول ٩ ,٤ سم (متحف الآثار في سبليت)

لأن عـدد الشعـراء السيئين في العـالم كان دائما يفوق عـدد الشعراء الجيدين فقد كان محترفو الإلقـاء يثيرون انزعاج الجمهـور أكثـر مما يثيرون ارتيـاحـه. ولهذا فقد وجد الجمهور علاجا شافيا لهذا إذ أنه كان يقاطع تلك المناسبات التي يعرف مسبقا أنها تقدم شعرا سيئا أو نثرا باهتا. وقد ترك لنا بلين تصويرا رائعـا لهذا الجو السـائد في هـذه المناسبات في رسالة له، حيث يتشوق للماضي المجيد حين كـان الأباطـرة أنفسهم يشاركـون في هذه المنـاسبات:

«أما الآن فقد أصبح من الواجب دعوة أسـوأ المشردين للحضور في الوقت المناسب، ومع ذلك لايأتون و إذا جاؤوا فهم يشتكون من إضاعة الوقت «ومن الطبيعي أن هؤلاء حتى عنـدما يأتـون فهم لا ينصتـون باهتمام: «غـالبيـة المدعوين يقفـون في الخارج ويقضون وقتهـم في الحديث. ومن حين إلى آخر يتسـاءلون عما إذا وصل الـذي يقوم بالإلقـاء، أو عما إذا قرأ المقـدمة أو عما إذا انتهى مـن قراءة معظم الكتـاب. وحينئذ فقط يدخلون ولكنهم لايجلسون بأدب. وحتى في الداخل لايبقون طويلا بل يخرجون قبل الانتهـــاء، البعـض يخرج متسلـــلا بنـــوع من الحرج والبعـض الآخـــر قبل الآخرين».

كانت ردة الفعل في هـذه المناسبات تقـرر نجاح أو فشل الكتـاب وتدفع المؤلف والناشر إلى تقـرير مصير الكتاب (نشر الكتـاب وعدد النسخ). فقـد كانت الكتب التي تحظى بنجاح في القراءات العلنية تبشر بنجاح آخر لدى القراء اللاحقين مما كان يدفـع الناشرين إلى نشر أمثـال هذه الكتب دون الشعـور بالمخـاطرة. ومن هنـا فقد كـانت القـراءة العلنيـة تمارس دورا مهما في حيـاة الكتـاب، إذ أنها يمكن أن تسجل

نجاحا رائعا للكتاب كما يمكن أن تسجل نهاية كل طموحات المؤلف.

ب ـ الكتّاب والناشرون

كان الكتّاب الأغنياء يحتفظون في بيوتهم بنسّاخ محترفين ولـذلك فقد كانوا يقومون بنسخ كتبهم وتوزيعها على الأصدقاء أو بيعها في السوق. ومع مرور الزمن برز للقيام بهذا العمل وسطاء ـ ناشرون أخذوا يتولون كل مايتعلق بإصدار الكتاب والترويج له وتوزيعه، وقد كـان هؤلاء يغطون دائما مصاريف إصدار الكتاب بـالإضافة إلى تأمين ربح من الكتب التي كانوا يصدرونها ويبيعونها.

كـان المؤلف نفسه يمكـن أن يقوم بـدور النـاشر حين كان الطلب على الكتـاب لايزال محدودا، وحين كان يمكنـه بمساعدة عبيده أو عبيد أصـدقائه أن ينسخ عددا من النسخ لكتـابـه. ولكـن حين زاد الطلب على الكتـاب لم يعـد في الإمكـان تلبيـة الطلبات المتزايدة بهذا الأسلوب، مما حتّم بروز النـاشرين الذين يتولون مهمة إصدار الكتاب وتـوزيعه. وهكذا ليس من المصادفـة أن يرتبط ظهور النـاشرين في روما مع تزايد الطلب على الكتاب في نهاية العهد الإمبراطـوري. فقد أدى توسع الإمبراطورية الرومانيـة والحاجة إلى وصول الكتاب إلى المدن البعيدة لهذه الإمبراطـورية إلى أن يتولى أحدهم إنجـاز الأعمال التي لم يعد المؤلف قـادرا على إنجازهـا وحده. ومن هنـا فقد أصبح النـاشر يمارس بشكل متزايد دور الحلقـة التي تربـط مابين المؤلف من نـاحية والسوق من ناحية أخرى.

كان الناشرون ينظمون بأنفسهم ورش النسخ. وفي اليـونان كما في روما لاحقا فقد كان معظم النسّاخ من اليـونانيين. وقد كان هؤلاء خطاطون متـدربون بشكل خاص أقبلـوا على تعلم مهنتهم منـذ طفولتهـم. ونظرا للسرعـة في النسخ أو الإمـلاء، التي كانت محددة بشكل صارم، فقد كـانت تبرز أخطاء كثيرة تثير نقمة الكتّاب والقراء. وقد لجأ النـاشرون إلى استخدام المصححين لتلافي بعض الأخطاء. ولكن بـالاستناد إلى تذمر الكتـاب القدماء من هؤلاء المصححين يبدو أن النـاشرين لم يقوموا بعملهم كما يجب. ولهذا السبب فقد تمتع بعض الناشرين، الـذين كانوا يصدرون كتبهم دون

أخطاء أو بأخطاء بسيطة، بتقدير كبير مع أن عددهم على الأرجح كان قليلا جدا. وهكذا نجد أن شيشرون نفسه يحتج على الأخطاء الكثيرة التي يجدها في كتبه ولذلك يكتب بغضب: «لا أعرف لمن أتوجه بالاحتجاج فيما يتعلق بالكتب اللاتينية إذ أنها تُنسخ وتباع بشكل مشوه».

أما في القرن الأول الميلادي فنجد أن الجغرافي اليوناني المعروف سترابون يذكر، بعد أن يصل إلى روما أن الناشرين سواء في روما أو الإسكندرية يحتفظون بنساخ غير أكفاء ولا يحرصون أبدا على دقة النسخ. ومن الواضح أن الوضع في هذا الاتجاه لم يتغير حتى في القرون اللاحقة، بحيث أن ايرنون من القرن الثاني الميلادي يثير أيضا مسألة قلة الضمير عند النساخ، ويضيف في نهاية أحد مؤلفاته ملاحظة موجهة إلى هؤلاء النساخ: «باسم المسيح. أرجوك يانا سخ هذا الكتاب أن تقارن المخطوطة المنسوخة بحرص وأن تطابقها مع الأصل الذي نسخت عنه».

ولأجل هذا فقد كان الناشرون الحريصون على دقة النسخ يتمتعون بالاحترام. ومن هؤلاء حاز تيت بومبون آتيك، وهو أول ناشر روماني نعرفه باسمه، على تقدير خاص. وقد حاز آتيك على لقبه هذا نظرا لإقامته الطويلة في أثينا، حيث نال ثقافة واسعة ساعدته على أن ينجز عمله كناشر بأفضل وجه. وقد استفاد من ثروته الكبيرة في تأسيس مكتبة خاصة له، كان يستفيد منها صديقه شيشرون. وقد كانت له في محلة كورينال في روما ورشة للنسخ منظمة بشكل ممتاز ومزودة بالنساخ والمصححين المختارين. وفي الواقع لقد كسب أتيك شهرته من إصداره لكتب كثيرة من تأليف شيشرون وغيره من الكتاب اليونانيين والرومانيين ومن رسائله التي كان يرسلها إلى شيشرون يمكن لنا أن نتصور العلاقة بين كاتب معروف كشيشرون وبين ناشر كتبه. وهكذا يتضح أن شيشرون كان يترك لناشر كتبه أن يتولى إصدار الكتاب، وبالتحديد الترويج له وبيعه. ففي أحد رسائله إلى أتيك يكتب شيشرون قائلا: «لقد بعث بشكل ممتاز خطبتي في الدفاع عن ليغار وسأترك لك في المستقبل مهمة ترويج وتسويق كتبي القادمة».

وحسب التقليد المتعارف عليه حينئذ فقد كان أتيك يحرص على أن يترجم مع المؤلف المخطوطة، وأن يقدم الكتاب قبل أو بعد صدوره للقراءة العلنية، وأن يهدي بعض النسخ من الكتاب إلى أصحاب التأثير والنفوذ. وقد كان آتيك ينجز عمله بإتقان حتى أنه أصبح أول وأكبر ناشر روماني وأفضل نموذج للناشرين في روما لاحقا.

ومن هؤلاء الناشرين الذين برزوا لاحقا اشتهر بشكل خاص الأخوة سوس اللذين اشتهرا بإصدار أشعار هوراس، ثم الناشر تريفون الذي أصدر في نهاية القرن الأول الميلادي أشعار مارسيال الهجائية. وقد لاحق هذا الناشر بإلحاح الكاتب مارك فابيو كوينتيليان لكي ينجز كتابه «تعليم الخطابة» إلى أن أتمه أخيرا وسلمه له.

وفي هذا الكتاب ترك المؤلف رسالته إلى الناشر حيث يعترف أو كان يعتقد أن الكتاب لم ينضج تماما للنشر ثم يضيف أخيرا: «إذا كان الطلب على الكتاب كبيرا إلى هذا الحد كما تؤكد أنت فليس لنا إلا أن نرفع الأشرعة ونتمنى للسفينة أفضل رغباتنا. ولكن بإخلاصك ونشاطك سيصل الكتاب إلى أيدي القراء بأقل قدر من الأخطاء».

وهكذا يتضح هنا بعض التفاصيل عن العلاقة التي كانت تربط بين الكاتب والناشر: الناشر يحض الكاتب على تسليمه للكتاب، والكاتب يهمه أن يصدر كتابه على أفضل وجه.

وقد كان يحدث أحيانا أن يصدر كتاب ما دون رغبة أو معرفة المؤلف. وقد حدث هذا مثلا لشيشرون. فقد كتب رسالته إلى الناشر آتيك يشتكي فيها من أن إحدى خطبه قد وصلت إلى أيدي القراء دون علمه.

وقد تكررت هذه الحالة مع كثير من الكتّاب الذين يكشفون لنا في احتجاجاتهم عن وجود عدد كبير من المتنفعين والمستغلين الناشرين غير الشرعيين، الذين كانوا يستغلون الطلب الكبير على أعمال الكتّاب المعروفين فيعمدون إلى نسخ هذه الأعمال بسرعة وبشكل سيء ثم طرحها في الأسواق. وفي الواقع لم يكن الكتّاب يحتجون على هذا لشعورهم بالغنى، إذ أنهم كانوا نادرا ما يأخذون تعويضات مادية من

الناشرين، بل كانوا يتضايقون لمستوى النسخ السيء بالذات.

ج ـ الحد الأعلى لعدد النسخ

من الصعب علينا أن نكوّن صورة واضحة، بالاستناد إلى الأخبار المتفرقة وغير المترابطة التي نجدها في مؤلفات الكتّاب القدامى، عن الحد الأعلى لعدد النسخ عن كتاب ما، وربما من الأصعب بالاستناد إلى هذه المعطيات أن نعرف عدد النسخ التي صدرت لكتاب ما خلال وقت محددة.

وقد رأينا سابقا كيف أنه في عملية النسخ كان يشارك النساخ المحترفون والأفراد وحتى الناشرين غير الشرعيين، مما يجعل من الصعب تكوين صورة تقريبية عن عدد النسخ التي قدمت للسوق خلال وقت محدد. وقد كان الناشرون بأنفسهم يحرصون على معرفة الوضع في السوق قبل أن يقرروا إصدار كتاب ما نظرا لارتفاع سعر المواد وارتفاع أجرة اليد العاملة، ولذلك كانوا يصدرون من الكتاب عددا من النسخ التي حاولوا التأكد مسبقا من بيعها خلال وقت قصير نسبيا. وخلال العصر الهلنستي والقرون الأولى للإمبراطورية الرومانية، حين كانت شبكة توزيع الكتاب منظمة بشكل جيد وكان الطلب على الكتاب كبيرا نسبيا، كان يمكن للناشر أن يعتمد في حساباته على بيع عدة مئات من النسخ لكتاب مؤلف معروف. ويعتقد هنا أن كتب أمثال هؤلاء المؤلفين كانت تصدر في حوالي ٥٠٠ نسخة، بينما كانت تصدر كتب أشهر المؤلفين في حوالي ألف نسخة. ونجد لدى بلين معلومة تذكر هذا العدد بالذات، أي ألف نسخة. وقد كان الأمر هنا يتعلق بأحد الأغنياء الرومانيين الذي كتب بنفسه سيرة ابنه المتوفي ثم أصدرها على نفقته ووزعها على شخصيات مختلفة في روما وبقية أرجاء الإمبراطورية. وفي الواقع أن بلين ينتقد هذا التصرف للأب لأنه يعتقد أن ليس من المناسب أن يطبع كتاب من هذا النوع في هذا العدد الكبير من النسخ.

ومن بيع الكتاب كان الناشر يقرر هل سيستمر في إصدار نسخ إضافية من الكتاب أم لا، أي أن الإصدار الأول يمكن أن يزداد إذا كان هناك في السوق طلب على الكتاب.

د ـ باعة الكتب وتوزيع الكتاب

حين ينتهي النساخون من عملهم، وحين يجلد الكتاب ويجهز للبيع، يحرص الناشر حينئذ على أن يصل كتابه إلى أيدي القراء. وكان الناشر يوزع قسما من النسخ كهدايا ويرسل القسم الأكبر إلى البيع. وكان الناشر يقوم أحيانا ببيع الكتاب بنفسه، إلا أنه غالبا ماكان يترك ذلك إلى باعة الكتاب. وفي الحقيقة فقد كان هناك نوع من التداخل بين عمل الناشرين وعمل باعة الكتب خلال العصر القديم كله.

وقد مر معنا على كل حال كيف أنه منذ القرن الخامس ق.م برز في أثينا باعة الكتب الذين أقاموا دكاكينهم في ساحة المدينة (الأغورا). وفي الواقع لقد كان دور هؤلاء في ذلك الوقت أكبر بكثير من دورهم في الأوقات اللاحقة لأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك أماكن أخرى يمكن الحصول منها على كتاب أو التزود بمعلومات عن كتاب ما. ومع ذلك لم يكن عدد باعة الكتب كبيرا في اليونان الكلاسيكية، بينما من الصعب أن نتحدث عن وجود شبكة منظمة لتوزيع الكتاب حتى القرن الرابع ق.م ففي ذلك الحين برز باعة الكتب في بقية المراكز الثقافية كرودوس وغيرها. وفي ذلك الوقت أيضا برز في المدن اليونانية باعة الكتب المتجولين، الذين كانوا يحملون بضاعتهم إلى عدد متزايد من المشترين. وقد تضخم أخيراً دور باعة الكتب كوسطاء بين الناشرين ــ الناسخين وبين المشترين في العصر الهلنستي نظرا لتوسع سوق الكتاب في الكثير من المراكز الثقافية التي تطورت بعد موت الإسكندر المقدوني. وقد زاد كثيرا الطلب على الكتاب نتيجة لتأسيس المكتبات الكبرى في الإسكندرية وبرغام وأنطاكية وغيرها من مدن العصر الهلنستي، ثم نتيجة لازدياد الاهتمام بالكلمة المكتوبة في كل العالم اليوناني. وقد أصبحت الإسكندرية بالذات في العصر الهلنستي أكبر سوق للكتاب. وقد كان هذا في الواقع نتيجة لطموح البطالمة في أن يجعلوا منها المركز الثقافي للعالم اليوناني، ونظرا لوجودها في دلتا النيل حيث كان ينمو البردي مما كان يجعل في الإمكان أن تتزود ورش النسخ في أي وقت بكميات غير محدودة من ورق البردي، الشيء الذي لم يكن متوفرا في أي مركز آخر في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد بقيت الإسكندرية أكبر منتج وسوق للكتاب حتى بعد أن أصبحت

في إطار الإمبراطورية الرومانية، حيث ستنافس بنجاح روما مدة من الوقت.

أما فيما يتعلق بروما فليست لدينا معطيات وافية عن أصحاب المكتبات حتى نهاية العصر الجمهوري، حين تردنا أول الأخبار عن باعة الكتب وعن دكاكينهم في روما. وقد كان يطلق على هؤلاء في اليونانية bibliopola بينما أطلق عليهم الرومانيون اسم Librarii وقد كان بومبون آتيك أول من نعرفه من أولئك الذين كانوا يتعاملون ببيع الكتاب، بالإضافة إلى نشاطه في النشر.

وفي الواقع لقد استمر هذا التداخل بين نشر الكتب وبيع الكتب إلى وقت لاحق. ولكن في روما نفسها كان هناك الكثير من باعة الكتب المحترفين الذين كانوا يقيمون دكاكينهم (taberna libraria) في أكثر المناطق ازدحاما في المدينة.

وقد ذكر الكتّاب الرومانيون وجود باعة الكتب في عدة أماكن من المدينة كما في الساحة الرومانية ثم في ساحة قيصر وساحة فسبازيان القريبتين وغيرها. وكما في أثينا فقد كان المثقفون يجتمعون أيضا في روما حول هذه الدكاكين للاهتمام بالكتب الجديدة، وللتحدث عن الأمور الجديدة في سوق الكتب، والاستماع إلى إلقاء الشعراء وغيرهم من الكتاب الذين كانوا يروجون بهذا الشكل كتبهم الجديدة. وقد كان باعة الكتاب يجعلون واجهة دكاكينهم باتجاه الشارع، أي كبقية الدكاكين. ولكي يلفتوا انتباه المارة فقد كان باعة الكتب يعلقون إعلانات تتضمن قوائم الكتب المتوفرة للبيع، كما كانوا يعرضون على طاولة أمام الدكان الكتب بحيث يراها المارة المشترون المحتملون. ولم يكن باعة الكتب يقصّرون في ملاحقة الزبائن عن جيرانهم باعة الفواكه والقماش إلخ.

وقد توسعت شبكة بيع الكتب مع توسع الدولة الرومانية بحيث أنه في نهاية العصر الجمهوري أصبح يمكن شراء مؤلفات الكتّاب المعروفين في أقصى المقاطعات النائية. وإلى جانب المراكز الثقافية اليونانية القديمة في حوض البحر الأبيض المتوسط فقد برزت مراكز جديدة في بلاد الغال وبلاد الاليريين Iliria(*) وغيرها، حيث ساهمت هذه في تنشيط عمل الناشرين وباعة الكتب ـ سواء في روما أو في المناطق

(*) الأليريون: هم سكان البلقان القدامى وأجداد الألبانيين الحاليين. (المترجم).

ذاتها ـ نتيجة لطلبياتها من الكتب. ونظرا لهذا فقد أصبح في الإمكان شراء الكتب في اللغة اليونانية واللاتينية في كل أرجاء الدولة الرومانية. هكذا، على سبيل المثال، نجد أن بلين يتعجب في رسالة إلى صديقه غمين كيف أن كتبه تباع حتى في مدينة لودغونوم (ليون الحالية) في بلاد الغال: «لم أصدق أنه توجد دكاكين لبيع الكتب في لودغونوم، وسررت أكثر حين عرفت في رسالتك أن كتبي تباع هناك أيضا. ويسرني أن كتبي لها شعبية هناك في روما». أما الكتّاب الآخرون فلا يستغربون أبدا لكون كتبهم تباع في أقصى المناطق بل أنهم يعتبرون هذه حقيقة مفهومة في حد ذاتها، ولايخفون أحيانا افتخارهم بهذا. وهكذا نجد مثلا أن أوفيد الغاضب والمهان بسبب قرار الإمبراطور أوغسطس بنفيه إلى مدينة توما البعيدة على البحر الأسود، يؤكد بافتخار لروما وللقيصر بأن شعره على الرغم من ذلك سيسمع صداه في كل العالم من الشرق إلى الغرب.

ويتفاخر أيضا هوراس ومارسيال وغيرهم بأن كتبهم تقرأ في كل أرجاء الإمبراطورية. وفي الواقع أن هذا ليس مجرد تفاخر فارغ بل أنه تعبير عن الوضع السائد فيما يتعلق بشبكة توزيع الكتاب. ففي عهد الإمبراطورية الرومانية كانت هذه الشبكة منظمة إلى حد أن الكتاب، كأية سلعة أخرى، كان ينتقل بسرعة ويصل إلى كل أرجاء الإمبراطورية الواسعة.

وقد بقيت شبكة توزيع الكتاب تقوم بعملها على نحو رائع إلى أن أخذت الهجمات البربرية والمصاعب السياسية الأخرى تهز الحياة الاقتصادية والثقافية للإمبراطورية، وإلى أن أخذت الطرق ـ شرايين الإمبراطورية الرومانية ـ تصبح غير سالكة أو غير آمنة.

وفي الواقع لقد انعكست الأزمة التي غطت الإمبراطورية، وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي، على عمل شبكة توزيع الكتاب أيضا.

وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الكتاب يشق طريقه إلى القراء حتى في تلك الأيام الصعبة في أواخر عهد الإمبراطورية الرومانية. وكمثال على ذلك نذكر هنا كتابات القديس يورينيم وغيره من الكتّاب المسيحيين، التي تمكنت بفضل الدعاة

المتحمسين للمسيحية أن تصل إلى القراء في أقصى الأماكن.

هـ ـ ثمن الكتاب

حاول الباحثون في أيامنا أن يجيبوا على السؤال فيما إذا كانت الكتب رخيصة أم غالية في العصر اليوناني والروماني، إلا أن أجابتهم لم تكن شافية.

وفي الواقع لقد ذكر لنا كتّاب العصر الوسيط في أماكن متفرقة ثمن هذا أو ذلك الكتاب، وتحدثوا بمفاهيم ذلك العصر عن كون الكتب رخيصة أو غالية، إلا أن كل هذه المعطيات لا تكفينا لتكوين صورة واضحة عن ثمن الكتاب حتى في ذلك العصر الذي تعود إليه هذه المعطيات. وتبدأ الصعوبات هنا بمحاولة تحديد ثمن مواد الكتابة، أي ورق البردي والرق. وفيما يتعلق بثمن ورق البردي فلدينا معطيات لابأس بها منذ القرن الخامس ق.م، إلا أننا لانعرف فيما إذا كان هذا الثمن مناسبا للقدرة الشرائية لشرائح معينة من السكان.

أما بالنسبة للرق فالصعوبة تكون أكبر لدى تكوين صورة واضحة عن ثمنه لأنه كان يُصنع في البيوت ولأنه في بعض أطراف العالم اليوناني ـ الروماني كان يُباع بثمن أرخص من ورق البردي المستورد.

إلا أن هذا كان يتغير من وقت إلى وقت ومن عصر إلى عصر، أي أن ثمن الرق كان يرتبط بالزمان والمكان.

وبشكل عام يعتقد أن الكتاب لم يكن غاليا كثيرا لا في العصر اليوناني ولا في العصر الروماني. وفي الواقع فقد كان من يشتري الكتاب عادة هم أولئك الذين لايملكون الكثير من المال مما كان يحتم على باعة الكتب أن يأخذوا هذا بعين الاعتبار. ومن ناحية أخرى لم يكن للكتاب ثمن محدد بل كان يباع ككل سلعة أخرى بالاستناد إلى قوانين العرض والطلب. لهذا لاتوضح لنا الكثير تلك المعلومة التي ذكرها مارسيال عن أن كتابة «كسنيا» كان يباع بأربعة سسترسات(*) بينما كان يباع كتاب آخر له بخمسة دنانير. وهناك ملاحظات أخرى أكثر فائدة، أدلى بها بعض

(*) السترس Sestercius عملة رومانية قديمة ـ (المترجم).

الكتّاب، وتتعلق بالثمن المرتفع للمؤلفات القديمة للكتّاب المعروفين، وهو الثمن الذي يعتبر مرتفعا حسب القناعة العامة في ذلك الوقت. ومن المعروف أن كتب بعض الناشرين، كبومبون أتيك وغيره، كانت تُثَمّن عاليا.

وعلى الرغم من هذا، وبالاستناد إلى كل مانعرفه، يمكن القول إنه في العصر القديم كان غير الأغنياء قادرين على شراء الكتاب، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بكتاب متواضع دون تجليد فاخر ودون تزيين أو أي شيء آخر يرفع من ثمن الكتاب. وبعبارة أخرى لم يكن ثمن الكتاب في العصر القديم غالياً إلى حد أن يتحول إلى عقبة أمام انتشار الكلمة المكتوبة.

٤ ـ الكتب غير المرغوبة والتخلص منها

أ ـ الكتب غير المرغوبة في اليونان

بعد أن أخذ التفكير الحر يتطور في اليونان، وبعد أن أخذ الفلاسفة والكتاب الآخرون يتناولون الموضوعات الاجتماعية والفلسفية من جوانب مختلفة، وبعد أن انفصل الفكر عن خدمة العقيدة والسلطة (كما جرى في مصر وبلاد الرافدين) كان من المتوقع أن يدخل الكتّاب وكتبهم في صراع مع سلطات الدولة. وفي الواقع لقد برز هذا الصراع أولا في أثينا، أي في المدينة ـ الدولة الأكثر ديمقراطية في العالم اليوناني.

وقد سجل لنا القرن الخامس ق. م أول حادثة مصادرة كتاب وإحراقه. فقد ذكر لنا دوجين لاحقا في القرن الثالث الميلادي، وهذا ما يدفع البعض إلى الشك بحقيقة الأمر، أن كتابات الفيلسوف بروتاغورا (حوال ٤٨١ ــ ٤١١ق. م قد أحرقت بشكل علني في ساحة أثينا (الأغورا) سنة ٤١١ ق. م، بينما تعرض المؤلف نفسه إلى المحاكمة وحكم عليه بالنفي. وقد حدث هذا حينئذ لأن بروتاغورا قد شك في وجود الآلهة في كتابه «عن الآلهة». وكان بروتاغورا قد بدأ مؤلفه بالجملة المشهورة التي أثارت غضب مواطنيه: «بالنسبة للآلهة لا أستطيع أن أقطع بوجودهم أو عدم وجودهم. . »ومع أن بروتاغورا قد عبر عن مجرد شك في وجود الآلهة، أي دون أن

يؤكد هذا الشك بشكل قاطع، إلا أن هذا كان كافيا بالنسبة لسكان أثينا لكي يصفّوا الحساب معه ومع كتابه بشكل عنيف.

وفي الواقع أن هذه الحادثة تبدو مثيرة لعدة أسباب. فمع هذه الحادثة تبدأ سلسلة طويلة من حوادث مصادرة وإحراق الكتب، تلك التي ستصبح جزءا لايتجزأ من تاريخ الكتاب منذ أقدم الأزمان وحتى هذه الأيام. ويلاحظ هنا أن هذه الحادثة وقعت في لحظة أزمة، وبالتحديد خلال حرب البيلوبنيز، وسيثبت التاريخ لاحقا أن إحراق الكتب وملاحقة الكتَّاب يتم غالبا في أوقات الأزمات حين تصبح السلطات حساسة جدا من الأفكار «المعادية» للدولة. وبغض النظر عن أن السلطات الرسمية أو الدينية يمكن أن تخلق وضعا متأزما لتبرير حساسيتها إزاء الأفكار «الخطرة» على الدولة، لايمكن أن ننفي وجود الصلة المتبادلة بين الأزمات الاجتماعية ــ سواء كانت حقيقية أم مفتعلة ــ وبين إحراق الكتب وملاحقة الكتاب.

وهناك تفصيل مهم آخر يجعل من هذه الحادثة كإحراق كتاب بروتاغورا، عبرة لمن يريد أن يعتبر. فعلى الرغم من إحراق كافة نسخ هذا الكتاب التي وجدت حينئذ في أثينا إلا أن هذا الكتاب بقي يقرأ في العهود اللاحقة.

وربما يعود هذا إلى أن سلطة أثينا لم تكن تشمل المدن اليونانية الأخرى، حيث كانت توجد نسخ من هذا الكتاب أو أن الكتاب بقي ينسخ هناك، أو ربما قام أحدهم في أثينا بالذات بإخفاء الكتاب والحفاظ عليه نظرا للمصير المفاجىء الذي تعرض له المؤلف. وعلى كل حال سيثبت لنا التاريخ مدى ميل الناس الغريزي للاحتفاظ بالكتب الممنوعة بالذات.

ومن ناحية أخرى كان يحدث أحيانا أن يحتفظ أولئك الذين يحرقون الكتاب بنسخ منه على سبيل «التوثيق».

ومع كل هذا لابد من القول أن ماحدث لكتاب بروتاغورا كان شيئا نادرا في اليونان، بل شيئا استثنائيا. ففي ذروة ازدهارهم الثقافي كان اليونانيون ليبراليين

للغاية إزاء أفكار فلاسفتهم وأدبائهم، وهذا هو أحد الأسباب في أن الثقافة اليونانية أثمرت أنظمة فلسفية مختلفة و إنجازات خصبة في الأدب والعلم. فالأفكار التي كان يخرج بها الفلاسفة والكتّاب اليونانيون، وحتى حين كانت تهدد بالفعل القيم السائدة في المجتمع، لم تكن تلاحَق كما قد يتوقع المرء باستثناء بعض الحالات النادرة. ومن بين هذه لدينا حالة فيلسوف أثينا المعروف سقراط، الذي أتهم بأنه «لايعتقد في الآلهة التي تؤمن الدولة بها و يفسد الشباب»، مما اضطره أخيرا إلى شرب السم.

وعلى الرغم من هذا التسامح فقد ولدت لأول مرة في اليونان بالذات الفكرة القائلة بالحاجة إلى ممارسة الدولة للرقابة. وفي الواقع لم تكن وراء هذه الفكرة ايديولوجي متزمت أو مسؤول براغماتيكي بل أحد الفلاسفة. ففي كتابه «الدولة» يبلور الفيلسوف الكبير أفلاطون هذه الفكرة ويدعو إلى تطهير بعض أعمال الشعراء في تلك المواضع التي لا تساعد على نمو الشباب الأصحاء في الأجسام والأذهان، أو التي تثير لدى مواطني دولته المثالية بعض الأفكار التي تتعارض مع المبادىء الأخلاقية لهذه الدولة. ومن بين هذه الأعمال التي يجب أن تطهر، حسب رأي أفلاطون، نجد ملاحم هومير والمسرحيات اليونانية.

ب ـ ملاحقة الكتاب في الدولة الرومانية

لم يكن الوضع في روما كما في أثينا إذ أن الكتّاب كانوا يعاملون هنا بعنف أشد. فقد كان يحكم بالإعدام أو بالنفي على كل كاتب يتجرأ على السخرية من ممثلي السلطة أو على التشكيك بالمبادىء الأساسية الاجتماعية ـ الأخلاقية التي تقوم عليها الدولة الرومانية.

وهكذا فقد كان من المستحيل في عهد الإمبراطورية التوقيع باسم صريح على الأعمال التي تتضمن الهجاء السياسي، خاصة إذا كان العمل يتعرض للإمبراطور أو إلى أفراد أسرته، إذ أن مجرد التلميح للسلطة الإمبراطورية كان يقود مؤلفه إلى الموت أو النفي في أحسن حال. وقد كان من الطبيعي أن يحدث هذا في الدولة التي تتمركز فيها كل السلطة في يد شخص الإمبراطور، والتي يقوم فيها الانتهازيون والمهرجون بالتأكيد على عصمة الإمبراطور من الخطأ، وعلى إقناعه بأنه لم يعد من الأشخاص بل

من الأرباب حتى أنهم يبنـون له المعابـد وهو على قيد الحيـاة. ولم يمض وقت طويل حتى أخـذ الأباطـرة أنفسهم يؤمنـون بهذه الأمور ويتصرفـون كأنهم أرباب على وجـه الأرض.

إن مصير الخطيب المعروف تيتوس لابينـوس في عهد الإمبراطور أوغسطس أفضل مثال لعـاقبة التعرض بالنقـد لهؤلاء الأرباب أو للتشكيك في قناعات هـؤلاء الأرباب ومعاونيهم. فقـد كان لابينوس من أنصـار بومبي ولم يكن يخفي اتجاهـه السياسي في خطبه وكتابـاته. إلا أن المسكين لم يدرك أن عهد الجمهوريـة قد انقضى، حيث كان الخطباء يعبّرون بحـرية عن أفكارهـم السيـاسية ولذلك فقـد انقض عليه كالصـاعقة قرار مجلس الشيـوخ بحرق كتبه بشكل علني في رومـا. ونظرا لأنه لجأ للانتحـار بعد هذا القرار فقد أصبح لابينوس أول روماني يدفع رأسه ثمنا لما كتبه.

كان الرومانيون غير معتادين بعد على مثل هذه الأمور ولذلك اتسمت ردة فعلهم بـالغضب. أما الكـاتب سنيكا فقـد كتب عن هذا وتنبأ بنـوع من التشفي بأن ذلك الذي رفع قـرار الاتهام ضد لابينوس، وهـو أحد الرومـانيين المجهولين بالنسبـة لنا، سيتعرض إلى نفس المصير وهو الشيء الذي حصل له فعلا.

وكــان الإمبراطـور أوغسطس نفســه يحب الأدب ويحترم الفن كثيرا، ويــرغب بمصاحبـة الكتاب والاستماع إلى أعمالهم ومناقشتهم، إلا أنه أنهى عهـد التسامح في الدولة الـرومانية ببعض قراراتـه التي تتعلق بمفهومه عما هو جيـد، وماهو سيء لهذه الدولة. وهكـذا فقد كان مصير لابنيوس، ثم مصير الخطيب كاسيـوس سيفر الذي أحرقت كتبه وحكـم عليه بالنفي وغيره من الكتاب، يصـور لنا مدى التغيرات التي طرأت على تفكير الأباطرة فيما يتعلق بالمجال المسموح للكتّاب لكي لايمسوا استقرار الدولة.

وكان الإمبراطور أوغسطـس أيضا أول من حارب أدب الإثارة الجنسيـة لأنه كان يرى في هـذا الأدب أحد أسبـاب الانحدار الخلقي في المجتمـع الروماني. ولابـد من الاعتراف بأنه كانت لـديه مايكفي من الأسباب لحسـاسيته من الانحدار الخلقي في

قمة المجتمع الروماني، حيث إنه لم يسلم من هـذا حتى أقرب أفراد أسرته. وهكذا في كفـاحه ضـد الانحـدار الأخـلاقي أمر الامبراطـور أوغسطس بسحب أدب الإثـارة الجنسية من المكتبات العامة. وبعبـارة أخرى، إن الإمبراطور أوغسطس لم يأمر بمنع قراءة هـذا الأدب لأنه ذكيا بما فيـه الكفاية ليعـرف أنه لايمكن أن يطبق أمـر من هذا النوع.

وعلى كل حال فإن هـذا القرار مهم في مسار تـاريخ الكتاب إذ أنه على ما نعـرفه أول قرار ينص على سحب كتب من المكتبات العامة نظرا لأن سلطات الدولة تعتبرها خطرة على السلامة الروحية لمواطنيها.

إلا أن الإمبراطـور أوغسطس لم يكتف بمـلاحقـة الكتب فقط بل تحول أيضـا إلى ملاحقـة الكتّاب. وهكذا لم يـوفر أوغسطس حتى أوفيد العظيم، الـذي حكم عليه بأقسى مايمكن، بالنفي إلى مدينة توما البعيدة، لكي لايفكر بعد ذلك بتأليف كتب تفسد الشبيبة الرومانية. ولابـد هنا من الاعتراف أن أوغسطس حقق ما كان يريده إذ أن أوفيد تخلى عن كتابـة أدب الإثارة الجنسية وتحول إلى كتابة مؤلفـات شعرية تنبض بالألم على فقدانه للحياة الهنيئة في روما. وفقـد لفت النظر إليه مؤلف آخر من مؤلفي أدب الإثارة الجنسية، ألا وهـو كورنيل غال أحد كبار موظفي الـدولة في مصر وأحد أشهر شعـراء الحب في ذلك الوقت، وقـد أضطر هـو الآخر للانتحـار عندمـا صدر الأمر بتقديمه للمحاكمة.

ولكن هذه الحملـة ضد أدب الإثارة الجنسية كـانت عاجزة عن استئصال مـاهو موجود من هذا الأدب أو منع الكتّاب من كتـابة أدب من هذا النوع. وحتى في نهاية الإمبراطوريـة الرومانيـة، حين بدأ المسيحيون حملتهم ضـد هذا الأدب بحماس كبير، كان هناك الكثير ممن ينسخون ويقرأون هذا النوع من الأدب بشكل خفي.

وبهذا فقد أثبت هـذا النوع من الأدب مقـاومة كبيرة ومستمـرة للمنع والملاحقة، بحيث أن هذا الطابع الجنسي المثير لأعمال أوفيد وبترون وغيرهم هو الذي جعل هذه الأعمال تنجو من كل قرارات المنع وتصل إلى أيدينا أخيرا.

وفي الحقيقة أن هذا النوع من الأدب لم يضايق كثيرا الأباطرة اللاحقين، إلا أن هؤلاء كانوا مستعدين لملاحقة الكتّاب وكتبهم بحماس كبير فيما لو تجرأ هؤلاء على مس الدولة أو الإمبراطور أو الدين. وقد كان يكفي مجرد الشك بأن كتابا ما يتضمن مفاهيم سياسية غير مرغوبة لكي يقدم مؤلفه للمحاكمة. وقد حدث هذا للكاتب كرموس كوردا الذي مدح في أحد كتبه قتلة يوليوس قيصر باعتبارهم «آخر الرومانيين» ومع أن كوردا دافع عن كتابه أمام مجلس الشيوخ إلا أن المجلس حكم على الكتاب بالحرق العلني. وقد بقيت نسخة واحدة من الكتاب لدى ابنة المؤلف مما ساعد هذا لاحقا، في عهد الإمبراطور كاليغولا، على أن يصدر الكتاب ثانية.

وكان الإمبراطور كاليغولا (١٢ ـ ٤١م) قد بدأ حكمه بروح ليبرالية إذ أنه سمح بقراءة مؤلفات الكتّاب التي أدينت سابقا. إلا أنه في وقت لاحق، خاصة بعد أن أخذت تبدو عليه مظاهر الجنون، اتخذ قرارات تتعلق بسحب الكتب من المكتبات العامة وحتى تماثيل فيرجيل وتيت ليفي، بل إنه كان يفكر في التخلص من أعمال هومير.

إلا أن الحكم على كتاب ما بالحرق أو على مؤلف ما بالنفي كان يؤدي أحيانا إلى نتيجة عكسية. فحالة فابريتسي فيينتون تكشف لنا عن مغزى كبير، ويفوقها في ذلك التعليق الذي كتبه تاسيت عن هذه الحالة. فقد كان فيينتون، على مايرويه لنا تاسيت، قد مس في كتابه رجال الدين ورجال مجلس الشيوخ مما دفع الإمبراطور نيرون إلى نفيه من إيطاليا وإلى حرق كتبه بشكل علني. وفي هذه الحالة تصرف نيرون كحاكم عادي يملك من القوة ماتجعله يفعل مايعتقده مفيدا للحفاظ على هيبة رجال الدين ورجال مجلس الشيوخ. إلا أن نيرون لم يتصرف هنا كحاكم ذكي لأنه كان يجب أن يعرف أن أي تصرف من هذا النوع لايستطيع أن يمنع الناس من قراءة المؤلفات التي تدان، بل إنه على العكس يثير رغبة الناس لقراءة هذه المؤلفات. وما قد خفي على هذا الحاكم المتكبر كان واضحا للكاتب تاسيت، الذي أورد في تاريخه تعليقا ممتازا: «حين يصدر أمرا بإحراق كتاب فإن هذا الكتاب يصبح مرغوبا ومطلوبا خلال فترة منعه، بينما يسقط في النسيان بعد أن يسمح بقراءته» ومن الحالات

اللاحقة، وهي كثيرة على كل حـال، لابد أن نذكر واحدة منهـا نظرا للتفاصيل المثيرة التي ترتبط بها.

فقد ألف الكاتبان يونيوس أرولنـوس روستيكوس وهيرينوس سينيكيو عدة كتب دفعت الإمبراطـور دوميسيان (٥١ ـ ٩٦م) إلى أن يطردهما من رومـا وأن يأمر بحـرق كتبهـا بشكل علني في ساحـة المدينـة (الفـوروم). وقد أثـارت هـذه الحالة الكـاتب تـاسيت إلى أن يكتـب بغضب: «يعتقـدون أنهم بهذه النـار سيقضـــون على صـوت الشعب في رومـا وعلى حـريـــة مجلس الشيـوخ وعلى ضمير الجنس الإنسـاني». وكما يحدث كثيرا في التاريخ فقد وجـد في هذه الحالة أيضا من يـريد أن يكسب من شقاء الآخرين. وهكذا أراد أحد أصحاب النفوس المريضة، أكوليوس رغولوس أن يتقرب إلى الامبراطور دوميسيسان فشن هجـوما لايرحم ضد هذين الكـاتبين. ومع أن مقاله الهجومي لم يحفظ إلا أنه ليس من الصعب أن يتصور المرء مضمـونه أو لهجته لأن هذا المضمـون وهـذه اللهجـة، وحتى الكلمات ذاتها غـــالبـا، ستستخـدم دائما من قبل ضعاف النفوس للإساءة إلى معارضي أسيادهم.

وفي الفترة الأخيرة من حياة الإمبراطورية عايـش الكتاب لحظات صعبة بالفعل. ففي زمن الأزمـة العـامـة لـلإمبراطـوريـة الـرومـانيـة،، حيث خـرجت إلى السطح التناقضات الاجتماعيـة والإيدولوجية بكل قـوتها، أصبح إحراق الكتب، والمكتبات مظهرا عاديا من مظـاهر الحرب الدينية والسياسية. ففي البـداية كانت السلطة تحرق كتب المسيحيين، وعندمـا تسلم المسيحيون السلطـة أحرقوا الكتب الـوثنية وخـاصة كتب العقائد الهرطقية، التي غطت في ذلك الحين أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

ففي سنة ٣٠٣ م أصـدر الإمبراطور ديوكلسيـان مرسومـه الشهير ضد المسيحيين حيث أمر بإحراق كتبهم. وتؤكد الكثير من الأدلـة أن هذا الأمر قد نفذ في كل أرجاء الإمبراطورية ولكنه لم ينفذ دون مقارنة. فقد كان بعض الأساقفة يفضلون الذهاب إلى الموت على الاستسـلام لهذا المرسوم والسماح بإحـراق كتبهم المقـدسـة. وهكذا مثـلا تصرف الأسقف فيليكس بمدينة تيبيوكا في نوميـديا وغيره أيضا. ولدينا أسطورة تقول

أن الأسقف فوتدانـوس، من نوميديا أيضا، قـد حظي بحظ أفضل. فقد سلم هذا الأسقف الكتب المقدسة إلى ممثل السلطة لكي يحرقهـا وحين أراد هذا إلقائها في النار هطل المطر من السماء الصافية ليطفأ النار ولينقذ الكتب المقدسة.

وقد تصرف الكثير من الأسـاقفة على نحـو ما فعل فـوندانـوس، أي أنهم سلموا الكتب إلى ممثلي السلطـة، ولكن نظـرا إلى أن المطـر لم يهطل دائما لإطفـاء النـار فقـد تحولت الكثير من كتبهم إلى رماد.

الا أن الأدوار تغيرت بسرعة. فقد أخذ الأباطرة الذين اعتنقوا المسيحية في إصدار المراسيم بإحـراق الكتب الخطرة. وفي هـذه الحالة لم تعـد الكتب المسيحية مطلـوبة للحرق بل الكتب الهرطقية وأحيانا الكتب الوثنية.

وكان المسيحيـون في القرون الأولى للإمبراطوريـة الرومانيـة، حين كان عليهـم أن ينقذوا كتبهم وأحيـانا رؤوسهم، يواجهـون الكتاب الهرطقي والوثني بـالكلمة فقط، أي بالمقالات السجـالية. فقد كانـوا يوجهون هجومهم ضـد أولئك الذين يعتبرونهم أكثر خطرا من الناحيـة الأيديولوجية، أي الذين لم يكونوا في مـوقع المعارضة للسلطة والهرطقة. وفي الـواقع لم يكن الهراطقة، أعضـاء الطوائف الـدينية التي كـان يعتبرها المسيحيون هرطقية، بمنأى عن ملاحقـة السلطة. وهكذا فإن الإمبراطور ديوكلسيان كان قد أصدر سنة ٢٩٧ مرسـوما ضد المانويين نص على إحراق كتبهم وحتى إحراق زعيمهم الـروحي. وقـد زادت الأزمـة الاجتماعيـة من حدة العـلاقـات بين الأديـان المختلفة ثم مـلاحقات هـذه الأديان بـالسلطة من نـاحية أخـرى. وهكذا فإن الخط المتشدد للمسيحيين إزاء الهراطقة بعد عهد الإمبراطور قسطنطين، أي بعد أن تسلموا السلطة، كان مجرد استمرار لسياسة الدولـة إزاء الإديولوجيات الأخرى غير المرغوبة، التي كانت تزيد من ضعف الدولة الـرومانية. ففي القرنين الرابع والخامس الميلاديين أصدر الأباطرة عددا كبيرا من المرسيم ضد هذا المذهب الديني أو ذاك التي تنص على حرق كتب هـذه المذاهب الدينية. وقـد ركز المسيحيـون حربهم، التي أصبحت تتم الآن بـواسطة أجهـزة الدولـة، ضد الكتب التي كـانت تعارض التعـاليم الرسميـة

المسيحية (الأرثوزكسية)، بينما لم تعد كتب المؤلفين الوثنيين اليونانيين والرومانيين تتعرض لمثل هذه الملاحقة العنيفة.

وفي الواقع فقد طالب بعض الكتاب المسيحيين منذ القرن الثالث الميلادي بالتخلص من بعض مؤلفات التراث اليوناني ـ الروماني.

وقد كان الكاتب المعروف إيسوب، على سبيل المثال، يعتقد بضرورة التخلص من كل الكتب التي تتضمن موضوعات ميثولوجية. إلا أن هذا الاقتراح، كغيره من الاقتراحات، لم ينفذ أو على الأقل لم يطبق فورا لأن المسيحيين، بعد أن تسلموا السلطة، كان لديهم ماهو أهم من محاربة الكتب الوثنية، التي لم تكن تمس العقيدة المسيحية باستثناء بعض الحالات. وبالإضافة إلى هذا فقد كان المسيحيون المثقفون في ذلك الوقت لايزالون تحت تأثير الأدب الوثني إلى حد أنهم كانوا يدافعون عنه، ويحفظونه من الفناء. وبفضل هذا الموقف للمفكرين المسيحيين في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط فقد بقيت الكتب الوثنية تنسخ في ورش النسخ المسيحية إلى جانب الكتب المسيحية، مما أبقى على هذا الكتب حتى يومنا هذا.

إلا أن الأمر كان يختلف مع كتب الهراطقة وكتب المؤلفين الوثنيين الذين كانوا يتعرضون للمسيحية بشكل مباشر. ومن هؤلاء كان الفيلسوف فورفوريوس من صور (٢٣٤ حوالي ٣٠٤) الذي أثار كتابه «ضد المسيحيين» غضب المسيحيين. ونظرا لانتقاداته العنيفة وأدلته المحرجة ضد الكتاب المقدس، وخاصة ضد القديس بولس، فقد وجد فورفوريوس نفسه في مرمى سهام الكتّاب المسيحيين. الا أن بروفير لم يلحقه شيء، كما لم يلحق كتابه أي شيء، طالما كان المسيحيون يردون على أدلته بأدلة مضادة. ولحسن حظ فورفوريوس فقد توفي قبل أن يتمكن المسيحيون من الوصول للسلطة وتصفية الحساب معه بشكل آخر. وكان الإمبراطور قسطنطين أولا قد أصدر مرسوما يقضي بحرق كتاباته، إلا أن كتابه ضد المسيحيين بقي يثير المتاعب لأن بعض الكتّاب كانوا في مقالاتهم السجالية يستشهدون بأدلته ضد المسيحيين، بينما توجب على المسيحيين أن يردوا على هذه بأدلة أخرى حتى أن القديس يرونيم

نفسه اضطر للمشاركة في هذه السجالات. وقد بقي الأمر هكذا بين أخذ ورد إلى أن أصدر الإمبراطور تيودوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠م) مرسوما خاصة في سنة ٤٤٨ يقضي بحرق كل نسخ الكتاب الذي ألفه فورفوريوس. وفي هذه الحالة نفذ هذا المرسوم بشكل جذري حتى أنه لم يصلنا من هذه الكتب إلا بعض المقاطع.

ولكن كان هناك الكثير من الكتّاب الذين لم يحظوا بهذا «الشرف»، أي أن يصل أمرهم إلى الإمبراطور نفسه.

فقد كانت السلطات المحلية والأساقفة، وحتى المؤمنين، يقومون دون رحمة ودون انتظار مرسوم إمبراطوري بإحراق كتب المانويين والأريوسيين والنسطوريين وغيرهم. وهكذا فقد أصبح حرق الكتب أمام الكنائس أسلوبا عاديا لتصفية الحساب مع هذه المذاهب الدينية. وبالطبع فلم يكن يقتصر الأمر على حرق الكتب، بل شمل أيضا تدمير المعابد والتماثيل والمدارس وحتى رجال التعليم في المدارس ورجال الدين في المعابد. أما في تلك المناطق التي كان يمسك فيها أعداء المسيحيين بالسلطة السياسية فقد كان يحدث العكس، أي أن كتب المسيحيين هي التي كانت تتعرض للحرق. وهكذا فإن ملك الفاندال في أفريقيا الشمالية، الملك هونريخ (٤٧٧ ـ ٤٨٤) الذي كان يعتنق المذهب الأريوسي، أصدر مرسوما يقضي بحرق كتب المسيحيين.

وفي ذلك العهد الذي كان يتميز بالتناقضات الحادة الدينية والسياسية تبدو ظاهرة جديدة تتمثل في حرق مكتبات بكاملها. ففي العهود السابقة كانت تحرق كتب معينة كنوع من الإدانة للمؤلف وكتحذير للآخرين وكرمز للقضاء على شيء معين تحتويه تلك الكتب. ولكن فيما بعد جاء عهد آخر أصبحت فيه مكتبات بكاملها رمزا لهذا الشيء. وهكذا فإن الإمبراطور يوقيان (٣٦٣ ـ ٣٦٤م)، الذي تولى عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية من يوليان، أصدر أمرا بحرق مكتبة بكاملها في أنطاكية تحتوي على كتب وثنية كان قد أسسها سلفه. إلا أن أشهر حالة لحرق مكتبة بكاملها كانت قد حدثت في الإسكندرية.

ففي سنة ٣٩١ اندفع جمهور من المسيحيين المتعصبين بقيادة بطريرك الإسكندرية تيوفيل وأحـرقوا «السيرابيوم» (*) حيث كانت هذه المكتبة تمثل للبطـريرك تيوفيل رمز الـوثنية ولـذلك أراد من حرقهـا أن يقضي على آخر بقـايا الثقـافة الـوثنية اليـونانيـة ـ الرومانيـة في مصر. ومن المثير أن الإمبراطور تيودوس الأول (٣٧٩ ــ ٣٩٥م) كان قد أرسل سنة ٣٨٧ مبعوثه كينغيوس لكي يدمر هذه المكتبة. إلا أن هذا المبعوث اضطر لأسباب مفاجئـة أن يلغي سفره، مما أبقى على مكتبة الإسكنـدرية فترة قصيرة أخرى من الوقت.

إن حـالات حـرق الكتب ومـلاحقـة المؤلـف في العصر القـديم يمكن أن تخلق انطباعا لدى المرء بأن السلطة الرومانية، مثلها مثل السلطة الوثنية والمسيحية، كانت تحرق دون رحمة كل الكتب التي لاتتفق مضامينها مع مـواقفها ولأن كل محاولة ليبراليه كانت تنتهي فوق أكـوام الحطب. إلا أن هذا الانطباع، مع كل ماتعـرّض له الكتاب في العصر الوسيط، ليـس صحيحا خاصـة إذا ماأخـذنا بعين الاعتبـار ماتعـرض له الكتاب في العصور اللاحقة.

وفي الواقع لا بد من التنويه إلى أن السلطة الرومانية في العهد الإمبراطوري كانت لا ترى ضرورة لحرق الكتب إذا كانت تتعارض مع المفاهيم السياسية والدينية للطبقة الحاكمـة، بل كانت تعمـد إلى حـرقها فقط فيما إذا تنـاولت تلك الكتب شخصيـة الإمبراطـور، أو الممثلين الآخـرين للسلطـة، أو المؤسسـات الأسـاسيـة للمجتمع. وبعبـارة أخـرى ففي عصر الجمهـوريـة وعصر الإمبراطـوريـة حتى تسلُّم قسطنطين للسلطة، (أي حين أصبحت المسيحيـة دينا رسميا)، كانت هـذه السلطة متسامحة نسبيا مع الكتب الليبرالية حتى أنـه يمكن القول إنها بالتأكيد كـانت أكثر تسامحا من العهـود الـلاحقـة. وحتى في العهـود اللاحقـة لـلإمبراطـور قسطنطين، حين كـان المتعصبون من مسيحيين وغير مسيحيين يدمرون مكتبات بكاملها، كان لايزال هناك نـوع من التسامح الـذي مكّن من إنقـاذ أهم مؤلفـات العصر القديم. وفي الحقيقـة لايجب أن ننسى هنـا أنـه في نهايـة العصر القديم بـالضبط، حين كـان المسيحيـون

(*) حول هذا انظر ماسيضيفه المؤلف لاحقا خلال الفصل الثالث (المترجم).

يمسكون بيدهم مصير الكتاب، بدأت عملية النسخ الشاملة لنقل النصوص من لفافات البردي، التي كانت تتعرض للفناء بسبب الرطوبة ومرور الزمن، إلى كراريس الرق التي كانت تصمد أكثر في وجه الزمن.

وهكذا فقد أنجزت معظم هذه العملية في ورش النسخ التي كان يملكها المسيحيون. وفي الواقع لقد كانت هذه فرصة للمسيحيين لكي يتخلصوا من الكتب، التي تتعارض محتوياتها مع المسيحية، دون الحاجة إلى محاكمات علنية أو لحرق الكتب في الساحات. وعلى كل حال فقد كان المسيحيون المثقفون في أواخر عصر الإمبراطورية يقدرون مؤلفات أهم الكتّاب الوثنيين أكثر من تقديرهم لمؤلفاتهم التي كانوا يكتبونها، بحيث ساهم هذا الموقف الإيجابي في إنقاذ و إيصال قسم كبير من الكتاب الوثني اليوناني ـ الروماني إلى الأجيال اللاحقة.

إلا أن الحروب التي كانت تشنها السلطة ضد الكتب غير المرغوبة لم تكن ناجحة على الدوام. فقد كانت شبكة توزيع الكتاب متطورة جدا بحيث أن الكتب كانت تصل إلى أقصى أرجاء الإمبراطورية، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بكتب مؤلِّف معروف، ولذلك كان من المستحيل التخلص من كافة نسخ أي كتاب. ومن هنا حتى لو أراد المؤلف نفسه التخلص من كتابه فإنه لن يتمكن من ذلك إذا كان قد عهد بكتابه إلى أحد الناشرين. ولدينا حالة من هذا النوع فيما رواه لنا القديس يورنيم في رسالة له حول محاولته لسحب أحد كتبه الذي لم يرض الأوساط الكنائسية الارثوذكسية. فقد حاول فور صدور الكتاب للبيع أن يسحب كتابه بمساعدة صديقه بوماكيوس، إلا أنه فشل في ذلك مع أنه جمع كل ماوجده من نسخ لدى البائعين والمشترين.

وقد ساعد اتساع الإمبراطورية الرومانية وتنظيم شبكة توزيع الكتاب، بالإضافة إلى الميل الطبيعي للإنسان لكي يحفظ ويقرأ بسرعة ماهو ممنوع، على أن تنجو الكثير من الكتب المشوهة والملاحقة وغير المرغوبة في نظر السلطة بفضل رعايتها في المكتبات الخاصة والعامة، مما ساعدها على أن تخلد وتصل أخيرا إلى أيدي المتنورين والطابعين الأوائل في بداية العصر الحديث.

كانت الكتب المؤلفة، سواء في الأزمنة الوثنية أو المسيحية، ترمى عادة إلى النار في الساحات العامة. ولم يكن هذا يحدث لسهولة ابتلاع النار للكتب فقط، بل لأسباب أخرى.

فقد كان لهذا التصرف في الدرجة الأولى معنى تطهيري وسحري ـ تقديسي أيضا. فقدكان الكتاب هكذا يتحول إلى دخان أي كما يُراد أيضا للأفكار المعادية الكافرة والهرطقية الواردة فيه. وقد كان أيضا لحرق الكتب في الساحات العامة معنى آخر، إلا وهو تطهير المجتمع من الأفكار الخطرة و إنذار الأفراد الذين يعتنقون أو يتبعون هذه الأفكار. وفي بعض الأحيان كان يتم أيضا رمي الرماد في البحر أو النهر أو في الهواء وهو أيضا يحمل في طياته مغزى سحريا للدلالة على التخلص النهائي مما جاءِ في الكتب المحروقة.

وقد كان حرق الكتب يتم في أكثر الأماكن ازدحاما بالمارة، في الساحات العامة في الأزمنة الوثنية وأمام الكنائس في الأزمنة المسيحية، وذلك بحضور جمهور المتفرجين المتحمسين.

إلا أن سجل الأخطار التي كانت تهدد الكتاب في العصر القديم لم يقتصر على هذا فقد كان أكبر خطر يتمثل في الحروب التي كانت تأتي على مكتبات بكاملها.

ونظرا لأن الحروب الأهلية والحروب بين الدول والشعوب كانت تندلع باستمرار فيمكن القول إن أكبر عدد من الكتب في العصر القديم قد قضي عليه بسبب الحروب المدمرة.

وبشكل خاص يمكن أن نذكر ثلاث حالات تراجيدية. وتتعلق الحالة الأولى بتدمير المكتبة ومركز الوثائق في ميلت خلال الاحتلال الفارسي سنة ٤٩٤م. وقد برزت أهمية هذه المكتبة بشكل خاص نظراً خاص لتطور الفلسفة اليونانية المبكرة والعلوم نظرا لأن الجزء الغربي من آسيا الصغرى، وخاصة ميلت، كان الجسر الذي تعبر عليه من الشرق إلى الغرب الإنجازات العلمية البابلية ــ الآشورية والتقنيات الفنية لتؤثر بشكل جوهري في تكوين الثقافة اليونانية. أما الحالة الثانية فتتعلق

بمكتبة الإسكندرية، وهي حالة أكثر تراجيدية من الأولى. وكما ذكرنا سابقا فقد دمرت هذه المكتبة أولا خلال العمليةالعسكرية لجيش يوليوس قيصر في الإسكندرية، بينما دمرت تماما من قبل المسيحيين سنة ٣٩١م. أما الحالة الثالثة فتتعلق بتدمير المكتبة الإمبراطورية في القسطنطينية خلال الصراع على السلطة سنة ٤٧٥م، وهي التي كانت تعد أكبر مكتبة في العالم بمجلداتها التي وصلت إلى ١٢٠ ألف مجلد. وكان القائمون على المكتبة قد جمعوا من خلال تنظيم معين كل الأدبيات المسيحية والوثنية، التي كانت لاتزال موجودة حينئذ. ومن المؤكد أن الحريق الذي قضى تماما على هذه المكتبة منع بعض المؤلفات للكتّاب القدامى أن تصل إلى أيدينا اليوم.

أما أكبر كارثة لحقت بالمكتبات في أواخر أيام الإمبراطورية فقد كانت الهجمات العنيفة المتواصلة للبرابرة على حدود الدولة الرومانية إلى أن تمكنوا أخيرا من تحطيم جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية السابقة. ولحسن الحظ لم يستطع البرابرة تدمير كل شيء، كما أنهم لم يستطيعوا الوصول أبدا إلى بعض أرجاء الإمبراطورية الرومانية السابقة، مما سمح لكثير من الكتب والمكتبات أن تنجو من هذه الكارثة.

وقد سجل لنا لاحقا (القرن ١٢) الكاتب البيزنطي ى. زونارا تفصيلا مثيرا عن وضع الكتاب الصعب خلال موجة التدمير البربرية. فقد جمع البرابرة، حين احتلوا أثينا في عهد الإمبراطور كلاود الثاني، كل الكتب في المدينة لكي يحرقوها. إلا أن هذا لم يحدث لأن أحد البرابرة أقنع أصدقائه المحاربين بأنه من الأسهل عليهم حكم اليونان فيما لو تركوا اليونانيين ينشغلون مع كتبهم. ومع أنه من الصعب تصديق هذه الرواية إلا أنها، إذا وقعت بالفعل، تدل على أن البرابرة لم يكونوا متوحشين إلى هذا الحد لكي لايفهموا خطورة الكتب بالنسبة إليهم كمحتلين.

وقد وجد بينهم واحد على الأقل يعرف قيمة الكلمة المكتوبة بحيث استطاع بحيلة بسيطة أن يقنع أفراد عشيرته أن يصرفوا النظر عن هدفهم.

٥ ـ المؤلفات المرجعية

في العصر الهلنستي وجـد العلماء والأدبـاء والعـاملـون في المكتبـات وهـواة جمع الكتب، الذين يهتم كل واحد منهم لدوافعه الخاصة بالجديد في سوق الكتاب، ازاء مشكلات صعبـة: كيف لهم أن يعرفوا مـاذا يوجد في السـوق من كتب وماذا يكتب الكتّاب من موضوعات إلخ. وقد كانت هذه المشكلة قائمة في العالم اليوناني وخاصة بالنسبـة لأولئك الذيـن لايعيشون في المراكـز الثقافية الكبيرة، الا أنها اصبحـت أكثر تعقيدا في العصر الهلنستي.

كان هناك سببان رئيسيان وراء تعقيد هذه المشكلـة. فقد برزت أولا مراكز ثقافية كبيرة في العالم اليـوناني بعـد إنهيار إمبراطوريـة الإسكندر المقـدوني، حتى أن بعضها كالإسكنـدرية وبرغام وأنطـاكية أصبحت تنافس أثينـا بالذات. وبعد ظهـور المركز الثقافي والسيـاسي الجديد في المتوسط (رومـا) لم يعد يكفي المرء أن يذهب إلى سـاحة المدينـة أثينا (الأغـورا) أو روما (الغـوروم) لكي يعرف مـاذا جد من جـديد في سـوق الكتاب.

أمـا السبب الآخـر فيكمن في الازديـاد الكبير في إنتاج الكتـاب، سـواء في تلك المراكـز التقليـدية أو في المراكـز الجديـدة، بحيث أصبح من الصعب الحصـول على معلومات سواء حول الكتب الجديـدة الصادرة أو حول المؤلفين وحول قيمة المؤلفات إلخ.

وهكذا وجـد المثقفون وكل المهتمين الآخـرين بالكتـاب أنفسهم في الورطـة التي ستبرز ثانيـة في أوربا في زمن غوتنبرغ، أي في معرفـة مايصدر من كتب جـديدة وفي كيفية الـوصول إلى هذه الكتب. وقد أدى هـذا التعطش للمعلومات إلى ظهـور نوع جديد من الكتب ـ المؤلفات المرجعية التي تضم مؤلفات ببليوغرافية مختلفة وقواميس أعلام إلخ.

وعلى حد معلـوماتنا فإن أول من فكر بتأليـف كتاب من هذا النوع كـان الكاتب كاليماخ مـدير مكتبـة الإسكندريـة. فقد استفـاد من المجموعـات الفنية للكتب في

المكتبة ليؤلف كتابه « بيناكس» في ١٢٠ مجلدا، الذي يعتقد بأنه كان يستخدم كفهرس للمكتبة ، وبغض النظر عن أن المؤلف أراد منه أن يكون فهرسا أم لا أو أنه استخدم كفهرس للمكتبة، فمن الواضح أن المؤلف لم يرد منه أن يكون مجرد فهرس كالفهارس التي نراها اليوم في المكتبات، أي مجرد وسيلة للوصول إلى الكتاب المطلوب في المكتبة. فكل مانعرفه عن هذه الكتاب يقودنا إلى أنه كان موجها إلى دائرة واسعة من المهتمين، وإن المؤلف كان يريد منه أن يكون مصدرا بيو ـ ببليوغرافيا عن كل الكتب التي ألفت، وعن كل الكتّاب الذين ألفوا حتى ذلك الوقت.

وهكذا فإن كاليماخ لم يكتف في مؤلفه بذكر الكتاب بل كان يقدم معلومات عن الكاتب أيضا. ومن ناحية أخرى لم يكتف كاليماح بتقديم المعطيات الأساسية عن الكتب بل كان يضيف ملاحظاته النقدية أيضا. ولذلك فإن هذا المؤلف يكاد يكون مرجعا بيو ـ ببليوغرافيا لكل الأدبيات اليونانية أكثر من كونه فهرسا لإحدى المكتبات.

وعلى هذا النحو قام النحوي كراتس، مدير مكتبة برغام، بتأليف فهرس للمكتبة في القرن الثاني ق.م، كما وضع فهرسا آخر لمكتبة في رودوس حوالي ١٠٠ ق.م.

وفي الوقت ذاته (حوالي ١٠٠ ق.م) ظهرت على حد معلوماتنا أول المؤلفات المجملة عن الكتب بشكل عام وليس عن الكتب الموجودة في مكتبة واحدة فقط. وقد كتبت هذه المؤلفات حينئذ لتفيد أكبر عدد من المهتمين بسوق الكتاب في ذلك الوقت. وقد كتب النحوى أرتمون من كاسندرا مؤلفا من هذا النوع، إلا أنه لم يصلنا حتى اليوم. وقد كان أهم من هذا بكثير ما ألفه النحوي والمؤرخ هيرونيوس بيلون من بيبلوس، الذي أنجز سجلا دقيقا في ١٢ مجلدا تحتوي على مؤلفات أهم معاصريه من الكتّاب. ومع أن هذا المؤلّف لم يصلنا أيضا إلا أن المعطيات الواردة في مؤلفات الكتّاب الآخرين تفيد بأن بيلون قد وزع المؤلفين والمؤلفات في مجموعات حسب الاختصاصات وأن المؤلف أراد من عمله أن يكون دليلا ببليوغرافيا في سوق الكتاب حينئذ. وقد كان هذا الهدف دافعا لكاتب آخر هو تيليغوس من برغام، أن

ينجـز مؤلفـا آخـرا في ثـلاثة مجلـدات يحوي على قـائمة نقـديـة تتضمن المؤلفين مع مؤلفاتهم. وقد أنجز تيليغوس أيضا مؤلفا بيوغرافيا عن حياة كتّاب المسرحيات. وفي وقت لاحق، في نهاية القـرن الثاني الميـلادي كتب داموفيل من بيتينيـا كتابـه «صديق الكتـاب» ليـوجه هـواة جمع الكتب إلى مـايجب أن يشتروه ومـايجب أن يفعلـوه لكي يملكوا مكتبات جيدة خاصة بهم.

إن ظهور المراجع البيو- ببليوغرافية بهذا الشكل يدل في حد ذاته على أن الأسلوب الشفوي لتنـاقل المعلومـات حول الكتاب فقـد فعاليته السـابقة إلى الأبـد، وعلى أنه أصبح لا يستغني عن هذه المراجع لنشر المعلومات الببليوغرافية في عالم يتزايد تمركزه. وهكذا مع تـوطد دور روما كأهم مـركز ثقافي وعلمي زادت الحاجة إلى المعلـومات في المراكز الثقافية القـديمة في شرق المتوسط، ولذلك فقد برزت في هـذه المراكز بالذات أعداد متزايدة من هذه المراجع الببليوغرافية.

أما في روما، حيـث لم يكن الإنتاج الببليوغرافي كما في شرق المتوسـط، فقد تطور بشكل خاص تأليف قواميس الأعلام التي تتضمن بطبيعة الحال معطيات ببليوغرافية كثيرة. وفي هذا الحقل كـان أهم إنجاز كتاب «سير الرجال البـارزين» لمؤلفه س. ت سيفتون (حوال ٧٠ ـ ١٤٠م)، والذي بقي قدوة للآخرين منذ العصر القديم وحتى عصرنـا هـذا. وقـد عمـد سفيتـون إلى جمع معطيـات بيـوغـرافيـة لشخصيـات من اختصاصات مختلفـة، ولذلك فقد قسم كتابه إلى مجموعـات حسب الاختصاصات وكان الهدف الرئيسي من عمله هو أن يضع كل شخص في موضعه المناسب في تاريخ اختصاصه وذلك بالاستنـاد إلى مالديه من معطيات تتعلق بحياته ومـؤلفاته. وهكذا فقـد جعل سفيتون مـؤلفات الكتّـاب والمؤرخين والخطبـاء جزءا لا يتجـزأ من سير حياتهم مما يجعل هذا الكتاب مصدرا مهما جدا للمعلومات الببليوغرافية.

ومن أهم المؤلفات اللاحقة التي حملت عنوان سفيتون نفسه كان ذلك الذي ألفه القـديس يـورنيم (٣٤٠ ــ ٤٢٠م) والـذي أورد فيه سير حيـاة لـ ١٣٥ من الأدبـاء المسيحيين بالإضافة إلى بعض الكتّاب الوثنيين، وفي هذا الكتاب أيضا حشد المؤلف المعطيات الببليوغرافية في سير حياة الذين ترجم لهم.

وفي أواخر أيام الإمبراطورية، حين لم يعد إنتاج الكتاب كبيرا ومتنوعا كالسابق وحين لم يعد سوق الكتاب موحدا ومنظما بشكل جيد كما في القرون السابقة، أصبحت الحاجة أقل للمؤلفات المرجعية ولذلك لم تعد تظهر مؤلفات جديدة. وعلى كل حال فقد كتبت لاحقا بعض المؤلفات البيوغرافية ولكنها كانت محصورة على الغالب بتقديم المعطيات عن أعلام الديانة الجديدة ـ المسيحية، أي أنها كانت نادرا ما تقدم معطيات بيوغرافية عن الكتّاب الآخرين.

وخلال العصر القديم كله كان أهم المؤلفات المرجعية ذلك الذي ألفه بلين الكبير بعنوان «التاريخ الطبيعي» وهو عمل موسوعي في ٣٥ مجلدا اشتمل على ٤٠ ألف مادة وقد بقي هذا العمل خلال العصر القديم وحتى العصر الوسيط أيضا المصدر الأساسي للمعلومات عن كل حقول المعارف الطبيعية والاجتماعية وعن الفنون والأدب إلخ.

إن أهمية المؤلفات البيوغرافية والببليوغرافية وغيرها من المؤلفات المرجعية في نشر المعلومات في العالم اليوناني ـ الروماني كانت كبيرة جدا. فقد كانت هذه المؤلفات، بالإضافة إلى المكتبات، أهم مصدر للمعلومات التي تساعد الإنسان في ذلك الزمان على معرفة ماذا كان يكتب في حقول العلم والأدب.

أما في العصر الهلنستي والروماني اللاحق، حيث وصل إنتاج الكتاب إلى مستويات عالية جدا، فقد أصبحت المؤلفات المرجعية لا غنى عنها لكل من يهتم بالكتاب من المؤرخ وحتى اللغوي ومن أمين المكتبة إلى هاوي جمع الكتب.

٦ ـ المكتبات في العالم اليوناني ـ الروماني

أ ـ المكتبات في اليونان الكلاسيكية

إذا استثنينا مكتبة ميليت التي دمرها الفرس نجد أنه لم يكن يوجد في اليونان، ولا في أثينا، مكتبة عامة كبيرة حتى زمن أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) وفي الحقيقة كان بعض الحكام المتعلمين قد توصلوا إلى جمع بعض الكتب في قصورهم، إلا أن ماتعلمه عن هذه المكتبات ضئيل جدا وغير مؤكد دائما مما يشير في حد ذاته إلى أن تلك المكتبات لم تلعب دورا كبيراً في المراكز التي كانت توجد فيها.

ومن هذه مثلا لـدينا مكتبة قيل إنه كان قد أسسهـا في أثينا بيزيستراتِ (٦٠٥ ـ ٥٢٧ ق. م) ولكن معلوماتنـا عنها تأتي بعد سبعة قـرون من الكاتب أول غل (القرن الثاني الميلادي). وحسب هـذا الكاتب فإن هذا الحاكم المستبد في أثينـا، الذي كان مع ذلك يحب كثيرا الفن والأدب، قد أسس أول مكتبـة عامة في المدينـة. إلا أن هذه المكتبة انتهت كغنيمة حرب أخذها لاحقا الإمبراطور الفارسي كسركسو الأول ويعتقد أن هذا التأكيد حول نقل هـذه المكتبة إلى بلاد الفرس ثم إعادتها ثانيـة إلى اليونان قد برز في العصر الهلنستي لأهـداف دعائية، لأن الفـرس لم يأخذوا أبدا هـذه المكتبة إلى بلادهم. ومن الممكن أن يكـون بيزستراتِ قد جمع في قصره مجمـوعة من الكتب، أي ليس كما تصـور أول غل، حيث كـان يمكـن فقط للمثقفين أن يستفيـدوا من هـذه الكتب بعـد إذن خاص منـه ويبدو أنـه كـانت هناك مكتبـات مشابهة لـدى بعض الحكـام في ذلك الـوقت، ومن هـؤلاء نذكـر بـوليكـرات من سـاموس الـذي كـان كبيزستراتِ يحب أن يجمع حوله المثقفون والشعـراء والموسيقيون. وفي العهود اللاحقة نجد أن معظم المعطيات تتعلق بالمكتبات الخاصـة لهواة الكتب والمثقفين الذين قاموا بجمع الكتب لحاجـاتهم الشخصية. وهكذا لـدينا من هـذه المعطيات أن الأرهـوند الأثيني أوكليد دخل التـاريخ سنة ٤٠٣ ــ ٤٠٢ق. م لأنه أدخل إلى أثينا الأبجـدية الأيونية من مدينة ميليت ولأنه أسس مكتبة خاصة أيضا. ويذكر أيضا من أصحاب المكتبـات الخاصـــة الفيلسـوف أفـلاطــون والكـاتب المسرحي أوريبيـــد والخطيب ديمـوسطين وغيرهم. إلا أن أشهر مكتبـة هي تلك التي أسسهـا أرسطو، إذ كـانت أكبر وأشهر مكتبـة في اليونـان حينئذ، ولـذلك نعرف عنهـا أكثر ممـا نعرف عـن أية مكتبة أخرى باستثنـاء تلك التي أسست لاحقا في العصر الهلنستي. ونظرا لأنه اهتم بقضايا كثيرة وكتب أمورا كثيرة فقـد كان على أرسطو أن يجمع الكتب من كل حقول المعرفة الإنسانية. ويعتقد هنـا أن الإسكندر المقدوني كان يرسل له الكثير من الكتب خلال فتـوحاته العسكـرية في آسيا الصغـرى والشرق الأوسط لاحقا، بالإضـافة إلى الكثير من المواد الأخرى التي كان يمكن أن يحتاج إليها في أبحاثه العلمية ـ الطبيعية. وإلى جانب هـذا فقد سـاعده تلاميـذه الكثيرون أيضا في جمع الكتب. وقـد كانت

مكتبة أرسطو أول مكتبة في اليونـان تجمع فيها الكتب حسب نظام معين. وفي الواقع فقد كانت هذه المكتبة منظمة بشكل ممتاز وكان يمكن أن يستفيد منها عدد كبير من الناس بحيـث يمكن القول بشكل مـا إنها كانت أول مكتبـة عامـة في اليونـان. وقد كانت هذه المكتبة تخدم بالدرجة الأولى أرسطو ثم تلاميذ مدرسته الفلسفية. ومع أن سترابون غير محق فيما ذكره بأن أرسطو كان أول من جمع الكتب في اليونان، إلا أن هذا في حـد ذاته يـدل على المكـانـة التي وصلت إليها مكتبـة أرسطـو في نظـر اليونـانيين المثقفين.

وبعد موت أرسطو ورث هذه المكتبة، بكل مافيها من مخطوطات كثيرة لأرسطو، تلميذه تيوفراسـت وانتقلت هكذا إلى مدينة سكبسيدا ثم عادت ثـانية إلى أثينا حوالي سنة ١٠٠ق.م . أما عن مصير هـذه المكتبة فيما بعد فلانعرف شيئا مـوثوقاً. وهكذا يقال مثلا أن بطليمـوس قد اشتراها ليضمها إلى مكتبـة الإسكندرية. ولكن من كل هذا يبقى مـن المؤكد أن القائد العسكـري الرومـاني كورنيل سـولا قد حمل معـه هذه المكتبة، أو جزءا منها على الأقل إلى روما كغنيمة حرب.

ب ـ المكتبات في العصر الهلنستي

تحتل مكتبة الإسكندريـة المعروفة التي أسسها البطالمة في مصر مكانـة خاصة بين مكتبـات العصر الهلنستي، بل في كل العـالم اليونـاني ـ الـروماني. ويعتبر اليـونـاني ديمتري من فاليرون (حـوالي ٣٥٠ ـ ٢٨٥ ق.م) المبـادر الروحي والمنظم العملي لهذه المكتبـة. وكان ديمتري، رجل الـدولـة والكاتب وتلميـذ تيـوفراست الـرواقي وممثل النخبة المثقفة في أثينا، قد وجد في الإسكندرية ما كان يفتقده في أثينا: حكام أقوياء وأغنياء ومتعلمين ومندفعين لكي يجعلـوا من الإسكندرية مركز مصر الجديـدة ومركز الحياة الروحية لكل العالم الهلنستي. وكان البطالمة قد جعلوا الإسكندرية تحتل المكانة التي كانت لأثينا في القرون السابقـة، أي المدينة التي أسسها الإسكندر المقدوني سنة ٣٣١ ق.م بعد أن فتح بلاد المصريين القدماء بسهولـة، في المكان الذي تتداخل فيه حدود أعظم حضارات العـالم القديم (الحضارة اليونانية والحضـارة المصرية وحضارة

بلاد الرافدين). وكان البطالمة قد أسسوا أكاديمية في الإسكندرية، على نمط المدرسة الرواقية لأرسطو، بهدف أن يجعلوا منها جامعة لكل العالم الهليني. وقد جمع البطالمة هنا حينئذ المئات من أشهر كتّاب العصر، من شعراء وفلكيين ولغويين ومؤرخين وعلماء من كل الاختصاصات. ولم يجد كل هؤلاء في الأكاديمية المغريات المادية، التي كان يجود بها البطالمة من خزينة الدولة بل وجدوا المناخ الخلاق الذي كان يدفعهم إلى العمل ويوفر لهم الشروط المثالية لأعظم الإنجازات الثقافية.

وكان بطليموس سوتير الأول (٣٦٦ ـ ٢٨٣ق.م)، وخاصة وريثة بطليموس فيلادف الثاني (٢٨٥ ــ ٢٤٦ق.م)، قد أخذا بنصائح ديمتري وأسسا لأجل الأكاديمية في مركز المدينة بالحي اليوناني «بروكيون» قصراً عظيما من الرخام الأبيض المزين بالتماثيل والرسوم، وإلى جانبه بناء فخما للمكتبة التي خصصت لخدمة العاملين في الأكاديمية في نشاطهم العملي والفني.

وللأسف لم يصل إلينا شيء من هذه المكتبة ولكن بالاستناد إلى وصف الكثير من كتّاب العصر القديم نعرف أن هذه المكتبة كانت تتوزع على عشر قاعات ضخمة مليئة بالرفوف التي تحمل لفافات الكتب. وقد كان يذهب إلى هذه القاعات العلماء، حيث يستخدمون الكتب بحرية ويتناقشون في القضايا التي كانوا يختلفون حولها. وبالإضافة إلى العلماء فقد كان في هذه المكتبة الكثير من النسّاخ والمصححين والمنقحين إلى جانب أمناء المكتبة الذين كانوا يشرفون على نسخ المؤلفات، وعلى وضع الفهارس الخاصة بالمؤلفات وعلى وضع المؤلفات في الرفوف الخاصة.

كان للبطالمة هدف واضح عندما قرروا تأسيس مثل هذه المكتبة الكبيرة في مدينتهم. فقد أرادوا، بتأثير المفاهيم الجامعة والكوسموبوليتية للإسكندر المقدوني، أن يجمعوا في هذه المكتبة كل التراث العلمي والأدبي الذي كان قد أبدعه حتى ذلك الوقت اليونانيون وكل الشعوب الأخرى، التي أصبحت بعد فتوحات الإسكندر تحت التأثير الروحي للثقافة الهلينية. ولأجل هذا كانت الكتب تُشترى بأي ثمن حسب خطة منظمة وتُجمع بأشكال شتى كل المخطوطات الموجودة في ذلك الوقت. وبشكل خاص فقد وصلت إلى هذه المكتبة كتب كثيرة من أثينا ورودوس، حيث

كـانت دكاكين الكتب غنيـة بما تحويه. وبـالإضافـة إلى هذا فقـد تم شراء الكثير من الكتب في مدن يـونانيـة أخرى من آسيـا الصغرى في الشرق وإلى ماسـاليا (مـارسليا اليـوم) في الغرب. أمـا الكتب التي لم يكن في الإمكان شراؤهـا فقد كـانت تُنسخ في المكتبة.

إلا أن أساليب تجميع الكتب لم تكن دائما سليمة. وهكذا نعرف مثلا أن الموظفين الحكوميين كانوا يفتشون السفن الراسيـة في ميناء الإسكندرية ويأخذون كل ما يجدوه من كتب. وكـانت هـذه الكتب تُؤخـذ إلى المكتبـة حيث تُنسخ بسرعـة بحيث يبقى الأصل في المكتبة وتسلم النسخة الجديدة لصاحب الكتاب. ونجد أيضا لدى كتّاب العصر القديم بعض المؤلفات عن كيفيـة إغناء البطالمة لمكتبتهم. ومن هذا مـا يذكر عن شراء مكتبة أرسطـو الشهيرة، التي كانت تحوى مخطوطات أصليـة بخط أرسطو وتلميذه تيوفراست.

وإلى جانب المكتبة الأم التي كانت في جوار الأكـاديمية فقد أسس البطالمة مكتبة أخرى (الابنة) في معبد الإلـه (سيرابيس) أو بالقرب منه، وذلك في الحي المصري من المدينة «راكوتيس» وفي هذه المكتبـة، التي أصبحت تدعى «سيرابيون»، كانت تحفظ النسخ المتكررة من المؤلفات التي كانت توجد في المكتبة الأم«البروكيوم» ولذلك يعتقد بحق أن المكتبة الابنة (السيرابيون) كانت مجرد جزء من المكتبة الأم (البروكيوم).

ونجد لدى كتّاب العصر القديم معطيات متنوعة حول عدد الكتب (اللفافات) في هذه المكتبة. وهكذا يذكر مثلا يوهانس تزتزس أنه في النصف الثاني للقرن الثالث ق.م كـانت المكتبـة الـرئيسية (البروكيـوم) تحوى ٤٩٠ ألف كتـاب (لفـافـة)، بينما المكتبـة الفرعيـة (السيرابيـون) تحوى ٤٢,٨٠٠ ألف كتـاب (لفافـة). أمـا أول غل (القرن الثاني الميـلادى) والمؤرخ أميان مارسليني (القرن الرابع الميـلادى) فيذهبان إلى أن مكتبة الإسكندريـة كانت تحوى فى عهد البطالمة على ٧٠٠ ألف كتـاب (لفافة). وقد كان هنـا بالطبع الكثير من النسخ المتكررة والكثير من الـروايات المتعددة للعمل الواحد تلك التي كانت تفيد العلماء لإنجاز نسخات محققة للمؤلفات القديمة.

وفي الـواقع لقـد كـان إصدار النسخـات المحققـة من أهم الأعمال التي قـام بها المحققون في مكتبـة الإسكندرية. وهكـذا نجد أن مـدير المكتبة نفسـه زينودوت من أفس (حـوالي ٣٢٠ ــ ٢٦٠ق.م) قـد أصـدر نسخـة محققـة من ملحمتي هـومير «الإلياذة» و«الأوديسة» كما أصدر نسخة محققـة من ملحمة هذيود «ولادة الآلهة» ومن أشعار بينـدار إلخ. وقد كان هنـاك حلقة كاملـة من العلماء تعمل في إصدار النسخ المحققة للكتّاب القدماء، وبفضل عملهـم الدؤوب والحكيم فقد وصلت إلينا الكثير من مؤلفات الكتاب اليونانيين على الصورة التي نعرفها اليوم.

وكما ذكرنا سابقا فقد كانت مكتبـة الإسكندرية تجمع أيضا مؤلفات الكتاب غير اليونانيين. فهنا على سبيل المثال نجد ترجمات يونانية لمؤلفات يهودية ومؤلفات مصرية (مثـلا للمـؤرخ المصري مانيتـو من القـرن الثـالث ق.م الـذي كان يكتب بـاللغـة اليونانيـة) ثم مؤلفات للكتّاب البابليين والفارسيين إلخ وحتى مـؤلفات للكتّاب من الهند البعيدة.

وكان البطـالمة يعيّنون لإدارة المكتبة شخصيـات معروفـة في ذلك العصر. وهكذا إلى جـانب ديمتري وزينودوت فقـد كان من مـدراء هـذه المكتبة الشـاعر والنحـوي ليكـوفرون من هـالكيس والجغـرافي ـ الفلكي الشهير أراتـوستين من كيرينـا والناقـد اللغوي أريستارخ من ساموتراكا وغيرهم. ومن بين هؤلاء المدراء لابد أن نذكر بشكل خاص كاليماخ من كيرينـا الشاعر والعالم المعروف الذي اشتهر بـإنتاجه الكبير (يقال أنه ألف ٨٠٠ كتاب). وفي الواقع أن مكتبة الإسكندرية وتاريخ الببليوغرافيا يعترفان بفضل كاليماخ لأجل كتابـه المعروف «بيناكس»، الذي تعـرضنا له بالـذكر في موضع سـابق. ويبدو أنـه في هذا الكتـاب قد تّم تـدوين أسماء المؤلفين وعناوين المؤلفـات بالاستناد إلى تصنيف الكتب في رفوف المكتبـة، أي أن هذا الكتاب قد عكس بشكل صادق كيفية التصنيف حسب الاختصاصات في رفوف هذه المكتبة.

وعلى الـرغم من أننا لا نعـرف على وجـه التأكيـد كيفية تصنيف الكتب في هـذه المكتبة إلا أنه بـالاستناد إلى ما لدينا من معطيات عن كتـاب كاليماخ يبدو أن الكتب

كانت مصنّفة في عشر مجموعات رئيسية: ١ ـ الشعر، ٢ ـ المسرحية، ٣ ـ القانون، ٤ ـ الفلسفة، ٥ ـ التاريخ، ٦ ـ الخطابة، ٧ ـ الطب، ٨ ـ الرياضيات، ٩ ـ العلوم الطبيعية ١٠ ـ المتفرقات. وبالإضافة إلى المعطيات المتعلقة بالكتب فقد قدّم كاليماخ معطيات تتعلق بالمؤلفين، وهو المبدأ الذي سيؤخذ بعين الاعتبار في القرون اللاحقة وإلى يومنا هذا.

ويُعتقد أن مكتبة الإسكندرية كانت تجمع كل الإنتاج اليوناني للكتاب، أي منذ أقدم العصور، ولذلك فإن كتاب كاليماخ لا يُعتبر فقط أقدم مؤلف بيو ـ ببليوغرافي بل إنه أقدم عمل ببليوغرافي في العالم. وقد حاول البعض في العالم اليوناني ـ الروماني أن يقلدوا هذا العمل. ومن هؤلاء لابد أن نذكر هرمييوس من أزمير، تلميذ كاليماخ ومعاونه الذي ألف على نمط «بيناكس» عمله «كتاب التراجم».

لقد بقيت مكتبة الإسكندرية أكثر من قرنين من الزمن مركزاً للحياة الثقافية للعا[لم] الهلنستي، أي إلى أن تعرضت لأول كارثة. وقد كان المسؤول عن هذه الكارثة الأو[لى] الزعيم العسكري الروماني يوليوس قيصر الذي، بعد أن انتصر على منافسه الكب[ير] بومبي في فارزالا، بقي يلاحقه إلى أن وصل بسفينته إلى ميناء الإسكندرية حيث تدخّ[ل] في الحرب الأهلية الدائرة هناك إلى جانب كليوباترا الجميلة. وخلال المعارك ال[تي] دارت سنة ٤٧ق.م في الإسكندرية أمر يوليوس قيصر بأحراق السفن في الميناء، [إلا] أن النار امتدت بسرعة إلى المخازن القريبة والمباني الأخرى في الميناء لتلتهم أ[يضاً] المكتبة الرئيسية (البروكيوم). وقد كانت هذه خسارة كبيرة لأنه في هذا الحريق فق[د] إلى الأبد الكثير من كتب الثقافة اليونانية ومن كتب الثقافات الأخرى.

وهكذا فقد فقدت مكتبة الإسكندرية إلى الأبد الأهمية التي كانت تتمتع بها قبل الحريق. وعلى الرغم من أنه قد بقي للمثقفين في الإسكندرية مجموعات الكتب في المكتبة الفرعية (السيرابيون)، إلا أن هذه لم تكن تعوض أبدا ما أتى عليه الحريق. وحتى مبادرة الزعيم العسكري الروماني بومبي، الذي يقال أنه أهدى كليوباترا ٢٠٠ ألف كتاب (لفافة) من مكتبة برغام لكي تحيي ثانية مكتبة الإسكندرية، فقد عجزت

أيضـا عن أن تعيد إلى مكتبـة الإسكندريـة الأهميـة التي كانت لها قبل الحريق الـذى أشعله يوليوس قيصر.

ومع هذا فقد بقيت مكتبة الإسكندرية، على الرغم من الخسارة التي لحقت بها، أهم مكتبـة في العالم اليـوناني ــ الرومـاني. فقد استمـرت المؤلفات الموجـودة في هذه المكتبة التي بقيت تُنقح وتُحقق حتى في العصر الروماني، تعتبر أكثر دقة من المؤلفات الموجودة في بقية المكتبات.

ومن بين الأدلة التي تـؤكد هذا لابـد أن نذكـر قرار الإمبراطور دوميسيـان بإرسال فريق من النساخ إلى مكتبة الإسكندرية لكي ينسخوا المؤلفات التى فقدت في الحريق الـذى شب سنة ٨٠م في المكتبـة التى كانت قـد أسست على شرف أوكتافيـا، أخت الإمبراطور أغسطس.

وقد بدأت مكتبة الإسكنـدرية تفقد أهميتها في عهد الإمبراطورية الـرومانية. فقد أصبحت روما بالتـدريج مركز الحياة الثقافية، حيث أخـذ الشعراء والفلاسفة يجدون فيها شروطـا للعمل أفضل مما كانـت تقدمه مصر الفقيرة والبعيـدة عن المركز. إلا أن المكتبة ستتعرض إلى أوقات صعبة في نهايـة عهد الإمبرطورية، حين أصبح المسيحيون القوة الايديـولوجية والسياسية الرئيسيـة. فقد كانت مكتبة الاسكندرية رمـزا للثقافة الوثنية في نظر الدعـاة المتحمسين للمسيحية، بحيث إن إلحاق المكتبة بمصير الثقافة الوثنيـة والتضحية بها في سبيل الثقـافة الجديـدة كان مسألة وقت فقـط. وهكذا فإن تدمير هـذه المكتبة على يـد بطريرك الإسكنـدرية تيـوفيل في سنة ٣٩١م كـان نتيجة منطقية لهزيمة الثقافة الوثنية أمام الثقافة الجديدة (المسيحية).

وبعد هذه السنة نفتقد ذكر مكتبة الإسكندرية في المصادر فترة طويلة من الزمن. وبالاستناد إلى الكثير من الكتابات التاريخية في العصر الوسيط يبدو أن المكتبة لم تفقد كل كتبها سنـة ٣٩١م بل بقي منها شيء حتى قدوم العرب إلى مصر. ويُشـاع هنا أن العرب قد أحرقـوا بقايا مكتبة الإسكندرية حوالى سنـة ٦٤٠م. ويقال هنا إن الخليفة عمر بن الخطاب حين سئل من قبل الوالي عن تلك الكتب التي وجدت هناك قال: «إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها، وإن كان فيها ما يخالف

كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها»(*).

أما المكتبة الثانية من حيث الأهمية في العصر الهلنستي فقد كانت مكتبة برغام. وكانت هذه المكتبة قد أسسها في نهاية القرن الثالث ق. م أتال سوتير (٢٤١ ـ ١٩٧ق. م)، إلا أنها في عهد وريثه فقط أومين الثاني (١٩٧ ــ ١٥٩ق. م) ـ تحولت إلى مركز للنشاط العلمي والأدبي. وفي الواقع لقد أسّست هذه المكتبة على نمط مكتبة الإسكندرية ولكي تنافسها. إلا أن حكام برغام لم يتمكنوا من أن يجمعوا ذلك العدد من المثقفين كما فعل البطالمة، كما أن أمناء المكتبة في برغام لم يكن لهم من الهيبة كما كان لزملائهم في مكتبة الإسكندرية.

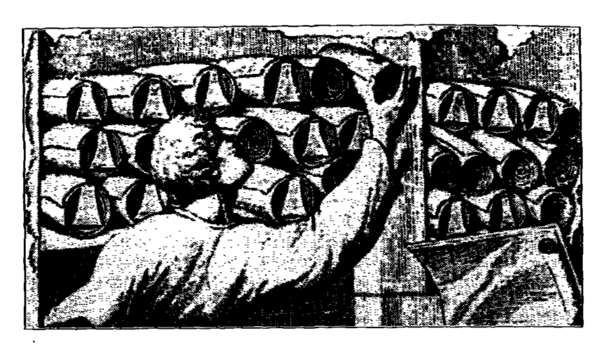
ومن ناحية أخرى لم يهتم الفلاسفة والعلماء في برغام كثيرا بتحقيق المخطوطات القديمة، بل اقتصروا على تأليف الدراسات العلمية حول القضايا اللغوية وغيرها التي كانوا يتناقشون حولها أحيانا مع زملائهم في مكتبة الإسكندرية. ومن أشهر هؤلاء الكتّاب في برغام كان النحوي والدبلوماسي كراتس من ميلوس، الذي كان لفترة من الزمن مديرا للمكتبة أيضا. وينسب إليه تأليف فهرس للمكتبة على نمط «بيناكس» الذى ألفه كاليماخ.

وقد كان هذا الفهرس أحد الإنجازات البيليوغراقية للعلماء المجتمعين في برغام. ففي هذه المدينة بالذات وليس في الإسكندرية ستظهر سلسلة من الأعمال الهامة البيوغرافية والببليوغرافية، التى تدل على قدوم عصر جديد بالنسبة إلى نشر المعلومات حول الكتب والكتّاب.

وفي ذروة ازدهار هذه المكتبة، خلال القرن الأول ق. م، وصل عدد الكتب (اللفافات) فيها إلى ٢٠٠ ألف. وكما يروى بلوتارك فقد أخذ أنطونى مثل هذا العدد من الكتب (٢٠٠ ألف) ليقدمها إلى كليوباترا كتعويض عن الضرر الذى ألحقه يوليوس قيصر بمكتبة الإسكندرية.

إلا أن الكتّاب القدامى لا يقدمون لنا المعطيات الكافية عن هذه المكتبة وذلك

(*) لقد انفرد البغدادي في كتابه «الموعظة والاعتبار» بذكر هذه الرواية بعد ستة قرون تقريبا من الحادثة المزعومة، مما يجعلها هشة للغاية. انظر: كوركيس عواد، مكتبة الإسكندرية تأسيسها وإحراقها، بغداد ١٩٥٥ (المترجم).



نقش حجري من نيو ماجن (المانيا) يمثل الرفوف التي كانت توضع عليها لفات البردي. وقد ضاع هذا النقش الا انه حفظ لنا في لوحة نشرت في أحد الكتب في القرن السابع عشر

بالمقارنة مع المعطيات التى يقدمونها عن مكتبة الإسكندرية. ولكن بفضل التنقيبات الأثرية التي تمت في الفترات المتأخرة فقد أصبحنا نعرف الكثير عن الهندسة العمرانية وعن مظهر هذه المكتبة بشكل عام. وكانت التنقيبات الأثرية قد كشفت عن بقايا هذه المكتبة منذ نهاية القرن الماضي. وقد كانت هذه المكتبة تقع في القسم الشمالي من معبد ضخم للألهة أتينا بولياس وتتوزع على أربعة قاعات. كانت القاعة الرئيسية تتميز بالعظمة، وكانت الكتب مرتبة على الرفوف الموضوعة على الجدران بينما كان يقوم في وسطها تمثال كبير للإلّه أتينا. وفي تلك القاعة أيضا كانت توجد تماثيل الشعراء والكتاب الكبار كهومير وهيرودوت وغيرهم. وسيتحول هذا الطراز من المكتبة، وبالتحديد طابع العظمة فيها، إلى نموذج للهندسة المعمارية في العصر الروماني وذلك خلال بناء المكتبات في روما وبقية مدن الإمبراطورية.

وقد حاول حكام ذلك العصر تقليد البطالمة في مصر وذلك بدعوة الشعراء والعلماء المعروفين إلى قصورهم وتجميع أكبر عدد من الكتب. ومع أن حكام الإسكندرية وحكام برغام بقوا متميزين في هذا، دون أن يستطيع أحد اللحاق بهم إلا أن هذا لا يعني أن محاولات الآخرين للحاق بهم كانت دون قيمة بالنسبة إلى تطور

إنتاج الكتاب وتطور المكتبات. فالأسرة المقدونية السلوقية التي نجحت في أن تجعل عاصمتها إنطاكية في سوريا لفترة من الزمن أهم المراكز الثقافية للعالم الهيليني، كانت قد أسّست في هذه المدينة مكتبتين إلا أننا لا نعرف عنها الكثير. وكذلك لا نعرف الكثير عن مكتبة الحكام المقدونيين في عاصمتهم بيلا، التي يقول عنها بلوتارك إن الزعيم العسكرى الروماني قد أخذها معه إلى روما كغنيمة حرب بعد انتصاره على المقدونيين في موقعة بيدنا سنة ١٦٨ ق.م. وقد تعرضت لنفس المصير مكتبة الملك البونتي ميتريدات أوباتور التى كانت توجد في عاصمة دولته، في سينوبه بآسيا الصغرى، حين أخذها معه إلى روما كغنيمة حرب القائد العسكرى الروماني لوكولوس سنة ٧٠ق.م وقد كانت هذه المكتبة غنية بشكل خاص بكتب الطب.

وفي ذلك الوقت أسس وتطور عدد كبير من المكتبات في إطار المدارس المختلفة، كما في رودوس وأفس زازيد وغيرها من المدن. وفي ذلك الوقت أيضا أصبح لأثينا مكتبة كبيرة، تلك التى أسسها حسب بعض الروايات بطليموس فيلادلف في القرن الثالث ق.م. وكما يروى باوزان فقد كانت هذه المكتبة مزينة بشكل فخم بالأعمدة والتماثيل والرسوم.

وبالإضافة إلى المكتبات العامة والمكتبات المدرسية فقد برزت أيضا أهمية تلك المكتبات التي كانت توجد في إطار المعاهد العلمية، كما في مدينة كوس مثلا حيث كانت مكتبتها غنية بالمؤلفات الطبية لتغطي حاجة المدرسة الطبية في تلك المدينة. وقد كانت هناك أيضا مكتبات خاصة كثيرة في بيوت الأدباء والعلماء. وهكذا فقد ازداد عدد المكتبات وعدد الكتب بشكل كبير في العصر الهلنستي، مما سيؤدي بدوره إلى ازدهار ضخم لإنتاج الكتاب وتطور شبكة توزيع الكتاب بشكل لم يعرف حتى ذلك الحين. وفي هذا المضمار لم يؤثر سقوط المدن اليونانية وبقية مدن البحر الأبيض المتوسط في أيدى الرومانيين على هذا الازدهار لإنتاج الكتب ولا على تطور المكتبات.

ج ـ المكتبات الخاصة في روما

لقد مرّ معنا كيف أن أسهل طريقة لتجميع الكتب بالنسبة للرومانيين كانت

نهب المكتبات في المدن اليونانية المفتوحة وفي بقية المدن. أما أولئك الذين لم ينشئوا في بيوتهم مكتبات بهذه الطريقة فقد كان بإمكانهم أن يشتروا الكتب، إذا توفرت لديهم القـدرة طبعـا، في السوق سـواء في رومـا أو في بقيـة المراكـز الثقافيـة لـذلك العصر كالإسكندرية وأثينا.

وفيما يتعلق بأولئك الـذين كانـوا يجمعون الكتب فإن لـدينا معطيات وافيـة عن واحد منهم، إلا وهو الخطيب المعروف شيشرون. ففي رسـائله، التي بقيت إلى يومنا هذا، نجد صـورة صادقة عن إمكانيات ووسـائل ومصاعب جمع الكتب للمكتبات الخاصة في أواخـر عهد الإمبراطـورية. وهكـذا نفهم من إحدى رسـائله أن صـديقه وناشر كتبه بـومبون أتيك كان يشترى له الكتب في اليونان، ونفهم من رسـالة أخرى أنه تلقى على سبيل الهدية مكتبة النحوى سرفي كلـواد. أما كاتب سيرته فيروى لنا أن شيشرون قد اشترى بعض الكتب من مـزاد علني كانت تبـاع فيه مكتبة سـول. وقد كان شيشرون يحتفظ بمكتبتـه الغنية في روما، بينما كان يحتفظ ببعض كتبـه في دار له في ضـواحي روما وفي بقيـة بيـوتـه التي كان يقضي فيهـا فصل الصيف. إلا أن ثـروة شيشرون لم تكن كبيرة إلى حد يستطيع فيـه أن يشترى كل ما يلـزمه، لذلك فقـد كان يضطـر أحيانـا أن يستعير بعض الكتب من صديقـه بومبـون أتيك. وقد كـان أتيك نفسه، بـالإضافة إلى كونـه أشهر ناشر في عصره، من هواة الكتب ولـذلك كان ينفق ثروته الكبيرة على شراء الكتب.

وعلى الرغم من هذا نجد فى العهد الجمهوري أن قلة من الناس فقط كان بوسعها أن تشترى الكتب لإنشاء مكتبات خاصة في البيوت. ولكن في نهاية العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري أخذ عدد المكتبات الخاصة يزداد بسرعة نظرا لازدياد إنتاج الكتاب في روما وفي بقية مدن الإمبراطوريـة الواسعة. وكان الأفراد يشترون الكتب في الدرجـة الأولى بسبب حاجتهم إليها لنشاطهم العلمي والأدبي. وإلى جـانب هؤلاء كان هناك أولئك الـذين أسسوا مكتبات خاصـة كبيرة نظرا لأن جمع الكتب النفيسة كان قد أصبح موضة في المجتمع الرومـاني الراقي. وقد سخر بشكل مقذع من هؤلاء المقلدين والجامعين للكتب لـوكيان وسينيكا وغيرهم من الكتاب الـرومانيين. وهكذا

مثلا يكتب سينيكا بسخرية أن أصحاب مثل هذه المكتبات لم يقرأوا في حياتهم حتى عناوين الكتب التي لديهم. إن هذه السخرية المرة من هؤلاء الناس لا تدل على العدد الكبير للمكتبات الخاصة في العهد الإمبراطورى، كما تدل على أن امتلاك مكتبة لدى الأغنياء كان مؤشرالمكانتهم الاجتماعية مما يوحى في حد ذاته بمكانة الكتاب في المجتمع الروماني. ولا شك أن المقلدين من الأغنياء الرومانيين كانوا يستحقون هذه السخرية المرة من الكتّاب الرومانيين. ولكن إذا تمعنا في هذه السخرية يتشكل لدينا انطباع بأن هؤلاء الكتاب يكتبون تعبيرا عن ضيقهم كمثقفين فقراء لأنهم لا يستطيعون أن يشتروا الكتب مع حاجتهم إليها، بينما جيرانهم الأغنياء يشترون ما يريدون من الكتب دون حاجتهم إليها.

كانت المكتبات الخاصة توجد لدى الأباطرة في قصورهم وفى استراحاتهم بضواحي روما، وفي بيوت العلماء الكتاب الذين كانوا يحتاجون للكتب بشكل يومي، كما كانت توجد في بيوت هواة جمع الكتب وبيوت أولئك الذين يعتبرون جمع الكتب نوعا من الموضة. وهكذا نعرف أن بلين الكبير كان له مكتبة خاصة جميلة يستفيد منها لإنجاز أول مؤلف موسوعي في العالم اليوناني ـ الروماني (التاريخ الطبيعي)، كما أن الفيلسوف وكاتب السيرة بلوتارك كانت له مكتبة خاصة وغيرهم. أما عن مكتبة النحوي اليوناني أبافرودين من هيرونيا، الذى كان يعيش في روما في القرن الأول الميلادى، فنعرف أنها كانت تحوى ٣٠ ألف كراسة. وقد تمكن النحوي الآخر سيرين سامونونيك (القرن الثاني الميلادى) من تجميع ٦٢ ألف كراسة في مكتبته الخاصة. أما مارسيال الفقير، أحد أبرز شعراء الأدب الروماني، فقد كان يملك في مكتبته كما يروي لنا ١٢٠ كتابا (لفافة) فقط. ومن هنا يمكن أن نفهم سخريته اللاذعته من هواة جمع الكتب الأغنياء.

ومن هذه المكتبات الخاصة في العصر الروماني لم يبق إلى اليوم إلا مكتبة واحدة فقط. وكانت هذه المكتبة قد اكتشفت سنة ١٧٥٢ حين كان جنود ملك نابولي، الملك كارل الرابع ينقبون في آثار مدينة هيركولانيوم(*). فقد وجدت هذه المكتبة في

(*) مدينة ريزينا اليوم في إيطاليا ـ (المترجم).

استراحة صيفية لأحد الأغنياء في ضاحية هـذه المدينة، التى كان قد غطتها تماما حمم بركـان فيزوف سنة ٧٩م، مما حفظ المدينـة كما هي حتى ذلك الحين. وقد اكتشفت في ثلاث قاعات من هذه الاستراحة حوالي ألفي لفافة من البردي في حالة تفحم. وقد نجح العلماء بعد جهود مضنية وطويلة في فتح وقراءة هذه اللفافات. وقد تبين هنا أن معظم هذه اللفافات تحتوى على كتابات تخص الفلسفة الأبيقورية في اللغة اليونانية. وهكذا فقـد وجد هنا مـؤلف أبيقور نفسـه، «حول الطبيعة» في ٣٧ مجلـد، بينما كان ثلث هـذه المجمـوعـة تخص مـؤلفات الفيلسـوف الأبيقـوري فيلـوديم من غـدارا، وبالاستناد إلى هذا يمكن أن تكون هذه المكتبة الشخصية له أو خاصة ورثته.

حين انتشر خبر اكتشـاف هــذه المكتبـة، و اهتم العـالم المتحضر اهتمامـا كبيرا بـالحدث على أمل أن يتم العثـور بين هـذه اللفافـات على بعض الأعمال الضـائعـة لسوفوكليس وأرسطو وغيرهم من الكتاب الكبار. إلا أنه اتضح في النهاية أن صاحب هذه المكتبة كـان يحتفظ فيها بالكتب التى كان يحتاج إليهـا في عمله فقط. ويبدو أن قلة محتويات هـذه المكتبة. كانت نتيجة الوضع المادي لصاحبهـا أكثر مما هي نتيجة لقلة اهتمامه بالكتب.

ولذلك فإن فقر هذه المكتبة أثار خيبة أمل أولئك الذين كانوا يتوقعون الكثير من هذا الاكتشاف الفريد من نوعه.

لقــد بقي المثقفـون والأغنيــاء يحتفظــون بمكتبـاتهم الخاصــة خـلال العهــد الإمبراطورى، بينما ستـزداد أهمية هذه المكتبات الخاصــة في أواخر عهد الإمبراطـورية الرومانية إلى حد أنها ستقضي على المكتبات العامة.

د ـ المكتبات العامة في روما

كان يوليوس قيصر قد ذهل لما رآه في الإسكندرية ولذلك فقد قرر أن يبني في روما مكتبة كبيرة عامـة على نمط مكتبة الإسكندرية، التى يبدو أنه كـان يفكر بنقل جزء من محتويـاتها إلى روما. وقد عهـد حينئذ بـالإشراف على إنجاز هذه المكتبـة إلى أحد أشهر الكتاب الـرومانيين في عصره، مارك ت. فارون (١١٦ ــ ٢٧ق. م). وقد أخذ

فـارون بجدية هـذه المهمة وألف في إطـار الاستعـداد لذلك كتـابـه النظرى «حـول المكتبات» الـذي فقد للأسف ولم يصلنـا منه أيـة نسخة. إلا أن هذه المكتبـة لم تنجز بسبب اغتيال قيصر سنة ٤٤ق.م. وبعد عدة سنوات من اغتيال قيصر قام الشاعر والقائد العسكري أذينه بوليون بإنجاز هذه الفكرة خلال سنوات ٣٩ ـ ٣٣ ق.م وقد غطى بوليون نفقات بناء المكتبة مما غنمه في الحرب ضد الإليريين في دالماتيا. ومع أن الكثير من الكتاب اللاحقين يعتبرونها أول مكتبة عامة في روما إلا أننا لا نعرف الكثير عنهـا. ومن المعتقـد أن هـذه المكتبة كـانت مـرتبـة بشكل فخم على نمط المكتبـات اليونانية، ولكن كان هناك ما يميزها أيضا عن مثيلاتها. فقد كانت هذه المكتبة، كما تصـور فارون المكتبـة تماما تتألف من قسمين: قسم للكتب اليـونانيـة وقسم للكتب اللاتينية.

ومن الطبيعي ألا تكـون رومـا قـد اكتفت بهذه المكتبـة. فمـع بـدايـة العهـد الامبراطـوري أصبحت روما تجمع عـددا كبيرا من المثقفين والأدباء القـادمين من كل أنحـاء حـوض البحر الأبيض المتـوسط، ممـا أبـرز الحاجـة الماسة إلى مكتبـات غنيـة بالكتب. ومن هنا فقد أخذ الأباطرة يبنون باستمرار مكتبات كبيرة وفخمة. وقد بنى الإمبراطور أغسطس نفسه مكتبتين كبيرتين. فقد بنى الأولى سنة ٢٨ ق.م على رابية بالاتينـا، ولذلك أصبحت تدعى «مكتبة بـالاتينا» وبنى الثانيـة فور ذلك في «سهل مارس» على شرف أختـه أوكتافيـا. وقد كـانت هاتـان المكتبتان أيضـا، كغيرهما من المكتبات الـلاحقة، تضم أقسـاما مستقلـة للكتب اليونـانية والكتب الـلاتينية، كما كانـت ـ على نمط المكتبـات اليونـانية ـ ذات أبعاد ضخمة ومـزينة بتماثيـل الشعراء والكتاب والعلماء.

وقد استمر الأبـاطرة الذين خلفوا أغسطس في بناء المكتبـات. وهكذا فقد أقيمت مكتبة عـامة كبيرة في المعبد الكبير الذي بني تكـريما لأوغسطس وزوجته ليف، بينما تذكر لاحقا «مكتبة تيبر» دون أن نعرف فيما إذا كانت قد بنيت في عهد الإمبراطور تيبر أم لا. أما الإمبراطـور فسبازيان فقد أسس مكتبـة في «معبد السلام» الذي بنـاه بعد انتصاره على اليهود.

أما أهم مكتبة عامة في روما فقد بنيت سنة ١١٣م من قبل الإمبراطور ترايان. لقد كانت هذه المكتبة هي «مكتبة أولبيا» التي كان بناؤها الضخم يقع في «ساحة ترايان» والتي بقيت آثارها إلى اليوم. وقد كانت تتألف من بناءين متقابلين يقوم بينهما عمود ترايان. وفي الواقع أن ضخامة وفخامة ومركز هذه المكتبة بالنسبة إلى بقية المباني في «ساحة ترايان» وقربها من «ساحة رومانوم»، التي كانت من أكثر الأماكن ازدحاما بالمارة، تدل على المكانة الهامة التي أصبح للكتاب والمكتبات في وعي الرومانيين.

وفي ذلك الوقت كانت روما تؤكد مكانتها كأقوى مركز ثقافي في حوض البحر الأبيض المتوسط. وهكذا فقد أصبحت المكتبات الضخمة التي أقامها الأباطرة مكانا يجتمع فيه الشعراء والذين يلقون الشعر والفلاسفة والعلماء وباعة الكتب بضجيجهم بالإضافة إلى الجمهور الكبير الذي كان يتابع باهتمام مايجري في هذه المكتبات. وحتى «ساحة ترايان» ذاتها فقد صممت في الأصل لتكون مجمعا للعالم الثقافي المتنوع. ولذلك فقد كان فيها بالإضافة إلى المكتبة، مدرجان على شكل نصف دائرة للمحاضرات والمناقشات و إلقاء الشعر.

وفي الواقع لم يكن الموقع المتميز الذي احتلته «مكتبة أولبيا» في «ساحة ترايان» مجرد اجتهاد عمراني لأحدهم بل كان تعبيرا مقصودا لوضع الكتاب في مركز الاهتمام. ومما يدل على هذا إقامة مكتبة في حمام عام كان قد أمر ببنائه الإمبراطور ترايان. وهكذا وصلت محاولات توفير الكتاب للقراء في ذلك الوقت إلى ذروتها: توفير الكتاب للقراء في أكثر الأماكن التي يتواجدون فيها أو يتوقعون فيها. وبعبارة أخرى يصبح الكتاب متوفرا للتأكد من مسألة ما ولإنشاد الشعر منه ولقراءة النصوص الأدبية والعلمية. وبهذا الشكل ينتقل الكتاب إلى وسط الناس، وإلى قلب الحياة اليومية، عوضا عن أن ينتقل الناس إلى مكتبات معزولة ومحجوزة للنخبة المثقفة. وهكذا أصبح الكتاب جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية ووقفا عاما بأفضل مافي هذا التعبير من معنى.

وكان الأباطرة الآخرون قد تابعوا بناء الحمامات، على نمط ما قام به ترايان،

ولذلك نجد مثلا مكتبة في «حمام كاراكال» (بداية القرن الثالث الميلادي) وفي «حمام ديوكلسيان» (بداية القرن الرابع الميلادي) وغيرها. وفي الواقع أن إقامة المكتبات في الحمامات هو «اختراع» روماني كما أن الحمامات ذاتها سمة الحضارة الرومانية. فالحمامات في العصر الروماني لم تكن فقط للاغتسال والاستحمام بل كانت أيضا مكانا لاجتماعات «البزنس» والاجتماعات الأخرى. وقد مارست الحمامات لاحقا دورا مهما في الحياة الثقافية بعد أن أصبحت مكانا يجتمع فيه الشعراء لإنشاد قصائدهم والفلاسفة والعلماء الذين يستعرضون ويدافعون عن أفكارهم. وفي الواقع لقد كان المهندس الدمشقي المعروف ابولودور، الذي صمم «حمام ترايان»، أول من أخذ بعين الاعتبار هذا الدور المتعدد للحمامات في الحياة اليومية للسكان في روما. ولذلك فقد أدخل أبولودور في تصميم الحمامات قاعات للمكتبة، قاعة للكتب اليونانية وقاعة للكتب الرومانية، وقاعات أخرى للنشاطات الثقافية التي أصبحت تتم تحت سقف الحمامات بالإضافة إلى النشاطات الصحية الرياضية.

وقد كانت المكتبة التي بنيت في «حمام ديو كلسيان» في نهاية القرن الرابع الميلادي آخر مكتبة عامة تبنى في روما خلال العصر القديم وقد وصل عدد المكتبات العامة في روما حينئذ إلى ٢٨ مكتبة. ومن الطبيعي ألا تنجو هذه المكتبات من الكوارث التي لحقت بروما والإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت. فالمكتبات تتعرض دائما إلى مصير الوسط الذي أقيمت فيه وخدمت فيه، ولذلك فإن مكتبات روما أيضا أخذت تختفي الواحدة وراء الأخرى مع اختفاء المؤسسات الأخرى في روما القديمة. وهكذا فقد أورد بأسف المؤرخ مارسلين في القرن الرابع الميلادي أن كل «المكتبات قد ماتت الحياة فيها وأصبحت كالمقابر».

لقد كان مارسلين يتحدث عن المكتبات الوثنية التي حكم عليها بأن تلحق بالثقافة الوثنية. وفي الواقع لقد كانت روما، تحت تأثير الأزمات في الداخل وهجمات البرابرة في الخارج، قد فقدت تلك المكانة التي كانت تتمتع بها في عصر ازدهارها الكبير السياسي والثقافي، أي في العصر الذي كانت تضيق فيه شوارع روما بكل الخيرات المادية والروحية من كل أرجاء الإمبراطورية الواسعة. فبعد أن فقدت قوتها

الاقتصادية والسياسية خسرت روما الوثنية أيضا الأولوية في الحياة الثقافية للإمبراطورية. وهكذا فقد برزت في ذلك الوقت مراكز أخرى سياسية وثقافية وأصبح الكتاب يجد في هذه المراكز الحيوية الجديدة ملجأ له في المكتبات الكبيرة بعد أن أصبحت روما عاجزة عن أن تحمي ما خلقته خلال قرون.

هـ- المكتبات العامة في المدن الأخرى للأمبراطورية

كانت روما هي المركز الوحيد في حوض المتوسط التي تتخذ فيه القرارات السياسية والقرارات الأخرى التي تتعلق بكل الإمبراطورية بينما لم تكن المركز الوحيد في المجال الثقافي. فقد حافظت المراكز الثقافية الأخرى كالإسكندرية وأثينا على أهميتها في ذروة ازدهار الثقافة والفنون في روما، حيث إن هذه المراكز تمكنت خلال العصر القديم كله من تطوير ثقافتها وحتى من منافسة روما.

وكانت هناك مكتبات كثيرة في اليونان وآسيا الصغرى ومصر قد بنيت قبل الاحتلال الروماني حافظت على نفسها خلال العصر الروماني، بينما بنيت مكتبات أخرى خلال ذلك العصر. أما في مدن إيطاليا وأفريقية وبقية أنحاء حوض البحر الأبيض المتوسط فقد أسست فيها المكتبات لأول مرة خلال العصر الروماني.

وقد أسس أكبر عدد من المكتبات خارج روما في عهد الإمبراطور ترايان وفي عهد الإمبراطور هادريان (نهاية القرن الأول والنصف الأول للقرن الثاني الميلادي)، أي في ذروة القوة السياسية والاقتصادية للإمبراطورية الرومانية. فخلال عهد الإمبراطور ترايان أسس الأرخونت. فلاف بانتانيوس حوالي سنة ١٠٠ م مكتبة عامة في أثينا وفي ساحة المدينة (الأغورا)، حيث تمكن علماء الآثار أخيرا من تحديد موقعها ودراستها. ومن المكتشفات الهامة التي وجدت هنا لوحة منقوشة على جدار المكتبة تتضمن تحديد قواعد الاستفادة من المكتبة. وفي الواقع لقد كانت هذه القواعد الأولى التي وصلت إلى أيدينا حتى الآن. وضمن هذه القواعد نقرأ مثلا «لا يسمح بإخراج أي كتاب خارج المكتبة» وعن دوام المكتبة نجد أنها كانت تفتح «من الساعة الواحدة حتى الساعة السادسة» إلخ. وبالإضافة إلى هذه فقد أسست في أثينا مكتبة عامة كبيرة في عهد الإمبراطور هادريان.

وفي بداية القرن الثاني الميلادي أسست في مدينـة أفس «مكتبة سلزيوس» المعروفة التي دعيت على اسم ت. يول سلزيوس نظـرا لأنها بنيت تكريما له. وقد تمكن علماء الآثـار النمساويـون من اكتشـاف بقايـاها في بـدايـة القرن العشرين بفضل الأجـزاء السفلية للبناء التي بقيت في حالة جيدة جـدا، وبالإضافة إلى بعض الأجزاء المحيطة بها، فقد أصبح في الإمكـان إعادة تصور هـذه المكتبة على نحـو مؤكد. وهكـذا فقد كان بنـاء المكتبة ضخما على شكل مربع يسيطر على ذلك الجزء من المدينـة. وكانت واجهة المكتبة مـزينة بشكل فخم بصفين من الأعمدة والتماثيل. أمـا في الداخل فقد كانت تتميز هناك قاعة جميلة ١٦,٧٠×١١ م يتوسطها تمثال للإله أثينا. أما الكتب فقد كانت موضـوعة في ثلاثين خزانة مرتبة على الجدران في ثـلاثة طوابق، في الطابق الأرضي وشرفتين داخليتين.

وتجدر الإشارة هنـا إلى الكيفية التي تمكن بها مصمم المكتبة من تجنب الرطـوبة. فقد بني حـول القاعـة التي توجد فيهـا الكتب جدارا إضـافيا بحيث كـان هناك بين الجدار الخارجي والداخلي مسافة متر تقريبا.

وعلى الرغم من أن هذه المكتبة كانت في ذلك الجزء من الإمبراطورية الذي تسيطر عليه الثقافة اليونانية إلا أنها بنيت حسب الأصول العمرانية الرومانية. ومع ذلك فقد كانت هـذه المكتبة تتميـز بتفصيل مهم: كانت تحتـوي على قاعـة واحدة وليس على قاعتين واحدة للكتب اليونانية وواحدة للكتب الـرومانية. ويعتقد أن هذا قد حدث نتيجة لأن الكتب اللاتينيـة، التي كان يفترض أن توضع في هذه المكتبـة، كانت من القلة بحيث لم تكن تستحق أن توضع في قاعة مستقلة.

وقد أسس بلين (٦٢ ـ ١١٣م) مكتبة عامة في مسقط رأسه في كومون (كوموايوم) ببلاد الغال وأنفق في سبيل ذلك مئة ألف درهم. وبالإضـافة إلى هذه لدينا معطيات تشير إلى وجـود مكتبـة عـامة دوراخيـوم (دورس اليـوم في ألبـانيـا)، ثم في كـورنيت ونيماوسوس (نيم اليـوم في فرنسا) وفي قـرطاجة بعـد أن بعثت ثانية (من القـرن الثاني الميلادي). أمـا أفضل مكتبة حفظت إلى اليـوم من العصر الرومـاني فهي تلك التي

اكتشفت في آثار المستوطنة العسكرية ثاموغاد (تيمغاد اليوم في الجزائر) في نوميديا بأفريقيا الشمالية. ويعتقد أيضا أنه في إطار القصر الذي بناه الإمبراطور ديوكلسيان في سبليت (يوغسلافيا اليوم) كانت توجد مكتبة خاصة للإمبراطور، إلا أنه لم يتم حتى الآن التعرف على آثارها.

و ـ مكتبات القسطنطينية

بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية أخذ القسم الغربي يعايش أزمة اقتصادية وسياسية كبيرة بسبب التمزق في الداخل وهجوم البرابرة من الخارج، بينما كان القسم الشرقي في وضع أفضل نسبيا. وقد تمكن هذا القسم من الصمود في وجه الأعداء الخارجين أكثر من ألف سنة، بينما ساعد الأساس الاقتصادي القوي لمدنها على أن تستعيد ثانية الأولوية في العلم والأدب في حوض البحر المتوسط. وقد أخذت عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، روما الجديدة أو القسطنطينية، في بناء المكتبات و إقامة ورش النسخ في الوقت الذي بدأ فيه هذا النشاط يخبو في روما. وقد كان لنشاط النسخ هنا أهمية كبيرة جدا في حفظ مؤلفات كتّاب العصر الوسيط، لأنه في القسطنطينية بالذات كان من الممكن أن تنسخ مؤلفات هؤلاء الكتاب بنوع من الثقة وأن تحفظ بالتالي للأجيال القادمة.

وكان الإمبراطور كونستانس الثاني قد أسس في القسطنطينية المكتبة الإمبراطورية الكبيرة، وذلك لخدمة المدرسة العليا التي كانت قد أسست من قبل. وقد نمت المكتبة بسرعة بفضل هدايا الأباطرة اللاحقين، ثم زودت بقاعات فخمة في القصر الإمبراطوري بالذات. وفي هذه المكتبة كانت ورشة النسخ منظمة بشكل ممتاز مما كان يوفر إمكانية النسخ الممتاز لكل الكتّاب الوثنيين الكبار من يونانيين ورومانيين وللكتاب المسيحيين، بالإضافة إلى نسخ الكتاب المقدس. وكما في الإسكندرية سابقا فقد كان يجتمع في هذه المكتبة العلماء من كل المراكز الثقافية للشرق، الذين كانوا يعلمون في المدرسة العليا، بالإضافة إلى أولئك الذين كانوا يستفيدون من المكتبة في نشاطهم العلمي أو الأدبي.

لقد كانت هـذه آخر مكتبة كبيرة في العصر القديم يتم فيهـا جمع ونسخ مؤلفات كل كتاب العصر القـديم. فقد كانت الإمبراطـورية الرومـانية الشرقية آخـر دولة من بقايا العصر القديم، ولذلك كان يمكنها أن تؤسس وتطور مكتبة من هذا النوع.

وللأسف فقـد تعرضت هـذه المكتبة، بعد أن أصبحـت تضم ١٢٠ ألف كراس خلال ١٢٠ سنة من وجودها، للدمـار نتيجة للحريق الذي شب في جزء من المدينة سنة ٤٧٥م خـلال الحرب الأهلية حينئذ. ومع أن المكتبة جـددت بسرعة، إلا أنها لم تستطع أبدا أن تسترد ضخامتها وأهميتها كما في السابق.

وإلى جانب هـذه المكتبة كـانت هناك في القسطنطينيـة عدة مكتبـات أخرى من أهمها مكتبـة البطريركيـة ومكتبة ديـر ستوديون. وفي هـذا الدير كـانت توجـد ورشة للنسخ تتميز بنشاطها الكبير.

وفي الواقع لقد كان نشاط النسخ لا يقتصر على القسطنطينية فقط بل كان يزدهر أيضـا في المدن البيـزنطيـة الأخـرى، حيث أسست أيضـا مكتبـات هـامـة. ومع أن أكاديمية أثينـا قد حافظت على أهميتهـا الكبيرة في الحفاظ على التراث الثقافي للعصر القـديم، إلا أنه لم يقل عنهـا أيضا دور المراكـز الثقافيـة الأخرى كغـزة في فلسطين، وأنطـاكية وبيروت وبقيـة المدن التي كانت تحتـوي على مدارس تضم معـارف وأدب العصر القديم.

إلا أن الأزمة التي شملت العالم القديم، منـذ نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط، لم توفر الإمبراطـورية الرومانية الشرقية. فقد أخـذت المراكز الثقافية الكبيرة في الاضمحـلال فيما أخذت المدارس المذكـورة تغلق أبـوابها الواحـدة بعد الأخـرى. وهكذا في نهاية القرن السادس لم يبق منهم شيء خارج الإسكندرية والقسطنطينية.

ز ـ المكتبات المسيحية في العصر الروماني

أخذ المسيحيون يجمعـون الكتب في وقت مبكر سواء لحاجة مـدارسهم الدينية أو لحاجـاتهم الدينيـة الأخرى. إلا أن عـدد هذه المدارس كـان قليلا في القـرون الأولى

للإمبراطورية الرومانية، كما أنه لم تتوفر للمسيحيين في ذلك الوقت الإمكانية لتجميع الكتب أو للمشاركة في إنتاج الكتاب. وبالاستناد إلى المعطيات التي لدينا عن الكتب والمكتبات يمكن القول إن مجموعات الكتب كانت متواضعة وفي أغلب الأحيان كانت عبارة عن نسخ للكتاب المقدس وكتابات تدافع عن المسيحية في السجالات التي كانت تدور مع الهراطقة والوثنيين. وقد كانت هذه المكتبات المتواضعة توجد على الأغلب في الكنائس وفي مراكز الأسقفيات وفي المؤسسات الكنائسية الأخرى.

ولكن منذ نهاية القرن الثاني الميلادي أصبح لعلماء الإسكندرية، ككلينت الإسكندري وأوريغن، مدرستهم الدينية ومكتبتهم التي تتضمن ورشة للنسخ. ونظرا للمصاعب التي واجهها في الإسكندرية فقد اضطر أوريغن لاحقا إلى الانتقال إلى قيسارية بفلسطين، حيث أسس مدرسة ومكتبة على نمط مكتبة الإسكندرية الوثنية. وبالاستناد إلى ما يقوله أسيدور فقد كانت هذه المكتبة تحوي ٣٠ ألف كتاب (لفافة)، أي أنها كانت في أهميتها للمسيحيين مثل أهمية مكتبة الإسكندرية للثقافة الوثنية.

وقد انتقلت إدارة هذه المكتبة بعد وفاة مؤسسها سنة ٢٥٣م الى يد تلميذه بامفيل، الذي وضع فهرسا لها. وفي هذه المكتبة كانت تُجمع بشكل منظم وتنسخ مؤلفات الكتّاب المسيحيين، ولذلك فقد تمكن فيها المؤرخ والفيلسوف المسيحي المعروف أوزب (٢٦٥ ـ ٣٤٠م) أن ينجز مؤلفه الكبير «تاريخ الكنيسة».

وفي هذه المكتبة كانت توجد أيضا ورشة للنسخ، منظمة بشكل جيد، حيث كان يتم فيها تحقيق مؤلفات الكتّاب المسيحيين والمؤلفات الدينية بشكل عام. وقد كانت هذه الورشة من أشهر ورش النسخ المسيحية في ذلك الوقت، ولذلك فقد أوصى الإمبراطور قسطنطين هذه الورشة بالذات على ٥٠ نسخة من الكتاب المقدس لمكتبات القسطنطينية.

وفي سنة ٢١٢م أسَّس الأسقف الكسندر مكتبة مسيحية في القدس، وذلك على

نمط مكتبة الإسكندرية الوثنية أيضا. وإلى جانب هذه المكتبات في الشرق فقد أسس المسيحيون مكتبات لهم في روما أيضا. ومن أهم هذه المكتبات كانت تلك التي أسسها بابوات روما، إلا أننا لا نملك معطيات عن بداية تأسيسها ويبدو أن هذه المكتبة، التي كانت تستعمل أيضا كمركز للوثائق، قد أسسها البابا داماس الأول في القرن الرابع الميلادي في كنيسة القديس لورنس. ولكن هذه المكتبة أيضا، كبقية المكتبات التي أسست في ذلك الوقت في روما، لم تكن لها أهمية كبيرة.

وقد كان أكبر وأهم من هذه بكثير بعض المكتبات الخاصة التي أوجدها بعض العلماء المسيحيين لأجل حاجاتهم الخاصة. ومن هذه تذكر مكتبة القديس أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) الفنية التي تركها لكنيسة مدينة هيبون(*)، حيث عمل أسقفا في أواخر حياته. وقد كان للكاتب المسيحي ترتوليان (حوالي ١٦٠ ـ ٢٢٠م) مكتبة غنية، بينما كان للقديس يورنيم مكتبتان واحدة في روما والثانية في بيت لحم بفلسطين، حيث أسس ديرا هناك وأنجز بهدوء ترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية.

وفي الواقع لقد كان هناك الكثير من أمثال هذه المكتبات الخاصة سواء في الغرب اللاتيني أو في الشرق اليوناني. وقد كانت هذه المكتبات المسيحية، سواء كانت مملوكة للمؤسسات الكنائسية أو للأفراد، تحتوي على الكتب المسيحية وكتب المؤلفين الوثنيين من يونانيين ورومانيين. وإذا ما تجنبنا بعض الاستثناءات النادرة نجد أن المثقفين المسيحيين ـ وخاصة القديس أوغسطين والقديس يورنيم ـ لم يكن لديهما موقف طائفي أو متعصب من الكتّاب غير المسيحيين (الوثنيين)، بل إنهم كانوا يعتبرون التعرف على هؤلاء شرطا لابد منه للثقافة الشاملة ولفهم ودراسة الكتاب المقدس. وبفضل هذا الموقف المتسامح للمثقفين المسيحيين من الكتاب الوثني في نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث فقد احتلت الكتب الوثنية مكانة خاصة في المكتبات المسيحية.

(*) الاسم القديم لمدينة عنابة الجزائرية ـ (المترجم).

المراجــع

حول الكتاب بشكل عام في العالم اليوناني ـ الروماني لدينا :

Th. Birt, Das antike Buschwesen, Berlin 1882 (reprint: Aalen, Scientia, 1969);

Th. Birt, Die Buchrolle in der Kunst, Archaologisch antiquarische Untersuchungen zum Buchwesen, Leipzig 1907;W. Schubart, Das Buch bei den Griechen und Romern, 2 Aufl. Berlin 1921;

H. L. Pinner, The World of books in clasical antiquity, Leiden 1948;

F. G. Kenyon, Books and Readers in Ancient Greece and Rome, 2 ed., Oxford 1951;

Libri, editori e pubblico nel mondo antico, A cura di G. Cavallo, 2 ed., Bari 1977;

وحول الـرقم الفخارية في الثقـافة الكـريتية ـ الميسينيـة وقراءة الكتابـة الخطية B انظر:

M. Ventris-J. Chadwich, Documents in Mycenaean Greek, Cambridge 1956;

J. Chadwich, The Deciphrement of Linear B, Cambridge 1958;

L. A. Stella, La civitta micenea nea documenti contemporanei, Roma 1965;

L. R. Palmer, Mycenaeane and Minoans, Aegian Prehistory *in* Light of the Linear B tablets, London 1965;

وحول الكتابة في اليونان:

W. Schmitz, Schiftseller und Buchandler in Athen und im ubrigen Greichenland, Heidelberg 1876;

E. G. Turner, Athenian Books in the fifth and fourth centuries B. C., London 1952;

E. A. Havelock, Cultura orale e civilta della scrittura, Da Omera a Platone, Roma-Bari 1973;

وحول الكتـاب لدى الاتروسك، وخاصـة فيما يتعلق بالدين لـدى الاتروسك، لدينا أهم المعطيات لدى:

G. Dumezil, La religione romana arcaica, Milano 1977

وانظر أيضا:

J. Heurgon, Daily Life of the Etruscans, London 1964.

وحول الكتاب في روما والإمبراطورية الرومانية انظر:

L. Haenny, Schriftsteller und Buchhandler im alten Rom, Leipzig 1885;

C. H. Roberts, The Codex, Proceedings of the British Academy, 40 (1954), p.169-204;

T. Kleberg, Bokhandel och bokforlag i antiken, Stochholm 1962

ولدينا ترجمة جزئية لهذا الكتاب في الإيطالية:

Libri, editori e pubiico nel mondo antico, Bari 1977;

وبشكل خاص حول إنتاج الكتاب من قبل المسيحيين في العصر القديم انظر:

T. C. Skeat, Early Christian Book Production: Papyri and manuscripts, The Cambridge History of the Bible, II, Cambridge 1969, p. 54-79;

وحول مواد الكتابة وأدوات الكتابة بشكل عام انظر:

C. Paoli, Programma scolastico di paleografia latina e di diplomatica, II, Materie scrittorie e librarie, Firenze 1894;

وبشكل خاص عن البردي :

N. Lewis, Papyrus in Classical Antiquity, Oxford 1974;

وانظر حول هذا الكتاب القيم :

W. Schubart, Einfuhrung in die papyruskunde, Berlin 1918;

وكذلك دراسة :

K. Preisendanz, Papyruskunde, Handbuch der Biblithekswissenschaft, 2 Aufl., Wiesbaden 1952, Bd. I. p. 163-248;

وهنا لـدينا قائمة تحتـوي على كل المراجع المتعلقة بالموضوع . وفيما يتعلق بـانتاج الكتاب انظر:

F. W. Beare, Books and Publications in the Ancient World, University of the Toronto Quarterly, 14 (1945), p. 159-167;

E. Arns, La technique du livre d'apres Saint Jerome, Paris 1953;

H. L. M. van der Valk, On the edition of books in antiquity, Vigiliae Christianae, 11 (1957), p.1-10;

H. Widmann, Herstellung und Vertrieb des Buches in der Griechisch-romischen Welt, Archiv fur Geschichte des Buchwesen, 8 (1957), p.545-640;

وحول القراءة العلنية للأدب لدينا تفصيلات وافية لدى :

F. Orlando, Le letture publiche nella Roma imperiale, Faenza 1907;

وبالإضـافة إلى كتـاب Kleberg لابد أن نـذكر هذه المؤلفات التي تتنـاول إنتاج الكتاب وبشكل عام توزيع الكتاب في العصر القديم :

R. Sommers, T. Pomponius atticus und die Verbreltung von Ciceron Werken, Hermes, 61 (1926), p.389-442;

F. Reichmann, The Book Trade at the Time of the Roman Empire, Library Quarterly, 8 (1938), p.40-75;

A. F. Norman, The Book Trade in at fourth-century Antioch, Journal of Hellenic Studies, 80 (1960), p. 122-126;

وحول الرقابة وإحراق الكتب في العصر القديم لابد من الرجوع إلى :

C. A. Forbes, Books for the Burning, Transactions and Proceedings of the American Philological Association, Vol 67 (1936), p. 114-125;

F. H. Cramer, Book Burning and Censorship in Ancient Rome, Journal of the History of Ideas, 6 (1945), p. 157-196;

W. Speyer, Buchervernichtung, Jahrbuch fur antike und Christentum, 13 (1970), p.123-152;

M. I. Finley, La censure dans l'Antiquite, Revue historique, 104 (1980), V. 263, p. 3-20;

وفيما يتعلق بالمؤلفات المرجعية في العصر القديم انظر:

F. Schmidt, Die Pinakes des Kallimachos, Berlin 1922;

F. Leo, Die griechische-romische Biographie nach ibrer litterarischen Form, Leipzig 1901;

وحول التراجم اليونانية بشكل خاص انظر:

A. Momigliano, Lo Svilupo della biografia greca, Torino 1974;

وفيما يتعلق بالمكتبات في العالم اليوناني ـ الروماني انظر:

F. Poland, Offentliche Bibliotheken in Griechenland und Kleinasien, Leipzig 1894;

J. W. Thompson, Ancient Libraries, Hamden 1962;

C. Wendel, Kleine Schriften zum antiken Buch-und Bibliothekswesen, Koln 1974;

ولدينا دراسات أخرى تحتوي على مصادر ومراجع غنية :

C. Wendel-W. Gober, Das Greichische-romische Altertum, Handbuch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufl., Wiesbaden 1955, Bd. III, 1, p.51-186;

وحول مكتبة الإسكندرية بشكل خاص انظر:

E. Hannak, das Museum und die Bibliotheken in Alexandria, Wien 1867;

V. Nourrisson, La Bibliotheque des Ptolemees, Alexandie 1893;

V. Gardthausen, Die Alexandrinische Bibliothek, Leipzig 1922;

E. A. Parsons, The Alexandrian Library, Glory of the Hellenic World, London 1952;

وفيما يتعلق بالمكتبات العامة في روما انظر:

F. Garbelli, Le biblioteche in Italia all'epoca romana, Milano 1894;

A. Langie, Les blibliotheques publiques dans l'ancienne Rome et dans l'Empire Romain, Fribourg 1906;

E. Makowiecka, The origin and evolution of architectural form of Roman Library, Warszawa 1978;

وحول المكتبات الخاصة في روما انظر:

T. Putz, De M. Tulli Cicerons bibliotheca, Munster 1925;

Ch. Jensen, Die bibliothek von Herculaneum, Bonner Jahrbucher, 135 (1930), p. 49-61;

C. Gallavotti, La custodia dei papiri nella villa suburbana Ercholanese, Bollettino del R. Istitu di patologia del libro, 2 (1940). p. 1-11;

T. Kleberg, Bibliophiles in ancient Rome, Libri, 1 (1950), Nr. 1,

p.2-12;

T. Kleberg, Bucherlieberei und private Buchersammlungen in der romischen Kaiserzeit, Festschrift Josef Stummvol, I, Wien 1970, p.401-409;

R. Cagnat, Les bibliotheques municipales dans l'empire romain, Memoires de l'Institut National de France, Acad des inscrin et belles-lettres, 28, 1, (190);

وحول «المكتبة الامبراطورية» الخاصة في القسطنطينية انظر:

C. Wendel, Die erste kaiserliche Bibliothek in Kostantinopol, Zeittschrift fur Bibliothekswesen, 59)1942), p. 193-209;

وبشكل خاص حول المكتبات الخاصة للرومانيين المتعلمين انظر:

A. V. Harnach, Tertullians Bibliothek christlicher Schriften, Sitzungsberichte der Preuss, Akademie der Wissenchaften (1914), p. 303-334.



الفصل الرابع
أوربا في العصر الوسيط

في بداية العصر الوسيط تشكلت ثلاثة أقاليم ثقافية وسياسية كبيرة على أنقاض الإمبراطورية الرومانية. ففي الجزء الغربي للإمبراطورية الرومانية ستبرز عدة دول يتم فيها اندراج البرابرة في تلك البنيات الاقتصادية ، والقانونية للدولة الرومانية التي استمرت حتى ذلك الوقت، وذلك لأن البرابرة كانوا غير قادرين على استبدالها بما هو أفضل. إلا أن العالم الذي خلقه البرابرة كان بعيدا عن أن يكون استمرارا لعالم العصر القديم مع أنهم حاولوا تقليد الأسلوب القديم للحياة الرومانية قدر الإمكان والحفاظ عليه أطول مدة ممكنة، كما حدث لدى القوط الغربيين في إسبانيا واللونغوبارديين في إيطاليا.

أما في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي تمكنت من الصمود في وجه البرابرة وحافظت على استمراريتها المؤسسية ـ القانونية مع الإمبراطورية الرومانية، فقد أصبح من الصعب الحفاظ على البنية الاقتصادية والاجتماعية القديمة بحيث أن هذه الدولة أيضا ـ بملامحها المتميزة ـ ستكون ثمرة العصر الوسيط في الجانب الروحي.

وفي شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط، وفي الشرق بشكل عام، ستتطور قوة جديدة (الإسلام) في جوانب تختلف تماما عن تلك الموجودة في الحضارة اليونانية الرومانية مع أن نهضتها الثقافية قد استندت إلى حد ما على التراث اليوناني ـ الروماني الذي صادفته في المناطق المفتوحة.

وفي الكارثة الكبرى التي لحقت بالحضارة اليونانية ـ الرومانية في نهاية العصر القديم كان الكتاب قد لعبَ دورا هاما للغاية في الحفاظ على نوع من الاستمرارية بين ثقافة العصر القديم، التي كان قد حكم عليها بالفناء، وبين ثقافة العصر الوسيط

التي بدأت تتشكل في ذلك الوقت.

ففي الغـرب كانت الإمبراطـورية الـرومانيـة المنهكة قد تحولـت إلى غنيمة مغـرية للجرمانيين وبقيـة الشعوب البربرية التي أخـذت بأعداد متزايدة وبسهـولة أكبر منذ نهاية العصر القديم في عبور الليمس (Limes) التي كانت محصنة فيها مضى، ولهذا ساهموا بفيضانهم المدمـر في القضاء على عالم العصر القديم. وقد أدى الـدمار الذي لحق بالزراعة والمناجم والحرف والإدارة الحكومية، وخاصة بشبكة الطرق الممتازة التي كـانت تصل حتى أبعد المدن في الإمبراطـورية، إلى عـواقب غير متوقعـة بالنسبـة إلى إنتاج الكتاب وتوزيعه.

وهكذا فقـد حلت بـالكتاب والمكتبـات أيام صعبـة. فقد انهار الأسـاس الذي كانت تقوم عليـه ثقافة الكتاب، إلا أن هذا الانهيار لم يتم في لحظـة واحدة وفي صورة واحدة بالنسبة لجميع المناطق. فقد نجحت الشريحة العليا المثقفة في المجتمع الروماني في الاستمرار بإنتاج الكتاب لفترة أخرى من الزمن، إلا أن هجوم اللونغوبارديين على إيطاليـا منذ نهايـة القرن السـادس، بالإضـافة إلى هجمات البرابـرة وغيرهم على بقية أرجاء الإمبراطوريـة في ذلك الوقت أو حتى قبل ذلك، قد هـز الأساس الاقتصادي الذي كان يبقي على قيد الحيـاة بقايا النخبة الرومانيـة المثقفة القديمة، أو على الأقل تلك الشريحة المسيحية المتعلمة التي بقيت تحيي إنتاج الكتاب بطلباتها.

إلا أن هذا العالم الارستقـراطي والمثقف كان قد أخذ يتلاشى مع تـلاشي القاعدة الاقتصـادية ومـؤسسـات المجتمع القديـم، بحيث ارتبط في الغرب مصير الكتـاب القديم ومصير المسيحية بشكل قوى مع بقايا هذه النخبة الاقتصادية والثقافية.

وهكذا فقـد كان الإصرار على نسخ كتاب العصر القـديم في ورش النسخ المدنية الآخـذة في التناقص، ثم في ورش بعض الأديـرة، يعود بشكل جـزئي على الأقل إلى وعي هذه النخبة في وجه الغزاة القساة غير المتحضرين.

أ ـ مصير الكتاب في فجر العصر الوسيط

استمرت ورش النسخ المدنية في عملها لمدة من الوقت في بداية العصر الوسيط،

أي طالما استمرت بقايا النخبة الرومانية المتعلمة محتفظة بقوتها المادية والاجتماعية ومواظبة على طلباتها التي كانت تشغل هذه الورش. إلا أن الحروب الطويلة والمنهكة مع البرابرة قد أدت إلى تلاشي المجتمع القديم، الذي تلاشى معه أيضا التنظيم القديم لإنتاج الكتاب والدور الاجتماعي القديم للكتاب. فبعد أن كان الكتاب في العصر القديم أداة لنقل المعلومات العلمية والأدبية وغيرها في الدرجة الأولى أصبح الآن في بداية العصر الوسيط يتحول إلى مادة للتقديس والسحر. وبعبارة أخرى فقد بقي الكتاب يحتفظ بمكانته كمنبع للمعرفة في بعض الحالات الاستثنائية، في محيط ما أو لدى فرد ما على وجه التحديد. وعلى الرغم من محاولات كاسيودور Kasiodor وغيره للحفاظ على الدور القديم للكتاب إلا أن هذه الجهود لم تثمر في ذلك الوقت في معظم المناطق السابقة للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ماذا جرى لكتب المكتبات الكثيرة في روما وفي بقية المدن الكبيرة في أوروبا؟ هل أحرقت كل الكتب ياترى من قبل البرابرة والمسيحيين ومعارضيهم وغيرهم ممن اندفعوا لحرق الكتب لدوافع مختلفة؟ لاشك في أن كميات كبيرة من الكتب قد تلاشت إلى الأبد مع تلاشي حضارة العصر القديم، إلا أننا نعرف في المقابل أن الكثير من الكتب قد وجدت ملجأ لها في المكتبات الجديدة المسيحية، في الأديرة والكنائس ولدى الأفراد المتعلمين في إيطاليا وأفريقيا الشمالية وإسبانيا بشكل خاص.

وهكذا نعرف مثلا أنه حتى القرن السابع، أي حتى قدوم العرب، كانت الكثير من الكتب لاتزال متوفرة في أفريقيا الشمالية وأن ورش النسخ كانت تعمل هناك بطاقة جيدة حتى أن كاسيودور كان يأمل أن يجد هناك بعض المخطوطات لمكتبته التي كان قد أسسها في فيفاريوم Vivarium.

ومن هذه الكتب، سواء التي حفظت من عهد أقدم أو نسخت في أفريقيا الشمالية، سيصل قسم منها إلى إسبانيا خلال القرنين ٦-٧ حيث وفر القوط الغربيون، بعد اعتناقهم للمسيحية، ظروفا ملائمة للازدهار الأخير للمعرفة

المسيحيـة المبكرة التي حظى بها التراث القديـم، وحتى الوثني، بالاحترام. وفي هذا الجو من التسـامح برز في إسبـانيا في بداية القرن السـابع القـديس ايزيدور Izidor الإشبيلي (٥٧٠ ـ ٦٣٦م)، الذي ألف «الإتيمـولوجيا» Etymologiae (*) وهـو العمل الموسوعي الأخير للعصر القديم. ولإنجاز هذا العمل استند ايزيدور إلى عدد كبير من مؤلفات الكتّـاب في العصر القديم، التي كان يمكن أن يجدهـا بسهولة إلى حد ما في إسبانيا.

ويكفي كحقيقـة في حـد ذاتها أن نذكـر أن هـذا المؤلِّف تمكن من إنجـاز عمل موسوعي طموح بهذا الحجم لكي نتصور. أن ثقافـة الكتاب كانت قد تطورت نسبيا في إسبانيا خلال ذلك الوقت. وكان هـذا العمل الموسوعي قد أثار اهتماما كبيرا لدى معاصريه، ولـذلك فقد انتشر بسرعة في كل أوربا الغـربية لأن الكثير من المثقفين في ذلك الوقت كـانوا يتصلون ثانيـة مع عالم المعرفة والأدب اليـوناني ـ الرومـاني عبر هذا الكتاب.

وهكذا فقـد بقيت هذه الموسوعة المسيحيـة الأولى على الرغم مما فيهـا من أخطاء ومن سذاجـة، هي المصدر الـوحيد الـذي لاغنى عنه للمعلـومات لفترة طـويلة من الزمن.

وقـد أدى فتح العـرب لإسبانيـا إلى نتـائج مشـابهة لما حدث بـالنسبـة إلى مصير الكتاب في أفريقيـا الشمالية: لجوء عدد من الرهبان والقساوسـة مع كتبهم إلى إيطاليا وفرنسا وغيرها من البلدان التي بقيت خارج الفتح العربي.

ونتيجـة لهذا نجـد أنه في بعـض الأديرة، التي لجأ إليهـا هـؤلاء، استمـرت لفترة طويلة من الـزمن ممارسة الكتابـة بالأبجدية واللغـة القوطية الغربية، التـي كانت قد ازدهرت في إسبانيا في بداية العصر الوسيط.

وعلى الرغم من هذا فقد بقيت إيطاليا هي البلد الذي أنتج أكبر عدد من الكتب

(*) العلم الذي يهتم بدراسة أصول الكلمات وتاريخها. (المترجم)

في بـداية العصر الـوسيط. ففي إيطـاليا لم يحدث أي انقطـاع في ثقـافة الكتـاب من العصر القديم حتـى العقد السابع مـن القرن السادس الميـلادي، أي حتى تأسيس وتوطيد دولـة اللونغوبارديين. وهكـذا فقد استمر كاسيـدور وغيره في نسخ المؤلفات العلمية والأدبية للعصر القديم، مع إن هذا كان يتم في حجم أقل مما في السابق.

وفي ذلك الوقت بقيت في إيطاليا أهم ورش النسـخ التي كانت تلجأ إليها الأديرة والكنائس من مختلف البلـدان الأوربية، بالإضـافة إلى الحكـام، لأخذ مايلـزمها من الكتب لمكتبـاتها. ومما ساعـد دون شك على استمـرارية إنتاج الكتـاب بهذا الشكل تحول روما إلى مركز للمسيحية ومحاولات الأسياد الجدد للحفاظ على هذا المستوى من إنتاج الكتاب لتلبية الحاجات الدينية في الدرجة الأولى.

وقد أصبحنا نعرف الآن بعض المعطيات عن النساخ وباعة الكتب في روما خلال القرن السادس الميلادي. وهكـذا نعرف مثلا المدعو غاوديوسـوس الذي كان يملك ورشة للنسخ قرب كنيسـة القديس بطرس. وهنا لا يتعلق الأمـر براهب أو قس يقوم بنسخ المؤلفـات حسب أوامر رؤسـائه بل بصـاحب عمل حـر يقوم بنسخ المؤلفـات حسب الطلب.

إلا أن زمن هـذا وأمثاله كـان يتلاشى، إذ أخـذ نسخ المؤلفات ينتقـل إلى الأديرة والكنائس والمدارس الـدينية. فكما في مصر وسوريا أخـذ يبرز في إيطاليا أيضـا عدد متزايد من الأديرة التي أصبحت تشارك خلال العصر الوسيط في إنتاج الكتاب. وفي الواقع لقد كـانت هذه الأديرة بالإضافة إلى ورش النسخ في الكـاتدرائيات والكنائس الكبيرة هي المراكز الوحيد لإنتاج الكتاب في الغرب إلى أن تم أخيرا إنتاج ورش مدنية للنسخ في إطار الجامعات.

ولابد أن نـذكر هنـا بعض ورش النسخ في قصـور الحكام، إلا أن دور هـذه كان لايقارن مع دور الورش الدينية.

ب ـ تراجع الكتابة

كان تدمير النظـام المدرسي، الذي كانت تقوم عليه ثقافـة العصر القديم، أحد

أسوأ نتائج الغزو البربـري للإمبراطورية الرومانية. وفي الواقع أن هـذا النظام لم يدمره البرابرة بشكل مباشر في كل مكان وفي كل زمـان، إلا أن ظهورهم العاصف كان قد جرف أمامه بقايا المؤسسات الحكومية التي كانت تزود المدارس بما تحتاجه من موظفين ودبلومـاسيين ورجال ديـن وغيرهم. وبعبارة أخـرى لقد أدى زوال هـذه المؤسسات إلى أن تصبح غـــالبيـــة المدارس، وحتى المعلمين الخصـــوصيين، دون عمل يبرر استمرارها. وفي هـذه الحالة تحولت الاديرة إلى واحات للكتـابة، إلا أن هذا لا يعني أن كل الرهبان فيها كـانوا يعرفون القراءة والكتابـة. فالقديس بنيديكت (*) نفســه يتعـرض في كتابـه «التعليمات» الـذي وضعه لـديـر جبل كاسينـو إلى ذكـر الرهبـان الأميين.

أما خارج هذه الأديرة فقد كانت الأمية تكـاد تكون شاملة. وهكذا نجد أن البابا غريغور الكبير يوجه، بتأثير هذا الوضع، تعليماته المفصلة إلى الأساقفة ورجال الدين الآخرين حول مايجب عليهم أن يعملـوه لكي يشرحوا للأميين معنى الإنجيل والعلم المسيحي بشكل عام.

ففي رسالة له إلى الأسقف روفين في أفيس يوضح مثلا أنه بالنسبة لأولئك الذين لايعرفـون القراءة «لتكـن كلمتكم هي الكتاب». وبعبـارة أخرى لقـد كان غـريغور الكبير يصر على أهمية الوعظ بواسطة الكلمة الحية لأنه كان يعرف جيدا مدى انتشار الكتابـة في أوربا المسيحية، بحيث أن أفكـاره حول كيفيـة التواصل مع المؤمنين تعبر عن الوضع، وبالتحديد عن المشكلة الكبيرة التي كانت تواجه الكنيسة حينئذ.

وبـالمقـارنـة مع العصر القديـم كان الكتـاب قـد فقـد الكثير من قيمتـه كأداءة للتواصل. ومع هذا، وعلى الرغم من الصعوبـات الكبيرة وخاصة الدمار الذي لحق بطرق المواصـلات، فقد بقي حيـا ذلك التقليد الذي كـان يحرص عليه أفـراد النخبة المثقفة، ورجال الـدين والموظفون ـ الا وهو تبادل الرسـائل، فقد بقى أفضل وسيلة للتواصل.

(*) القديس بنيديكت (حوالي ٤٨٠ ـ ٥٤٧ م) راهب إيطـالي ومؤسس رهبانية البنيديكتيين في جبل كاسينو، وضع دستورا للحياة الرهبانية لايـزال متبعا حتى اليوم في الكثير من الرهبانيات الأوربية. (المترجم).

وهكذا نجد مثلا أن القديس يورنيم يكتب عددا كبيرا من الرسائل، وتبعه في ذلك البابا غريغور الكبير في وقت لاحق. وقد كانت هذه الرسائل، وخاصة تلك التي كان يكتبها البابوات والأساقفة، تقرأ في الكنائس بحيث إن وصاياهم كانت تقطع طريقها بسرعة لتصل إلى جمهور المستمعين. وفي الواقع لقد كانت هذه الرسائل التي يبعثها البابوات والأساقفة، تتضمن مواعظ أخلاقية وتعليمات دينية أكثر مما كانت معلومات صحيحة.

وبعبارة أخرى فقد كانت أوربا تعود مرة أخرى إلى التواصل الشفوي لأن الكلمة المكتوبة أصبحت نادرة وغير مناسبة للتواصل مع معظم الناس. وقد كان الأفراد المتعلمون يرون في غياب المدارس بالذات العقبة التي تحد من الدين والحفاظ عليه، ولذلك فقد سعوا بكل مافي وسعهم لتطوير التعليم. وقد تمكن حينئذ الراهب الإنكليزي الكوين Alkuin (٧٣٥ ـ ٨٠٤م) أحد أشهر المتعلمين في بداية العصر الوسيط، من أن يقنع صديقه الملك كارل الكبير (شارلمان) بأن يهتم أكثر بقضية التعليم وهكذا فقد أمر هذا الملك القوي، الذي كان نصف أمي (كان يقرأ بصعوبة بينما لم يتعلم الكتابة أبدا)، بفتح المدارس في الأديرة والكنائس الكبيرة مما ساهم بهذا الشكل في بعث الكتابة ثانية ولو في دائرة ضيقة من دوائر المجتمع في ذلك الوقت. وقد أدى تأسيس المدارس في ذلك الوقت إلى تزايد الطلب على الكتاب المدرسي وعلى الكتب الأخرى مما زاد الأقبال على نسخ النصوص القديمة، وخاصة نصوص القواعد، وتأليف النصوص الجديدة تلبية لحاجات التلاميذ والمعلمين. ولقد كان هذا في الواقع أهم نتيجة للنهضة الكارولية (*) فيما يتعلق بتاريخ الكتاب.

وفي الواقع لم يكن من السهل توصيل «علم المسيح» لـ «الرعاع» (vulgus) الأميين. لقد كانت الكلمة الحية، التي كان يركز عليها البابا غريغور الكبير بحماس كبير، هي أفضل أداة للتوصل إلى هذا الهدف مع أنها لم تكن الأداة الوحيدة. وهكذا فقد كان غريغور الكبير نفسه ينصح في رسائله الكثيرة، التي كان يبعثها للأساقفة، باستخدام أداة فعالة للتواصل مع المؤمنين : الرسم.

(*) نسبة لإمبراطور الغرب كارل الكبير، مؤسس السلالة الكارولية، الذي جعل إكس لاشابل (آخن) عاصمة له، وحاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة سنة ٧٧٨م (المترجم).

ج ـ الـرسم كـأداة للتواصـل

لقد عرفت أهميـة الرسم كأداة للتواصل في كل الحضارات القديمة، وبـالتحديد من المصريين الذين زينـوا «كتب الموتى» بمشاهد من الحياة الأخـرى وحتى اليونانيين والـرومانيين وقـد كـانت هنـاك في العصر القديم، على مـانعـرف، الكثير من كتب الرياضيات وعلم النبات وغيرها من العلوم التي زينت بالرسوم.

ويخبرنا بلين الكبير أن العـالم الكبير فارون قد وضع قـاموسا ضخما للأعـلام زينه بـرسـوم ٧٠٠ شخص من الشخصيـات المشهـورة. وبهذا الشكل، كما يضيف بلين الكبير، فقد استطاع المؤلف «أن يجعلهم حاضرين في كل مكان كالآلهة».

ومع التراجع العام للكتـابة في نهاية العصر القديم وبدايـة العصر الوسيط أصبح الـرسم وسيلة أهم للتـواصل بين تلك الشريحة من الكهنـة ومن رجال الـدين، وبين المؤمنين من ناحية أخرى. ولم يكن البـابا غريغور الكبير، الذي مر ذكـره سابقا، هو الوحيـد الذي أدرك هذه الأهمية بل إن كل رجـال الكنيسة قد أدركـوا ذلك أيضا من خلال عملهم اليومي، وبالتحيد في بحثهم عن أفضل وسيلة لشرح أحداث الكتاب المقدس للمؤمنين.

وهكـذا نجـد أن غـريغـور الكبير نفسـه يشرح بشكل واضح في رسـالـة لـه إلى الأسقف سيرين Seren في ماسيل (مرسيليا اليوم) أهمية الرسم في وعظ «الحمقى»، أي الأميين ففي هذه الرسالة المؤرخـة في تشرين الأول سنة ٦٠٠م يوضح صاحبها أن الكتابـة بالنسبة للمتعلم تعادل الـرسم بالنسبة لـ «الحمقى»، لأن الرسم يمكن أن يقرأه الذين لايعرفون فك الحروف.

ونتيجـة لهذه المفاهيم فقـد ظهرت لفـافات مثيرة مصنـوعـة من الرقـوق ومزينـة بمشاهـد من الكتاب المقدس ورموز مختلفـة بالإضافـة إلى رسوم الحكام الذين كـانوا حينئذ في السلطة. وكان الشماس خلال قـراءة النص من على المنبر يفرد ببطء اللفافة بحيث يمكن للمـؤمنين أمامـه أن يشاهـدوا الرسـوم وأن يتابعـوا النص الذي يقـرأه عليهم. ونظرا لأن الـرسم كان يجب أن يكون في وضـع عمودي ليناسب المشـاهدين

فقد أصبح النص يكتب أيضا في هذا الوضع لكي يتناسب مع الرسم.

وقد تراوح طول هذه اللفافات من مترين إلى تسعة أمتار، بينما تروواح عرضها من ١٥ سم إلى ٤٧ سم. وكانت هذه تستعمل كثيرا في إيطاليا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي، بينما قل استعمالها كثيرا في القرون اللاحقة.

وقد حفظت من هذه اللفافات ٣١ نسخة، ومن هذه نجد ٢٨ نسخة تتضمن أدعية مع رسوم مناسبة كانت تتلى بمناسبة إيقاد الشموع في لحظة قيامة المسيح.

إلا أن أهمية الرسم كمادة للتواصل ستبرز بشكل خاص فيما بعد، حين يتم طبع رسوم القديسين بالقوالب الخشبية، أو طبع الكتب التي تكثر فيها الرسوم إلى حد أن النص فيها يصبح في الدرجة الثانية من حيث الأهمية.

د ـ الكتاب الديني والكتاب غير الديني

كان العدد الأكبر من المؤلفات التي كتبت أو نسخت في العصر الوسيط بطابع ديني، ولم تكن تضم على الغالب إلا الأدعية. وكان الرهبان في ورش النسخ في الأديرة، وأولئك النساخ الذين يعملون في الأسقفيات والكنائس، يحرصون في عملهم على تلبية حاجات الأديرة والكنائس في الدرجة الأولى.

أما الكتاب غير الديني، ونقصد هنا في الدرجة الأولى المؤلفات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، فقد بقي يتمتع بهيبة كبيرة في نظر الأفراد المتعلمين بينما لم يكن هناك موقف موحد إزاء «الكتاب الوثني» في الأوساط العليا لرجال الدين. وهكذا نجد أن كاسيدور وغيره يقومون بجهود كبيرة لإنقاذ أكبر عدد ممكن من المؤلفات الأدبية والعلمية للعصر القديم، وذلك نظرا لاقتناعهم بأن معظم الكتّاب الوثنيين من يونانيين ورومانيين لايشكلون أية خطورة على المسيحيين بل إنهم ضروريين لدراسة وفهم المسيحية.

ومع أن الأفراد الذين يحملون مثل هذه المفاهيم كانوا يتناقصون كثيرا منذ نهاية القرن السابع الميلادي، إلا أنه خلال العصر الوسيط بكامله سيبقى هناك من يمثل

النخبة المسيحية المثقفة ومن يؤكد على نسخ النصوص القديمة ودراستها بشكل جدي. وقد كان هؤلاء يستندون في تبرير اهتمامهم الكبير بالكتّاب الوثنيين للعصر القديم على كتابات بعض الكتاب المسيحيين السابقين كالقديس أغسطين والقديس يورنيم. وبشكل خاص فقد كان هؤلاء يجدون تبريرا لموقفهم في الرسالة التي كتبها في القرن الرابع الميلادي أسقف قيسارية، القديس بازيل، والتي أوضح فيها للشباب الفائدة من قراءة مؤلفات الكتّاب الوثنيين. وتجدر الإشارة هنا إلى مؤلفات الكتّاب الوثنيين، في نهاية العصر القديم وحتى في بداية العصر الوسيط، كانت تدرج في منهاج الدراسة للمدارس في ذلك الوقت (في مدرسة غزة بقي هذا حتى القرن السادس) بحيث إن بعض مؤلفات الكتاب الوثنيين بقيت تنسخ لحاجات الدراسة إلى جانب مؤلفات الكتاب المسيحيين.

وعلى الرغم من هذا لابد من القول إن موقف العلماء المسيحيين إزاء الكتّاب الوثنيين كان عدائيا في معظم الحالات. فقد كانت الزعامة الدينية للكنيسة ترى في هؤلاء خطرا على الأخلاق، وحتى على الدين، ولذلك كانت توصي المؤمنين بعدم قراءة مؤلفاتهم. وقد استمر هذا الموقف السلبي لمعظم رجال الدين من الكتّاب الكلاسيكيين اليونانيين والرومانيين إلى عصر النهضة الكارولية في القرن الثامن الميلادي، وكان هذا الموقف يؤدي أحيانا إلى نتائج وخيمة بالنسبة إلى مؤلفاتهم. وهكذا فستختفي إلى الأبد الكثير من المؤلفات إما لعدم نسخها ثانية أو لكتابة نصوص أخرى فوقها. فبسبب نقص الرق الذي كان ثمنه غاليا لجأ بعض النساخ إلى مؤلفات الكتّاب القدماء ليمحو أو ليحكوا النصوص القديمة ويكتبون فوقها النصوص الجديدة. وقد عُرف هذا النوع من الرق بـ «الباليمبست» Palimpsest. ولدينا من هذا النوع من الرق أعداد كبيرة كتبت في بعض الأديرة (دير لوكسيل Lux-euii ودير بوبيو Bobbio إلخ) خلال عدة قرون (٦ ـ ٨ م). وقد أصبح الآن في الإمكان قراءة النصوص الممسوحة بفضل الأشعة فوق البنفسجية. وهكذا فقد ضحى النساخ في العصر الوسيط، ولكن لفترة من الزمن لحسن الحظ، بنصوص بلاوت Plaut وليفي وشيشرون وغيرهم من الكتّاب القدماء. وفي الواقع أن بعض نصوص هؤلاء الكتاب نعرفها اليوم بالاستناد إلى المخطوطات الأخرى التي بقيت لنا

من العصر الوسيط، إلا أن بعض النصوص الأخرى كـ «حول الجمهورية» لشيشرون لا نعرفها إلا بالاستناد إلى «الباليمبست» المحفوظ في مكتبة الفاتيكان.

ولكن منذ القرن الثامن الميلادي أخذ الاهتمام بالكتّاب القدماء يتصاعد بشكل ملحوظ في أوربا الغربية. فمنذ ذلك الوقت أخذت بعض ورش النسخ في الأديرة تنشط في نسخ الكتب غير الدينية بالإضافة إلى الكتب الدينية. وهكذا أصبحت ،مكتبات الأديرة تضم الآن مؤلفات شيشرون وفيرجيل وحتى كتاب أوفيد المثير «فن الحب». ومن الواضح أن هذه المؤلفات كانت تُقرأ كثيرا في الأديرة. ولولا أن الرهبان لم ينسخوا ولم يقرأوا هذه المؤلفات، وغيرها من مؤلفات العصر القديم، لما كانت قد حفظت حتى الآن.

ولدينا في «كتاب التجارب» الذي ألّفه الكاتب والخطاط أوتلوه Otloh دليل مثير يكشف عن مدى اهتمام الرهبان بمؤلفات الأدب الوثني. ففي هذا الكتاب يخبرنا المؤلف، وهو الراهب المتعلم، أنه حين وصل إلى دير القديس إيمران Emeran المعروف في ريغنسبرغ Regensburg وجد هناك تيارين، تيار من الرهبان يقرأ الكتب الوثنية وتيار آخر يقرأ الكتاب المقدس فقط.

وقد شهدت أوربا أخيرا، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي وبداية القرن الثاني عشر الميلادي، تغيرات كبيرة في الحياة الروحية. وفي هذا الإطار أخذت الأديرة تفقد بالتدريج وضعها كمراكز وحيدة الثقافة، وشرعت الجامعات ومدارس الأسقفيات، وحتى المدارس العلمانية التي برزت حينئذ، تأخذ هذا الدور من الأديرة. وهكذا نشهد دفقات من النهضة في أوربا خلال العصر الوسيط، مع أن هذه الدفقة الأخيرة تتميز عن تلك السابقة بعمقها واتساع تأثيرها. فقد أخذ العصر الحديث يبدو في الأفق استنادا إلى تزايد مؤلفات الكتّاب القدماء في المكتبات في ذلك الوقت. وهكذا فقد أصبحت مؤلفات شيشرون وسينكا وهوراس وغيرهم تقرأ بازدياد، بينما أصبح كتاب أوفيد «دواء الحب» يقرأ حتى في المدارس. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المؤلفات غير الدينية، سواء مؤلفات الكتاب القدماء أو مؤلفات الكتاب

المعاصرين، تصبح جزءا أساسيا ومهما من كل مكتبة.

ذ ـ الكتاب كمادة للتقديس

لم يعد الكتاب في العصر الوسيط بالنسبة لغالبية الأميين، الذين فقدوا صلتهم بالتعليم، يعني الكثير كمصدر للمعلومات بل أصبح له مغزى آخر بالنسبة إليهم ـ مغزى التقديس والسحر.

وقد كانت تنسب حتى في الأوقات السابقة بعض الصفات الخارقة لبعض الكتب. وهكذا فقد كان المصريون القدماء، ثم اليهود وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط، والرومانيون يعتبرون بعض الكتب «مقدسة» ولذلك كانوا يحترمونها بشكل خاص. وفي بعض الأحيان كان لهذه الكتب قدرة على الشفاء من الأمراض الخطرة، وتجلب الحظ لكل من يمسها، بينها تؤمن الحمل للمرأة وهكذا.

وقد ورثت المسيحية هذه الاعتقادات إلا أن هذه ستنتشر كثيرا في العصر الوسيط فقط. فابتداء من أوريغن وغيره من الكتّاب المسيحيين في العصر القديم نجد تلك الفكرة القائلة بأن بعض الكتب قد كتبت من قبل الملائكة والقديسين، بل من الله نفسه أو بوحي منه. ولكن في العصر الوسيط ازدادت كثيرا الروايات حول هذه الاعتقادات، وسنكتفي هنا بذكر واحدة منها فقط. ويتعلق الأمر بتلك الأسطورة التي تقول بأن المخطوط المعروف من نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن الميلادي، الذي اشتهر باسم «إنجيل سبليت» والذي وجد في قبر شهيد سالونيك وحامي سبليت القديس دُيام (قتل في سنة ٣٠٤م)، قد كتبه هذا القديس بخط يده. ولهذا السبب فإن هذا المخطوط قد حفظ عبر القرون ولايزال يحفظ إلى اليوم في كاتدرائية سبليت كأثر من آثار القديسين. وفوق هذا الأثر كان الأساقفة يؤدون اليمين أمام رئيس الأساقفة في سبليت، ويعتقد أن بعض الحكام الكرواتيين من السلالة الشعبية في العصر الوسيط قد أدوا اليمين أيضا فوق هذا الأثر.

ومن بين الكتب التي تحمل سمات القداسة يأتي الإنجيل في الدرجة الأولى إذ نراه

كشيء مقدس في عدد هـائل من الأعمال الفنية التي تعود إلى بدايـة العصر الوسيط .
إلا أن هـذا الكتـاب المغلق، الـذي يحملـه في أيـديهم القـديسـون والمبشرون بشكل خـاص، لم يعد للقـراءة بل للتقـديس من قبل المؤمنين . وقـد أصبح لبعض الكتب أيضا، لعلاقتها بأحد القديسين أو بأحد الملوك، قوة خارقة يمكن أن تعيد للكفيف بصره ولـلأطـرش سمعـه وللجـريح سـلامتـه . وحسب شهـادة أحـد القسـاوسـة الباريسيين فإن المخطوط الذي أهداه القيصر البيزنطي ميخائيل الثاني إلى ملك فرنسا لودفيغ الطيب سنة ٨٢٧م، والذي حفظ في دير القديس دينس بالقرب من باريس، قد تمكن من أن يشفي خلال يوم واحد ١٩ مريضا .

ر ـ ثقافة الأديرة في أوربا

تعتبر ثقافـة الأديرة بحق إحدى السمات المميـزة لأوربا في العصر الـوسيط . وقد كان الـدير كمـؤسسة وطريقـة للحياة شيئـا غريبا تمامـا عن ثقافـة العصر القديم في أوربا، إلا أنها أخـذت في البروز على الأرض الأوربية منذ نهايـة العصر القديم إلى أن ازدادت وأصبحت ظاهرة مسيطرة على الحياة الاقتصادية والثقافية للعصر الوسيط في أوربا الغربية . وهكذا مع مرور الزمن فقد أخذت هذه الأديرة الأوربية وظائف لم يكن يحلم بها أولئك الذين أسسوا الأديرة لأول مرة في الشرق الأوسط .

وقـد كـانت هـذه الأديـرة ذات شأن كبير في تـاريخ الكتـاب لأنـه وراء الجدران الضخمة لعـدد كبير من الأديرة في أوربـا كان يتم كل مـا له عـلاقة بإنتـاج الكتاب ورعـايته . ففي هـذه الأديرة كـان الـرهبان ينسخـون الكتب وكـان الفنانـون يزينـون النصوص بالرسوم، وفي الأديرة أيضا كان يتم في كثير من الأحيان إنتاج مادة الكتابة ـ الـرق . وقد كـان يعتبر من الطبيعي أن يكون لكل ديـر مكتبته حتى انتهى الأمـر إلى انتشـار المثل القائل «الـدير دون كتب كـالمدينة دون جـدران وكالمائدة دون طعـام» .
وبفضل هذه المفاهيم فقـد حافظت الأديرة على عدد كبير من مـؤلفات كتّاب العصر القديم والعصر الـوسيط، إلا أن دور الزمان وقلـة حرص الإنسان أديا في النهـاية إلى أن تضيع هذه الكتب إلى الأبد .

١ـ ورشة النسخ في الدير

لم تكن ورشة النسخ في العصر الوسيط تختلف من حيث الجوهر، سواء من حيث التنظيم أو من حيث التجهيز، عن ورشة النسخ التي تطورت في العصر القديم. ولكن في العصر القديم كانت ورشة النسخ لدى اليونانيين والرومانيين توجد في المدارس والأكاديميات والمكتبات، أو كانت تتبع الناشرين، بينما أصبحت ورشة النسخ في العصر الوسيط تتواجد في الأديرة والكاتدرائيات والأسقفيات.

إن تعبير «ورشة النسخ» scriptorium في حد ذاته يتعلق بتلك الغرفة من الدير التي يقوم فيها الرهبان بنسخ الكتب. ومن المعروف أن الأديرة الكبيرة، كدير القديس غالين في سويسرا ودير فولدا في ألمانيا إلخ خاصة الأديرة البنيديكتية (*)، كانت تحتوي على غرف من هذا النوع مخصصة للنسخ.

ولكن في حالات أخرى، وهي ليست نادرة، كانت الأديرة تفتقد مثل هذه الغرف ولذلك فقد كان نسخ الكتب يتم في الغرف الصغيرة للرهبان. ومن المثير أن الكثير من الرسوم التي تصاحب النصوص تظهر في الغالب الراهب (أو أحد القديسين في حالة الكتابة) وحده في غرفته الضيقة وليس في ورشة كبيرة للنسخ.

وكانت ورش النسخ عادة تتسع لعدد من النساخ يتراوح من ٣ إلى ١٢ ناسخا. وقد كان لكل ناسخ مقعد وطاولة لوضع الكتاب الذي ينسخ منه ثم طاولة مائلة لينسخ عليها ما يريد أن ينسخه. وبالإضافة إلى هذا تبين لنا الأعمال الفنية (المنمنمات والفسيفساء) من تلك الفترة بقية الأشياء التي يحتاجها الناسخ: المحبرة والقلم، والسكين لبري القلم والأسفنجة والمكشط لإزالة أي خطأ في النص. وفي العادة كان النساخ ينسخون المؤلفات وحدهم، بينما كانوا في حالات نادرة يجتمعون ويكتبون ممن يملي عليهم النص.

كان النُّساخ الذين يتمتعون بخبرة كبيرة، والذين كان في إمكانهم أن ينسخوا

(*) الأديرة البنيديكتية نسبة إلى القديس بنيديكت انظر الفقرة (٣) من هذا الفصل (المترجم).

المؤلفـات بخط جميل، يطلق عليهـم اسم «أنتي كـواري» antiquarii أمـا أولئك العاديون، الذين يعهد إليهم بالأعمال البسيطة، فكانوا يسمون «النساخ» scriptores أو «الكتبة» librarii.

وكان النساخ حين ينتهون من عملهم يسلمون المخطوطة إلى المعلمين الذين كانوا يكتبون بـالحبر الأحمر الحروف الأولى أو تزيين المخطوط بالـرسوم، والخطوط وزخـرفة جوانبه فيسلم المخطوط في هذه الحالة إلى الرسامين والمزخرفين وفي نهاية الأمر يأتي دور المجلدين لتجليـد الكتاب. وفي حالات خـاصة كان الكتـاب يسلـم للحرفيين لكي يتفننوا في تزيينه بأغلفـة من الذهب أو الفضة، ومرصعة بالأحجـار الكريمة أو شبه الكريمة أو مطلية بالميناء الخ.

كان يراقب عمل النساخ أحد الرهبان الذي يتمتع بخبرة وافية في هذا المجال وفي الغالب كان يقوم بهذا العمل مدير مكتبة الدير.

وقد كان هـذا يهتم في أن يستلم الرهبان في الوقت المنـاسب المخطوطة التي يجب أن ينسخوهـا ومادة الكتـابة (الـرق أو الورق). وفي بعض الأحيـان كان يقـوم أيضا بمراجعة النص المنسوخ ومقارنته مع النص الأصلي.

وكان النساخ، وخاصة المتفوقون منهـم، يتمتعون بتقدير كبير. وفي الواقع لم يكن يمارس النسخ إلا أولئك الرهبان الذين كانوا يعبرون عن مـوهبة خاصة، والذين كانوا يتمتعون بالمعرفة الكافية لكي ينجزوا عملهم على أفضل وجه. ولهذا السبب فقد كان عمل النساخ في الدير يعتبر من الأعمال المهمة، ولأجل ذلك فقد كان النساخ بالمقارنة مع بقية الرهبان يتمتعون ببعض الامتيازات. وقد كانت الأديرة الكبيرة تهتم بأن يكون لـديها أمهـر النسـاخ لكي تستطيع إرضـاء طلبـات الحكـام والمسـؤولين الكبـار من المخطـوطات الثمينـة. وتبـدو مكانـة وأهميـة النسـاخ في العصر الوسيط في صرامـة العقوبة التي شرعت في حـالة تعرّض أحد النساخ للقتل. ففي أيرلنـدا مثلا تتساوى عقوبة قتل الناسخ مع عقوبة قتل الأسقف.

وقد تمتع بعض النساخ خلال حيـاتهم بشهرة كبيرة نظرا لمهارتهم في النسخ. ومن

بين هؤلاء لابد أن نذكر ريغينبرت Reginbert (الذي كان يعمل في دير رايهينا و) -Re ichenhau (تـوفي سنة ٨٤٧م) وأوتلـوه من ديـر القـديس أمران في ريغنسبرغ (تـوفي ١٠٧٠م) وغيرهم.

وبالإضافة إلى ظهور النساخ في الكثير من الأعمال الفنية، التي تصور بصدق جو ورش النسخ في العصر الـوسيط، لدينـا بعض الكتـابـات في المصادر المعـاصرة التي تصف هـذه الورش بشكل حي. وهكـذا مثـلا لدينـا وصف لـورشة النسخ في ديـر القـديس مـارتين في تـورنـوا Tournoi من قبل أحـد مـؤرخي القـرن الحادي عشر الميلادي: «يمكن للداخل إلى الدير أن يرى دائما مجمـوعة من الرهبان وهم يتحلقون حـول الطـاولات ويكتبـون في هدوء...». ولكـن في الشتاء كـان على الـرهبـان في الغالب أن يمارسوا عملهم في الغرف الباردة التي، كما يقول أحد الرهبان، «لا يمكن فيها الكتابة ولا القـراءة». وبغض النظر عن الظروف المناخية فقد كـان لدى الرهبان ما يدفعهم إلى التـذمر من عملهم، إذ كان عليهم أن يقضـوا الأيام والشهور والسنين وهم ينسخون النص ذاته أحيانا. ولذلك ليس من المستغرب أن يرتكب معظم هؤلاء أخطاء في النصوص المنسوخة، وهذه الأخطاء لم تكن على أي حال تؤنب ضميرهم. وفي الحقيقـة أن المشـاعـر الحقيقـة لهؤلاء المسـاكين يمكن أن نتلمسهـا حين نقـرأ ملاحظاتهم التي كانوا يسجلونها في نهاية المخطوطة. وهكذا نقرأ مثلا في نهاية مخطوط في الأبجديـة السلافيـة القديمة (الفـلاغوليـة) من النصف الثاني للقـرن الرابع عشر الميلادي:

«كتب هذا القس دمينيفو الذي لفظه الشيطان، آمين».

وقد كتب قديس آخر يبدو أنه كان يحب الخمرة الجيدة: «كتب هذا القس الذي يحب الخمرة أكثـر من الماء». وفي الواقع لدينـا الكثير من أمثال هـذه النوادر، ولكن لدينا أيضا حالات يتوجه فيها النساخ إلى القراء مباشرة. وهكذا نجد في نهاية مخطوط من القرن السادس عشر الميلادي «اقرأ ولا تترك النعاس يسيطر عليك».

وفي أمثـال هـذه الملاحظـات كـان النسـاخ يعبرون عن معـانـاتهم، وحتى عن

تبرمهم. ولكن في المقابل كان هناك الكثيرون الذين كانوا يمارسون هذا العمل للتقرب إلى الله ولنيل الأجر في الحياة الآخرة.

٢ . دير فيفاريوم

في تاريخ ثقافة الأديرة في أوربا يحتل دير فيفاريوم، الذي أسسه كاسيودور، مكانة خاصة ثم يأتي بعده دير جبل كاسينو والأديرة التي تفرعت عنه، وأخيرا الأديرة العديدة التي أسسها المبشرون الإرلنديون والانغلو ساكسونيون في أوربا في بداية العصر الوسيط. وسنتحدث هنا أولا عن كاسيودور وعن الدير الذي أسسه مع أنه ليس أول دير من نوعه في أوربا الغربية. إلا أن هذا الدير يتميز عن غيره من الأديرة في بداية العصر الوسيط بارتباطه الوثيق مع التراث الثقافي للعصر القديم.

ولد كاسيودور سنة ٤٨٥م في عائلة محترمة في روما وتوفي سنة ٥٨٠م. وبالمقارنة مع من سبقوه، الذين حملوا السلاح للدفاع عن المجد الروماني أمام غزوات البرابرة الجرمانيين، فقد كان كاسيودور يعتقد بإمكانية إنقاذ روما وإيطاليا بالتعاون مع هؤلاء البرابرة، وخاصة القوط. ولأجل هذا فقد أصبح كاسيودور وزيرا للملك القوطي تيودوريك في رافينا، وبقي في هذه المدينة إلى أن قام القائد العسكري البيزنطي بليزار (Belizar) بالاستيلاء عليها. وبعد ذلك عاد كاسيودور إلى مسقط رأسه، في كالابريا، وأسس هناك سنة ٥٥٥م أحد أشهر الأديرة في أوربا خلال العصر الوسيط ـ دير فيفاريوم.

وكان كاسيودور قبل أن يؤسس هذا الدير قد حاول في روما أن يؤسس أكاديمية مسيحية على نمط أكاديمية الإسكندرية. وقد كان يطمح من خلال هذه الفكرة أن يجمع المثقفين في ظروف مناسبة ليتابعوا تطوير العلوم والفنون. وقد تمكن لأجل هذا أن يكسب إلى صفه البابا أغابيت (Agapet) الذي كان له ميل إلى الكلمة المكتوبة حتى أنه أسس مكتبة على رابية سليا (celia) حيث لا تزال بقاياها قائمة إلى اليوم. وليس من المستبعد أن يكون البابا قد أسس هذه المكتبة لخدمة الأكاديمية التي كان كاسيودور يحلم بتأسيسها. إلا أن غزو القائد البيزنطي بليزار لروما سنة ٥٣٦م قد

أفسد الخطة المتعلقة بإنشاء الأكاديمية. ولكن حتى لو تأسست أكاديمية من هذا النوع في ذلك الوقت فقد كان من الصعب أن تمارس ذلك الدور الذي حدده لها كاسيودور، لأن الظروف العامة في إيطاليا لم تسمح للعلماء والفنانين أن يعملوا بهدوء. وعلى الرغم من هذا لم يتخل كاسيودور عن هدفه بإنشاء مركز علمي يقوم فيه الرهبان أيضا بنسخ مؤلفات الكتّاب القدامى. ولأجل هذا فقد أسس كاسيودور في أملاكه، في كالابريا الجنوبية، دير فيفاريوم الذي حدد له ذلك الدور ـ ولو بشكل جزئي ـ الذي كان يجب أن تمارسه أكاديمية روما.

إن معلوماتنا عن هذا الدير وافية وهي تستند بالدرجة الأولى إلى كتاب «التعليمات» الذي ألفه كاسيودور نفسه ليوضح للرهبان وظائفهم وواجباتهم. وهكذا فقد كان على الرهبان، بالاستناد إلى مفاهيم كاسيودور، أن ينسخوا باهتمام المؤلفات سواء أكانت لكتّاب مسيحيين أو لكتّاب وثنيين.

وفي إطار الدير خصّ كاسيودور المكتبة بأهمية خاصة. وبالاستناد إلى كتاب كاسيودور المذكور نعرف أن هذه المكتبة كانت تتضمن نسخا من الكتاب المقدس ومؤلفات الآباء والكتاب المسيحيين بالإضافة إلى كثير من مؤلفات الكتاب الوثنيين كشيشرون سنيكا وليفي وتاسيت وغيرهم. وبالاستناد إلى وصف كاسيودور نفسه للمكتبة نعرف الآن أن الكتب كانت توضع في خزائن لكل واحدة رقمها الخاص، وكانت الكتب غير الدينية توزع حسب التصنيف القديم إلى سبع مجموعات.

وكانت تسيطر على كاسيودور رغبة قوية لإنقاذ التراث اليوناني ـ الروماني لأنه كان على اقتناع عميق بضرورة دمج هذا التراث في العالم الروحي الجديد ـ في العالم المسيحي. وهكذا نجده في مجموعة مقالاته المعنونة بـ «متفرقات» (٣، ص ٩) يعبر بشكل واضح ومقتضب عن هدفه الأساسي وموقفه الحياتي «إن هدفنا هو خلق شيء جديد ولكن على أن ننقذ القديم».

ولكن في دير من هذا النوع الذي تصوره كاسيودور كمؤسسة علمية أكثر من كونه مكانا للصلاة والتأمل الروحي، كان من الصعب أن تتحقق هذه الأفكار وأن يبقى كما أراد له مؤسِّسه أن يكون. وهكذا فقد انتهى وجود هذا الدير مع وفاة

مؤسِّسه بينما بقي مصير مكتبته مجهولا. وقد شاع الاعتقاد في السابق أن المخطوطات الثمينة لهذه المكتبة قد نقلت إلى دير بوبيو (Bobbio) المشهور، بينما يسود اليوم الاعتقاد بأن هذه المخطوطات قد نقلت إلى مكتبة البابوات في روما، التي كانت تقع في منطقة لاتيران (Lateran)، ولكن هذه مجرد فرضية تفتقر إلى أدلة حاسمة.

ولقد أثبت كاسيودور بتأسيسه لهذا الدير في ذلك المكان المنعزل والبعيد عن الطرق والمراكز الثقافية الإيطالية في ذلك الوقت، كما أثبت ذلك سابقا حين خطط لتأسيس الأكاديمية في روما، بأنه كان يتصرف دائما كارستقراطي روماني لا كرجل قروسطي. فبعد أن فشلت فكرته لتأسيس أكاديمية في روما كان كاسيودور يؤمن بأن الكتاب سيجد في الدير المنعزل الملجأ الأمين له في الأوقات العصيبة التي كانت تبدو في الأفق. وبالفعل فقد وجد الكتاب ملجأ له في الأديرة، إلا أن دير فيفاريوم لم يكن من بينها لأن مؤسِّسه كان قد حدد له دورا يفوق طاقة الأديرة في العصر الوسيط. وعلى الرغم من هذا الفشل فقد أثّر كاسيودور بكتابه «التعليمات» وتأسيسه لدير فيفاريوم بشكل قوي في تكون الوعي بالحاجة إلى العمل الثقافي وإلى رعاية التراث القديم.

٣. دير القديس بينديكتي في جبل كاسينو

في الوقت الذي كان فيه كاسيودور المثقف ينطلق من أن دراسة الكتاب المقدس لا يمكن أن تتم دون التعرف بشكل عميق على الفلسفة والأدب اليوناني ـ الروماني، وأن الشباب لا يمكن أن يتثقف دون الاطلاع على تلك المؤلفات التي أبدعتها الثقافة الوثنية اليونانية الرومانية، نجد أن معاصره القديس بينيديكتي كان يرفض كل الثقافة اليونانية الرومانية ويعتبرها غير ضرورية ومعادية. وعلى حين أن كاسيودور أراد أن يجعل من دير فيفاريوم مركزا علميا نشيطا نجد أن القديس بينيديكتي كان يريد الهرب من الحياة الصاخبة للمدن والتهرب من الهموم المادية والثقافية.

ولد القديس بينيديكتي حوالي (٤٨٠ ــ ٥٤٣م) في نورسيا (نوريتا اليوم في أومبريا) وقضى فترة من حياته في روما خلال دراسته. وقد أثاره كثيرا الانحدار

الخلقي لهذه المدينة الكبيرة إلى حد أنه قرر أن يقتـدي بالزهاد الشرقيين في ذلك الوقت وأن يعتزل الحياة، ولأجل هـذا فقد أسس سنة ٥٢٩م ديرا في جبل كـاسينو بين روما ونابولي، وبالتحديد في المكان الذي كانت تقوم فيه قلعة روما والذي كانت قد بقيت فيه المعـابد التي بنيت لجوبيتر وأبـولون. وقـد أصبح هذا الـدير مع الزمـن من أشهر الأديرة في أوربا خـلال العصر الوسيط. وقد ألّف القديس بينيديكتي كتـابه المشهور «قانـون الرهبان»، الـذي يحض فيه الـرهبان على ضرورة الالتفات إلى الأدعيـة وحياة الزهـد وإلى ممارسة الأعمال اليـدوية. وبالمقـارنة مع كـاسيودور، الذي كـان يطالب الرهبـان بنسخ الكتب، نجد أن القديس بينيديكتي لم يطلب منهم شيئـا كهذا. وفي الحقيقة أن القـديس بينيديكتي في «قانون الـرهبان» يحدد كواجب للرهبـان أن يقرأوا الكتاب المقدس وعـدة كتب دينية أخرى خلال ساعات معينـة خلال النهار، إلا أن الغرض من هذا الواجب لم يكن تثقيف الرهبان بقدر ما كان تعميق وتوطيد الدين في نفوسهم.

ولابد أن نـذكر هنـا مصادفـة ترمـز للكثير مع أنها لم تحدث طبعا بـرغبة أو بعلم القـديس بينيـديكتي. ففي نفس السنـة التي أسس فيهـا القديس بينيـديكتي هـذه المؤسسـة النموذجيـة لثقـافة الـرهبـان الجديدة في أوربـا، قـام الإمبراطور البيـزنطي يوستينيان بإغلاق أكاديمية أفلاطون في أثينا بعد ألف سنة تقريبا من وجودها كأشهر مركز للمعرفة الوثنية في العصر القديم.

إلا أن هذا الدير المتواضع الذي أسسـه القديس بينيديكتي سيصبح خلال القرن الثامن الميلادي مـركزا ثقافيا مهما يتميـز بنشاط كبير في نسخ الكتب. ولا شك في أن القـديس بينيديكتي نفسـه لم يكن يتصور أن ديـره في جبل كاسينـو، أو بقية الأديـرة البينيديكتية التي برزت في أوربا، يمكن أن يهتم إلى هذا الحد بالكتاب أو أن الرهبانية البينيديكتية التي أسسها يمكن أن تحتضن الكتابة والمعرفة في عدة أجزاء من أوربا.

وكـان دير كـاسينو قـد هـدمه اللـونغـوبارديـون لأول مرة سنـة ٥٧٧م، ومحت المعلومات عنه بعد ذلك إلى بداية القرن الثامن حين تم تجديده، ولكن في هذه المرة لم

يعد الدير كما كان مكانا للصلاة والتأمل وحياة الزهد بل أصبح مكانا يلتقي فيه عدد كبير من العلماء من كل أنحاء أوربا. وقد أحدث قدوم المؤرخ المعروف بولس الشماس في العقد السابع من القرن الثامن انعطافا في حياة هذا الدير. فقد بادر هذا إلى تشغيل ورشة النسخ حيث تم فيها نسخ عدد كبير من الكتب، وخاصة كتب النحو والقواعد، التي كانت تستخدم لأجل التعليم.

ولكن بين الكتب التي كانت تنسخ هنا نجد أيضا عددا كبيرا من مؤلفات الكتّاب القدامى، التي بقي بعضها إلى اليوم بفضل نسخها في هذا الدير بالذات. أما العلماء الذين كانوا يعيشون في الدير من نهاية القرن الثامن وحتى نهاية القرن التاسع الميلادي، فلم يكتفوا فقط بنسخ النصوص القديمة بل أخذوا يؤلفون الأعمال الجديدة التي كانت في غالبيتها غير دينية. وهكذا مثلا نجد أن الأباتي برتار يؤلف مجموعة من النصوص المتعلقة بعلم الفلك وكتابين في علم الطب، وقد ألّف بولس الشماس نفسه هنا، مستفيدا دون شك من مكتبة الدير الفنية، كتابه المعروف «تاريخ اللونغوبارديين». أما تلميذه هيلدريك Hilderik فقد ألّف هنا كتابه «فن القواعد» الذي يستشهد فيه بأعمال كثيرة لفيرجيل وأوفيد وغيرهم من كتّاب العصر القديم، مما يكشف لنا عن معرفة المؤلف الواسعة بالأدب وعن عالم الكتاب في هذا الدير خلال ذلك الوقت.

وهكذا فإن دير جبل كاسينو منذ القرن السابع الميلادي يقترب أكثر من تصور كاسيودور عن الدير في العصر الوسيط ويبتعد أكثر عن مفهوم مؤسسة القديس بينيديكتي. وهكذا لم يكن من المصادفة أبدا أن ينسخ في جبل كاسينو كتاب كاسيودور «التعليمات»، الذي يبدو أنه نُسخ من النص الأصلي الذي كتبه المؤلف بخط يده.

إلا أن الدير هُدم ثانية من قبل العرب سنة ٨٨٣م، ولم يعد الرهبان إليه إلا في منتصف القرن العاشر الميلادي حين جدد مرة أخرى، وعاد النشاط إليه ثانية في نسخ النصوص القديمة وتأليف النصوص الجديدة. أما في القرن الحادي عشر

الميلادي فقد أصبح ديـر جبل كاسينو أهم مركز ثقـافي في أوربا. ففي تلك الفترة برز على رأس الدير الأباتي ديـزيدير (Dezider)، الذي نُصّب لاحقا باسـم البابا فيكتور الثالث. وهكذا نجد أنه في هذا الدير أصبح الاهتمام بنسخ مؤلفات الكتاب القدماء لا يقارن بأي مـركز آخـر في أوربا. فبفضل توجيهـات الأباتي ديـزيديـر تم هنا نسخ مـؤلفات شيشرون «حـول طبيعـة الآلهة» وسنيكـا وتيرينس ويوسيـب فلافـا «الحرب اليهودية» وأوفيد وغيرهم.

وهكذا فقد عايـش الأدب الكلاسيكي اليوناني ـ الروماني انبعـاثا حقيقيا في جبل كاسينـو، وبالإضـافة إلى نسخ المؤلفات هنـا فقد اغتنت مكتبة الـدير بهدايـا الحكام والأمراء والجمـع المنظم لمخطوطـات العصر القديم، التي كـانت الأصلية منهـا قد أصبحت نادرة بينما كـان لايزال في الإمكان العثـور على نسخ متأخرة منها في إيطـاليا خلال ذلك الوقت.

وفي هذا العهد الذهبـي للثقافة في جبل كاسينو تطورت الكتـابة البنفتانية(*) لتأخذ شكلها النهـائي، وأصبحت تستخدم الآن في إيطاليا الجنوبيـة ومناطق أخرى في أوربـا، بينما سينشأ عنها لاحقـا في دالماتيا شكل خـاص يعرف بـاسم البنفتانيـة الدلماتية.

لقد كان لهذا الدير وغيره من الأديرة البينيديكتية في أوربا، ـ حيث وصل عددها إلى ٣٧ ألف دير ـ فضل كبير في إنقاذ مؤلفـات التراث القديم وخلق ثقافة الأديرة في العصور الـوسطى. وفي الفترة اللاحقة، حين عـايشت الرهبـانية البينديكتيـة أزمتها وأخذت دورها الذي مارسته خلال القرون ٨ ـ ١٣م بقية الرهبانيات وشرائح المجتمع الأخرى، وجـد المتنورون في مكتبـات هذه الأديـرة المخطوطـات التي سـاعدت على انبثاق النهضة الأوربية في العصر الوسيط.

٤ ـ الأديرة الإيرلندية والإنغلوساكسونية في أوربا

كان لهذه الأديرة، التي أسسها المبشرون الإيرلنديـون والإنغلوساكسونيون في بداية

(*) نسبة إلى منطقة بنفنتو التي تقع في جنوب إيطاليا بين نابولي وروما. (المترجم).

العصر الوسيط، دور مهم جدا في إحياء الكتابة وخلق الثقافة الجديدة ـ القروسطية ـ في القارة الأوربية.

وفي الواقع لقد كان مركزا إيرلندا، في إطار الأحداث السياسية والثقافية في أوربا، يتمتع بخصوصية كبيرة في جوانب عديدة. فقد سلمت إيرلندا من الاحتلال الروماني إلا أن تأثير الثقافة الرومانية تسلل إليها في نهاية العصر القديم، حيث اختلط هناك مع التقاليد الكلتية Celtic للسكان القدماء. ومن ناحية أخرى فقد سلمت إيرلندا أيضا من الفوضى المدمرة التي صاحبت هجرة الشعوب، في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط، بحيث تمكنت ثقافتها الأصلية أن تتطور في هدوء في الوقت الذي كان فيه البرابرة في أوربا يحطمون دون رحمة بقايا الثقافة القديمة.

وقد اعتنق الإيرلنديون المسيحية في القرن الخامس الميلادي بفصل القديس باتريك المبشر الذي كان قد جاءهم من بلاد الغال. وقد شهد القرنان السادس والسابع تأسيس الأديرة بشكل كثيف، حيث تحولت هذه إلى مراكز للحياة الدينية والسياسية والثقافية. وبروز في هذه الأديرة فن متميز، فن كلتي جديد وأصيل، كما تطور فيها خط متميز دعي بالخط الجزيري واعتبر أجمل الخطوط في أوربا خلال العصر الوسيط.

وفي هذه الأديرة كان الرهبان ينسخون بهمة ونشاط المؤلفات التي كانوا يأخذونها على الغالب من روما، بالإضافة إلى المراكز الأوربية الأخرى، بحيث استطاعوا أن يجمعوا عددا كبيرا من المخطوطات الجميلة. وبالاستناد إلى استشهادات الكتّاب الانغلوساكسونيين خلال القرنين السابع والثامن للميلاد يمكن الاستنتاج بأن هذه الأديرة كانت تجمع عددا لا بأس به من مؤلفات الكتاب الوثنيين في العصر القديم. إلا أن معظم هذه المخطوطات اختفت خلال غزو الفايكنغ في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، بحيث إن الإنتاج الوفير للكتاب من قبل الرهبان الإيرلنديين في الجزر البريطانية يمكن أن نثبته على الأغلب من خلال المخطوطات التي وجدت في المناطق الأوربية التي لم يصل إليها الفايكنغ البرابرة.

ومن بين هذه المخطوطات التي لابد من ذكرها نسخة الإنجيل المشهورة التي وجدت في دير كلس، والتي أصبحت تعرف باسمه «إنجيل كلس». ويعتبر هذا الإنجيل الذي يعود تاريخه إلى حوالي سنة ٨٠٠م، من أجمل وأفخم المخطوطات التي كونها العصر الوسيط في أوربا.

وكان الرهبان الإيرلنديون قد أخذوا في التوجه نحو أوربا منذ القرن السادس الميلادي لنشر المسيحية بين البرابرة هناك، وقد كان لحركتهم التبشيرية هذه، التي استمرت حتى غزو الفايكنغ لأديرتهم، نتائج بعيدة المدى على تطور ثقافة الأديرة في أوربا إذ أن المبشرين الإيرلنديين، ومن بعدهم الإنغلوساكسونيين، كانوا قد تمكنوا من تأسيس بعض الأديرة المشهورة في العصر الوسيط. وبهذا الشكل فقد أعادت إيرلندا لأوربا نتائج تلك الثقافة التي كانت قد أخذتها منها في السابق.

وقد توجه الإيرلنديون أولا إلى سكوتلندا وإنكلترا الشمالية، حيث أسسوا بعض الأديرة المهمة، التي أصبحت بدورها ترسل المبشرين إلى القارة الأوربية. ويعتبر القديس كولومبان أهم مبشر إيرلندي في ذلك الحين. وكان هذا قد غادر دير بانغور سنة ٥٩٠م مع تلاميذه الاثنا عشر وتوجه أولا إلى فرنسا حيث أسس عدة أديرة (انغراي Anegray فونتاين Fontaine ولوكسيل). وفي سنة ٦١٤ أسس القديس كولومبان في إيطاليا الشمالية دير بوبيو Bobbio، حيث توفي هناك بعد سنة. وقد أسس تلميذه غالوس Gallus سنة ٦١٣م دير سانكت غالن Sankt Gallen، في سويسرا. وقد قامت مجموعة من الرهبان الإيرلنديين، بعد أن انضم إليها رهبان من سكوتلندا وإنكلترا، بالتجول في أوربا لنشر المسيحية حيث أسسوا أديرة أخرى. وهكذا فقد أسس ويلبرود Willibrod حوالي سنة ٧٠٠م ديرا في اشترناش Ech-ternach، وأسس بيرمين Pirmin ديرا في رايهناو Reichenau بالقرب من بحيرة بودن Boden سنة ٧٢٤م وديرا آخر في مورباخ Murbach سنة ٧٢٧م، بينما أسس إمران Emeran ديرا حمل اسمه في ريغنسبرغ Regensburg وكانت تقام في كل هذه الأديرة فور تأسيسها ورش للنسخ يتم فيها نسخ المؤلفات بالاستناد إلى القواعد التي وضعها لها القديس كولومبان. ومن بين هذه تميزت ورشة النسخ في دير بوبيو بدور هام في

إنقاذ مؤلفات الكتّـاب القدماء. ومع أنه لا تزال تنقصنا المعطيـات عن تاريخ مكتبة هذا الـدير في الفترة الأقدم فقـد بقي إلى اليوم فهـرست هذه المكتبة، الـذي يعود إلى القرن العـاشر الميلادي والـذي يتضمن عناوين ٦٦٠ كتابـا. وبالنسبـة إلى أوربا في ذلك الوقت فإن هذه الكتب تعتبر مجموعـة مهمة، وخاصة لأنها تتضمن الكثير من مـؤلفات الكتّـاب في العصر القديم. وقـد حفظت إلى اليوم بعض مخطـوطات هـذه المكتبة في روما وميـلانو وغيرها من المدن، إلا ان هذه المخطـوطات لم تنسخ كلها في ورشة النسخ التابعـة لهذه المكتبة. ففي هذه المكتبة وجـدت الكثير من المخطوطات التي نسخت في ورش النسخ الأخـرى في وقت سـابق لتأسيس الـديـر نفسـه. وعلى سبيل المثال فقد وجدت في مكتبة هذا الديـر مخطوطات محمولة من إسبانيا وحتى من أفريقيا الشمالية. وحسب العادة الشائعة حينئـذ فقد كان رهبان هذا الدير يمسحون من هذه المخطوطات النصوص القديمة ويكتبون عليها النصوص الجديدة.

وبتشجيع من القـديس بونيفـاس Bonifac فقد قام تلميـذه ستروميوس Sturmius بتأسيس الـدير المشهـور في فلدا Fulda بألمانيـا سنة ٧٤٤م. وقد أصبـح هذا الديـر بسرعة مركز المسيحيـة في ألمانيا وأصبحت مكتبته أهم مكتبة في البـلاد. أما في عهد الأباتي هرابانوس ماوروس H.Maurus (٨٢٢ ـ ٨٤٢م) فقد أصبح هذا الدير مركزا للحياة الثقافية لكل ألمانيـا. وكان الأباتي ماوروس قد كتب الكثير من المؤلفات ومن بينها «حـول الكون»، الذي يعتبر مـن الأعمال الموسوعية الأولى في أوربـا خلال العصر الوسيط. ومن بين أعمالـه لابد أن نذكر النشيد الكنـائسي المعروف «هلم أيها الروح القـدس» الذي مازال ينشـد إلى اليوم في الكنـائس. وكان يلتقي في دير فـولدا الكثير من العلماء في ذلك الـوقت، حيث كـانوا يجدون الكثير مـن المؤلفات لكتّـاب العصر القديم.

لقد مـارست شبكة الأديـرة، التي أسسها الإيـرلنديون والإنغلـوساكسـونيون في فرنسا وإيطاليا الشمالية وسويسرا وألمانيا، دورا مهما في إنتاج الكتاب. وفي الواقع لقد كان دور ورش النسـخ في هذه الأديرة كبيرا جـدا فيما يتعلق بإنقـاذ مؤلفـات الكتّاب القدماء ونشر الكتابـة والمعرفة في أوربا حتى عهد النهضة الكـارولية. ويمكن القول

إن النهضة الكـارولية نفسهـا قد بـرزت إلى حد كبير بفضـل هؤلاء الـرهبان المتعلمين الذين كانوا يفدون إلى القارة الأوربية من إيـرلندا وسكوتلندا و إنكلترا، وقد كان أحد هؤلاء الرهبان بالذات، الكوين، هو المبادر الرئيسي للتجديد الثقافي الذي أيده بكل حماس كارل الكبير في إمبراطوريته الفرانكية.

وبالإضافة إلى هذا فقد حمل الرهبان الإيرلنديون والإنغلوساكسونيون من جزيرتهم إلى القارة الأوربيـة خطهم الفخم، الـذي اشتهر باسـم الخط الجزيري insular، والـذي بقي يستعمـل فترة طـويلـة من الـزمن وبأشكـال مختلفـة في أديـرتهم التي أسسوها.

٥ ـ الدومينيكان وبقية الرهبانيات

حظي إنتـاج الكتاب وانتشـار المكتبات بـدفعة قـوية من التطـور نتيجة لجهـود مايسمى الرهبانيات المتسولة، التي يحتل فيها الدومينيكان موقعاً متميزا. وقد أسس الإسباني دومينيك غوزمان (D. Guzman) سنة ١٢١٥م هذه الرهبانية الدينية التي اهتمت كثيرا بـالكتـاب والتعليم منـذ تأسيسهـا. فـالقـديس دومينيك نفسـه يعتبر اكتساب المعرفـة على قدر كبير من الأهمية لإنجاز الهدف من تأسيس الـرهبانية، ألا وهو مجابهة الأفكار والحركات الهرطقية المختلفة التي ظهرت خلال القرن الثالث عشر الميـلادي في مناطق مختلفـة من أوربا. وهكـذا فقد كـان المطلوب مقـارعة الهراطقـة بـالحجج المعرفيـة لكي لا يترك المجـال لهم لنشر أفكارهـم، ولأجل هذا فقـد أصبح الكتاب سلاحا قويا في يد الدومينيكـان خلال كفاحهم في سبيل رعاية طهارة الدين ومصـالح الكنيسـة. وقـد أوضـح الـرئيس الخامس لهذه الـرهبـانيـة، هـومبرت دي رومـانيس Humbert de Romanis (منتصف القـرن ١٣م)، المؤلف من الكتـاب والتعليم بشكل لا لبس عليـه في كتـابـه «عرض حـول القـوانين»: «إن التعليم ليس هـدف الرهبـانية بل الـوعظ والعمل على إنقاذ الأرواح، ولكنـه يشكل ضرورة ماسـة للوصـول إلى هذا الهدف، فبدون التعليم لا يمكن أن ننجـز شيئا» ولذلك فقـد كان أتباع القديس دومينيك يـذهبون إلى باريس وأوكسفورد وبولونيـا، وغيرها من المراكز

الجامعية، لمتابعة دراساتهم حتى يكونوا مستعدين أكثر لعملهم. وفي الواقع لقد كان الدومينيكان أول رهبـانية تدخل في قواعدهـا إلزامية التعليم لأعضائهـا، وهكذا فقد أسست مدرسة ومكتبة في كل دير من أديـرتهم التي برزت بسرعة في كل أرجاء أوربا. وقد قـدم هومبرت دي رومـانيس نفسه في كتـابه «مهمات الرهبنـة» الذي ألفـه خلال سنـوات ١٢٦٣ ـ ١٢٧٧م، تعليمات مفصلـة لعمل المكتبـات وأمنـاء المكتبـات. وحسب هذه التعليمات فإن أمين المكتبة عليه أن يهتم لكي يختـار لمكتبته غرفة «محمية من المطر والمنـاخ السيء ومتجددة الهواء لرعـاية الكتـاب». وينصح المؤلف أن توزع الكتب في الخزائن حسب الموضوعـات ويُفضل أن يكون لأمين المكتبـة غرفة خـاصة جانب المكتبة لكي يكون دائما في خدمة القراء. وبالإضافة إلى هذا فقد كان على أمين المكتبـة أن يعـد فهرسـا لكل الكتب الموجـودة في المكتبـة، وأن يهتم بتزويـد المكتبـة بالكتب الضرورية التي يحتاج إليها الـرهبان، وأن تجلد الكتب التي تحتاج إلى تجليد. وقد سمحت التعليمات بإعارة الكتب للـرهبان وللقراء من خارج الـدير، ولكن كان على هـؤلاء أن يعيدوهـا مرتين في السنـة لأجل التفتيش. وقد نصت هـذه التعليمات أيضا على الكتب التي يمكن اعتبـارها في قائمـة المراجع اليومية. وهكـذا فقد أدخل هـومبرت في هذه القـائمة سبعين كتـابا من هـذا النوع كـالإنجيل وتواريخ الكنيسـة وأسـاطير القديسين الخ، وتـرك الباب مفتـوحا لإضـافة «كتب مشـابهة». وحسب التقليد الشائع في ذلك الوقت فقد كانت هـذه المراجع اليومية تربط بسلسلة لكي لا يتمكن القراء والزوار من إخراجها.

كان الدومينيكان لا يحتفظون بالكتاب لأجل الزينة أو التسلية، ولذلك لم يجمعوا الكتب المجلدة بشكل ثمين والمزينة بشكل فخـم التي تصلح أن تكون للمتاحف أو لهواة جمع الكتب. ولـذلك فقد أدان هـومبرت دي رومـانيس بشدة عـادة المبالغـة في تـزيين الكتب التـي كـانت شـائعـة حينئـذ: «لأن الشبـاب سيهتمـون بـالحروف الفخمـة... وكثرة الـرسـوم الموجودة وغير ذلك»، ولـذلك فقـد كان يعتبر تـزيين المخطوط عملا «طفوليا».

لقد انعكس هذا الموقف من الكتاب، كقيمة مستعملة، على الرهبانيات المتسولة

الأخرى التي برزت في أوربا الغربية والتي أدخلت، تحت تأثير الدومينيكان، في قواعدها إلزامية القراءة والتعليم. وعلى الرغم من هذا فقد مر وقت طويل دون أن تظهر في أوربا رهبانية أخرى تعطي الكتاب مكانة مهمة كما لدى الدومينيكان.

وهكذا نجد مثلا أن مؤسس الرهبانية الأخرى من هذا النوع، القديس فرانسيس، لم يكن يعبر عن أي اهتمام بالكتب حتى أنه لم يكن يدرك أهمية تشجيع التعليم والمعرفة. فقد سيطرت عليه فكرة الفقر ورفض العنف إلى حد أنه لم يهتم بالقراءة أبدا، بل إنه كان يعتبر امتلاك أي كتاب موازيا في خطورته لامتلاك أي شيء آخر. ففي قواعد هذه الرهبانية التي وضعها القديس فرنسيس نفسه سنة ١٢٢١م نجد أن الكتاب يحتل مكانة متواضعة: «يمكن لرجال الدين أن يحتفظوا فقط بتلك الكتب الضرورية لممارسة خدماتهم، بينما يمكن للأفراد العاديين الذين يعرفون القراءة أن يحتفظوا بسفر المزامير». إلا أن السلطات الكنائسية، التي كان من اختصاصها أن توافق على قواعد الرهبانية الجديدة، لم تكن راضية عن هذه القواعد لأنها كانت تنتظر من هذه الرهبانية أن تشارك أيضا في الكفاح ضد الأفكار الهرطقية في ذلك الوقت. ولذلك فقد أرغمت هذه السلطات القديس فرانسيس على أن يطرح قواعد جديدة يخصص فيها مكانة أفضل للتعليم والمعرفة. وعلى الرغم من أن القديس فرانسيس اضطر إلى تنفيذ رغبة رؤسائه إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسرب هذه الجملة إلى قواعد الرهبانية الجديدة: «من لا يعرف القراءة لا يجهد نفسه في تعلمها». إلا أن بعض أتباع القديس فرانسيس لم يكونوا على وفاق معه حتى خلال وجوده على قيد الحياة بسبب موقفه من الكتاب. وقد قام هؤلاء الأتباع، على الرغم من المثل العليا للفقر والتواضع التي أقام عليها القديس فرانسيس أسس هذه الرهبانية، بعد وفاته بتشييد أضخم وأفخم كنائس العصر الوسيط في أوربا فوق قبره في أسيزي (assisi). وقد حدث هذا أيضا فيما يتعلق بالموقف من الكتاب والتعليم إذ أن أتباع القديس فرانسيس سرعان ما تخلوا عن أهم المثل العليا لمؤسس الرهبانية. ومع أن الفرنسيسكان لم يهتموا بالكتاب كثيرا حتى فيما بعد إلا أن أديرتهم كانت تحتوي على مكتبات غنية ومنظمة بشكل جيد. ففي اسيسي بالذات، وفي مقابل الكنيسة البازيليكية، تطورت المكتبة المركزية لهذه الرهبانية. وقد بقي لنا من هذه المكتبة

الفهرس، وبالتحديد سجل الكتب، الذي وضع سنة ١٣٨١، الذي يمكن بالاستناد إليه أن نتصور ثانية محتويات المكتبة ومظهرها أيضا. وهكذا نعرف الآن أن هذه المكتبة كانت من أغنى المكتبات وأكثرها ترتيبا في أوروبا خلال ذلك الوقت. ففي ذلك الوقت كان في المكتبة ٧١٨ كتابا وهو رقم كبير بالمقارنة مع محتويات المكتبات الأخرى في أوربا آنذاك.

ويُعتقد أن هذه المكتبة قد تأسست في الوقت الذي بدأ فيه نشاط الفرنسيسكان. وقد كان لأديرة الفرنسيسكان الأخرى مكتباتها الغنية أيضا. وقد حفظت الكثير من فهارس المكتبات الفرنسيسكانية من القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، كما حفظت المعطيات الوثائقية التي تبين مدى غنى المكتبات: المكتبة الفرنسيسكانية في سيينا (Siena) كانت تحوي حسب فهرس سنة ١٤٨١ على ١٣٥١ كتابا، أما المكتبة الفرنسيسكانية في بادوفا فقد كانت تحوي سنة ١٣٩٧ على ٤٢٦ كتابا وارتفع هذا العدد سنة ١٤٤٩ إلى ١٠٢٥ كتابا. وفي منتصف القرن الخامس عشر كان دير س. كروسيه (S. Croce) في فيرنسا يحتوي على ٧٨٥ كتابا الخ. ومن ناحية أخرى فقد كان بين الفرنسيسكان علماء لا يقلون من حيث المستوى عن علماء ذلك العصر، وقد كان بينهم أيضا عدد غير قليل من أولئك الذين كانوا يجمعون الكتب بأنفسهم لحاجتهم الشخصية.

وهكذا نعرف من هؤلاء الراهب ميته ديلا بورتا (M. della Porta) الذي كان يملك سنة ١٣٧٧م (١١٤) مجلدا، بينما كان الراهب فريدريكو دي برنستن F. de Pernstein يملك ٨٠ مخطوطا في مجال التاريخ والقانون واللاهوت. وقد آلت معظم هذه المكتبات الخاصة بعد وفاة أصحابها إلى مكتبات الأديرة.

وقد كانت للأديرة الفرنسيسكانية على الشاطىء الشرقي للبر الأدرياتيكي مجموعات قيمة من الكتب أيضا كما في شيبينيك (Sibenik) وزادار (Zadar) حيث كانت توجد هناك ورشة للنسخ. وحيث حفظت إلى اليوم نماذج ممتازة من كتب التراتيل والصلوات يعود تاريخ صنعها إلى الفترة الفاصلة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد.

وقد سلكت الرهبانيات الأخرى على الغالب، كالكارثوسيان والأوغسطينيين

وغيرهم مسلك الفرنسيسكان. ولكن على الرغم من جهود الرهبانيات الجديدة لإحياء ثقافة الكتاب إلا أن الأديرة الجديدة لم تعد تستطيع أن تمارس ذلك الدور الذي مارسته الأديرة البنيديكتية والإيرلندية في بداية ومنتصف العصر الوسيط. وبعبارة أخرى فقد كان قد غرب ذلك العهد الذي كانت تمارس فيه الأديرة الدور الرئيسي في إنتاج وتوزيع الكتاب.

٦ ـ دور الأديرة في ثقافة الكتاب

تعرضت ثقافة الأديرة في أوربا إلى أزمة أخذت تبدو بوضوح منذ القرن الثالث عشر الميلادي وانتهت إلى تقلص نشاط النسخ في الأديرة وإلى تقلص الكتابة بين الرهبان بشكل عام. ففي الأديرة قلّ باستمرار نسخ المؤلفات لأنه لم يعد هناك من يقوم بالنسخ، وهكذا أصبحت حتى الأديرة التي كانت في السابق مراكز ثقافية حية، كدير سانكت غالين ودير كوربيه ألخ، تضطر إلى الاستعانة بنساخ محترفين من خارج الأديرة للعمل في ورش النسخ.

ولدينا معطيات كثيرة عن الحالة البائسة لمكتبات الأديرة، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، من خلال ما خلفه لنا المتنورون الذين كانوا قد زاروا هذه المكتبات خلال بحثهم عن المخطوطات القديمة، ومن هؤلاء يصف لنا مثلا جوفاني بوكاتشو الحالة التي وصلت إليها مكتبة دير جبل كاسينو. وكان بوكاتشو قد زار هذا الدير في القرن الرابع عشر الميلادي ووصف لنا بغضب وانزعاج كيف أن الكتب كانت تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، وكيف أن الأعشاب قد نبتت على نوافذ المكتبة، وكيف أن المكتبة كانت مفتوحة لكل شخص. وقد وصف بشكل مشابه مكتبة دير سانكت غالين في القرن الخامس عشر بوجيو براتشيوليني المعروف بـ «صياد» المخطوطات القديمة. وقد كان هذان الإيطاليان المعروفان، كغيرهم من الكثيرين في عصر التنوير والنهضة يعرفان كيف يستغلان ببراعة جهل وبساطة الرهبان، الذين كانوا غالبا لا يعرفون قيمة المخطوطات التي كتبها أو جمعها أسلافهم. وهكذا تمكن مثلا بوكاتشيو أن يأخذ من مكتبة دير جبل كاسينو مخطوطات نادرة جدا لتاسيت وفارون، بينما عاد برتشيوليني إلى إيطاليا بمخطوطات

نادرة للغاية من مكتبات أديرة سانكت غالين وفولدا وغيرها .

وقد عبر أيضـا عن انزعاجـه من الرهبـان شبه الأميين ريتشارد دي بـوري ، أحد أشهر هواة جمع الكتب ، الذي كان قد تجول كثيرا في أوربا ، والذي كان يعرف الكثير عن أوضاع الأديرة نظرا لعمله كأسقف ولوضعه كشخصية مؤثرة في بلاط الملك إدوارد الثالث . وهكـذا فقد كتب لنـا مثلا كيف أن الرهبـان ورجال الـدين يفضلون شرب الخمرة على الاقتراب من الكتب . وقـد استفاد دي بـوري أيضا من لامبالاة الـرهبان وجهلهم ليغني مكتبته الخاصة بعدد كبير من المخطوطات .

وفي حـالات أخرى لم تكن نـادرة كان هـؤلاء الـرهبان شبـه الأميين واللامبـالين يعمدون إلى إهداء الكتب أو إلى بيع أثمن الكتب من مكتباتهم دون أي تردد . وهكذا نجد أن الأباتي رومو (Rumo) يسرب أندر الكتب من مكتبة دير سانت غالين ، بينما يقوم الأبـاتي فريدريخ سنة ١٢٥٧ بـرهن عدة كتب من بينها «الكتـاب الذهبي» من مكتبة دير بامبرغ Bamberg عند أحد اليهود . وفي الواقع لقد سُجلت حالات كثيرة من هذا النوع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد .

إلا أن هذا الوضع كان له جـانبه الايجابي لأن «الصيادين» المثقفين للمخطوطات من أمثـال براتشيـوليني ، الذين لم يجمعـوا المخطـوطات النـادرة من مكتبات الأديـرة بوسائل شريفـة ، قد نقلوا إلى المراكز الثقـافية الجديدة مؤلفـات شيشرون وكويتيليان وتاس وغيرهـم حيث ساعدوا بهذا الشكل على إحياء هؤلاء الكتاب .

أ ـ النهضة الكارولية

كانت أول وأكبر دولة منظمة في الأراضي السابقة للإمبراطورية الرومانية تلك التي أسسها الملك الفرانكي كارل الكبير ــ شارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) . ولتصريف الأمور في إمبراطورية كبيرة فقد كان كارل الكبير يحتاج إلى عدد كبير من الموظفين ورجال الدين البارعين ، وقد دفعتـه هذه الحاجة إلى إحياء التعليم وتشجيع القـراءة والكتابة بشكل عـام . وقـد رأى حينئذ بحكمتـه الكبيرة أن أفضل من يسـاعـده في هـذا الاتجاه هم الرهبان المتعلمـون الإيرلنديون والإنغلـوساكسونيون . ولـذلك فقد دعا إلى قصره في آخن الأباتي الكويـن من دير يورك (York) المشهور في إنكلترا ، الـذي كان في ذلك

الحين أهم المراكز الثقافية في أوربا. وفي الواقع لقد كان هذا الراهب هو المبادر الرئيسي لذلك الإحياء الثقافي الذي يسمى بحق «النهضة الكارولية». وهكذا وبفضل سياحة السياسة الثقافية لكارل الكبير، فقد وجد في آخن إلى جانب الكوين الكثير من الشعراء والكتاب من كل أوربا.

كان لدى كارل الكبير الكثير من المال والطموح لكي يحاول في قصره تقليد الأكاديمية الهلنستية ومكتبة الإسكندرية. وهكذا فقد جمع النساخ المتازين والرسامين الذين سيطورون أسلوبا خاصا في رسم المنمنمات، وأسس مكتبة مهمة في القصر. وقد مدح ضخامة وأهمية هذه المكتبة كاتب سيرته اينهارت (Einhart) في كتابه «حياة كارل الكبير». ومع أن هذه المكتبة لا يمكن أن تقارن بأي حال بمكتبة الإسكندرية، إلا أنه كان فيها مخطوطات نادرة لكتّاب العصر القديم (لشيشرون، يوفنال وسالوست وغيرهم) وكان لها بالنسبة لذلك الوقت أهمية كبيرة في إنقاذ التراث القديم. وقد كانت هناك مجموعات من النساخ والخبراء تعمل بأمر الإمبراطور في نسخ مؤلفات الكتّاب القدماء بشكل جيد. وهكذا فقد أصبح يقصد مكتبة آخن كل من يريد أن يحصل على نسخة محققة لأحد كتّاب العصر القديم، إذ كان يعمد هناك إلى نسخ المخطوطة الأصلية الموجودة في مكتبة البلاط.

وهكذا نجد أنه في أديرة سانكت غالين ورايهناو وكوربيه ولورتش إلخ، التي كان يتضح فيها تأثير النهضة الكارولية، كان العمل يجري بهمة ونشاط لنسخ مؤلفات الكتاب القدماء بالإضافة إلى الإنجيل والكتب الدينية. وإلى جانب هذا فقد ازداد الحرص في الأديرة على المخطوطات الموجودة التي يعود تاريخها إلى نهاية العصر القديم أو بداية العصر الوسيط. وهكذا فإن مكتبة دير لورتش على سبيل المثال كانت تضم بين محتوياتها القيمة مخطوطا لأعمال فرجيل من القرن الخامس الميلادي، الذي تحتفظ به اليوم مكتبة الفاتيكان.

ونتيجة للاهتمام المتزايد بالكتّاب القدماء وبالكتاب بشكل عام فإن الحكام والبابوات والأساقفة والإقطاعيون كانوا يتسابقون فيما بينهم للاستئثار بالمخطوطات

النادرة والقيمة لمكتباتهم. ولكن كان هؤلاء يتبادلون الكتب على سبيل الهدية للتعبير عن التقدير العميق، وكانت هذه الهدايا غالية جدا كما يبدو في سجلات المؤرخين في ذلك الحين. فقد أصبح إهداء كتاب ثمين، المزين على الغالب بأغلفة الفضة والذهب المرصعة بالأحجار الكريمة، يدل على الثروة والمكانة الاجتماعية الذي يهديه وعلى النفوذ الذي يتمتع به في المجتمع ذلك الذي يهدى إليه.

ولا شك أن أمثال هذه الكتب الغالية، سواء في ذلك الوقت أو في الأوقات اللاحقة، كانت للزينة أكثر من كونها أداة للعمل ومصدرا للمعلومات. إلا أن هذا يمكن أن يقال عن الكتب الغالية فقط، التي لم تنتج في الأصل لكي تقرأ باستثناء بعض الحالات النادرة.

ففي ذلك الوقت أُلف ونُسخ عدد كبير من الكتب التي تتمتع بأهمية كبيرة. وقد كتب علماء ذلك العصر مؤلفات كثيرة في اللاهوت وتفسير الإنجيل وتاريخ القديسين الخ. ولكن فيما يتعلق برعاية التراث القديم فإن عصر النهضة الكارولية يعتبر من أهم الحلقات التي تربط إنتاج الكتاب العلمي الأدبي في العصر القديم بعصر التنوير. ففي المكتبات التي برزت أو اغتنت بالمخطوطات القديمة في عصر النهضة الكارولية وجد المتنورون الإيطاليون وغيرهم الأعمال المجهولة لتاسيت وليفي وغيرهم من الكتاب اليونانيين والرومانيين في العصر القديم.

ومن الإنجازات المهمة للإحياء الثقافي في الإمبراطورية الكارولية خلال عهد كارل الكبير كانت الأحرف الصغيرة الكارولية التي كان يعتقد أنها نشأت بأمر مباشر من كارل الكبير ومستشاره الكوين. ولا شك أن لهاتين الشخصيتين الفضل الكبير في نشر هذا النوع من الخط في كل أرجاء الإمبراطورية، إلا أن بدايته تعود إلى القرن الثامن الميلادي. وقد ظهر هذا النوع من الخط أولا في أديرة لوكسيل وكوربيه، بينما انتشر في عهد كارل الكبير أكثر من نوع آخر في أوربا الغربية، وحافظ على انتشاره هذا إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

وكان هذا عبارة عن خط جميل وبسيط إلا أنه فقد ميزته كخط متواصل (cur

sive) حتى قبل بداية النهضـة الكارولية. وفي الواقع لقد فقد هـذا الخط ميزته كخط متواصل نتيجة للتغيرات التي لحقت في غضـون ذلك بالوظيفة الاجتماعيـة للكتابة. فقد ولدت الحروف المستديـرة والمشكلة بجمال والمنفصلة عن بعضها البعض، والتي اشتهرت باسم الأحـرف الكارولية، في الوقت الذي انتقلت فيـه الكتابة بشكل نهائي إلى أيدي رجال الدين، أي حين فقدت الكتابة أهميتها كأداة عملية لتسجيل الأفكار كما كانت عليه في العصر القديم وبدايـة العصر الوسيط. وبعد مضي وقت طويل، في القرن الثالث عشر الميلادي، عادت إلى أوربا ثانية الحروف المتصلة (cursive) أي الكتابة السريعة والعملية كتعبير عن الثقافة العلمانية للكتابة.

إلا أن خلفاء كارل الكبير كانوا عاجزين عن رعاية إمبراطوريته وعن رعاية مكتبة قصره الغنيـة أيضـا. فقـد وصلت بعض الكتب من هـذه المكتبـة إلى بعض الأديـرة المعروفة، حيث حفظت هنـاك إلى يومنا هذا. وقد تعرضت الحيـاة الثقافية في البلاط إلى أزمة بعد وفاة كارل الكبير، وهي الأزمة التي ستشمل كل المناطق التي تتألف منها الإمبراطورية. إلا أن القاعدة التي أسسها الكوين وغيره من العلماء قد أفادت كنقطة انطـلاق في عمليـة الإحيـاء الثقـافي، التي وصلت إلى ذروتها فيما بعـد في النهضـة الإيطالية. وهكذا فقد هيأت النهضة الكاروليـة المجال لكي يستعيد الكتاب مكانته السابقة كما في العصر القديم، ولكي يستعيد الكتاب دوره كقيمة مستعملة وضرورية للعمل الثقـافي. إلا أن هذه العمليـة ستطول كثيرا ولابـد أن ننتظر القـرن الثاني عشر والثالث عشر بشكل خاص، أي مع ازدياد الطـابع العلماني لثقافة الكتابة في المدن، لكي يستعيد الكتاب أخيرا دوره الاجتماعي كما في العصر القديم.

ب ـ إنتاج الكتاب في الجامعات

خـلال القـرنين الثـاني والثـالـث عشر للميـلاد حـدثت تغيرات كبيرة في الحيـاة الاقتصاديـة والثقافية في أوربـا. وفيما يتعلق بموضوعنـا فقد كان من الأهميـة بمكان انتقال مـركز القوة الاقتصـادية، والثقافيـة في نهاية الأمـر، من الأديرة إلى المدن. ففي ذلك الـوقت افتتحت بسرعة المدارس العلمانيـة في المدن حيث أخذ الأولاد والبنـات

يتعلمون القواعد والبلاغة والمواد الأخرى. وقد كان من الأهمية بمكان أيضا افتتاح الجامعات في أوربا حيث أخذ الطلاب يدرسون ليصبحوا مصرفيين وحقوقيين وأطباء وغير ذلك من المهن التي تحتاج إليها ثقافة المدينة.

وكانت ثقافة الأديرة تعايش أزمتها ثم فقدت الأديرة بشكل نهائي منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي احتكارها لإنتاج الكتاب. فقد أصبحت ورش النسخ في الأديرة عاجزة بوسائلها القديمة على تلبية حاجات المدارس والجامعات التي افتتحت حديثا في المدن. فالعدد الكبير من الطلاب والأساتذة في المراكز الجامعية، كما في بولونيا وباريس وبراغ وأوكسفورد، أصبح يحتاج إلى أسلوب أسرع واقتصادي أكثر لنسخ الكتب مما لم يكن يتوفر في الأديرة، حيث كان النساخ يعملون بهدوء وببطء دون أن يهتموا بما يحدث خارج جدران الأديرة.

وهكذا فقد أسست في الجامعات لتلبية حاجات الزبائن الجدد خدمات منظمة لنسخ الكتاب وتوزيعه. وهنا نجد النساخ وعمال الرقوق والرسامون والمجلدون وباعة الكتب يعملون بارتباط وثيق مع الجامعة، التي تشرف باهتمام كبير على أن يكون نسخ الكتاب وتوزيعه منسجما مع المعايير التي تحددها. وهكذا أصبح النسخ الدقيق يتم وفق القوانين الجامعية.

فبالاستناد إلى هذه القوانين كانت تنتخب كل سنة لجان من الأساتذة. أما مهمة هذه اللجان فقد كانت أن تقرأ باهتمام نص المخطوط قبل أن يسلم للنسخ، وأن تراجع على الأقل مرة واحدة في السنة دقة الأصول التي تسحب منها النسخ. وكان من صلاحية هذه اللجان أيضا تحديد سعر الكتاب. وكانت هذه اللجان تصدر كل سنة قائمة الكتب الجامعية التي تحظى بموافقة الهيئات المختصة في الجامعة، والتي يجب أن تعلق في مكتبة الجامعة. وبهذا الشكل فقد كانت الجامعة تضمن استلام الطلاب لنصوص منسوخة بشكل سليم.

ومن ناحية أخرى فقد كانت الجامعة لا تصر على أن تنسخ النصوص الجامعية على ورق ممتاز وأن تصاحب النصوص رسوم متقنة. وهكذا فقد كان يحدث أن

تصـدر هذه النصـوص الجامعية في ورق من الـدرجة الثـانية ومجلـدة بشكل بسيط ، ومزينـة بشكل متـواضع ، الشيء الذي كـان يعكس نظرة جـديدة لـدور الكتاب في المجتمع . فبفضل ورش النسخ في الجامعات أصبح الكتـاب ثانية أداة للتعليم وأداة لنقل المعلـومات العلميـة وغيرهـا ، أي أنـه أخذ يفقـد مـرة أخرى الطـابع التـزييني والتقديسي .

وكانت ورش النسخ الجامعية قـد تمكنت من تسريع عملية النسخ بفضل توزيع العمل . وهكذا لم يعد الناشر ينسخ بمفرده الكتاب كله بل جزءا من الكتاب فقط ، وأصبح في الإمكان أن يقوم عـدة نساخ بنسخ هذا الجزء دون أن يكون للواحـد علاقة بالآخر . وكان الطـلاب يأخذون هذه الأجزاء تباعا وفي الوقت الـذي يحتاجون فيه إلى التعلم منها بمساعدة الأساتذة و إلى دراستها .

لقد تـولى مهمة تنظيم إصـدار الكتب الجامعية النـاشرون الثابتـون الذين كـانت الجامعات تـوفر لهم الامتيازات وتضمن لهم الـربح . وكان الناشر من نـاحيته يحرص على أن يـوفـر النص الـدقيق إلى أكثـر حـد ممكن ، وأن ينسخ هـذا النص لحاجـات الجامعة ، وأن يرسل النص إلى اللجنة ليحصل على موافقتها وأن ينسخ منه ـ بالاتفاق مع اللجنة الجامعية المذكورة دائما ـ عـددا محددا من النسخ . وهذه النسخ كانت تباع للطـلاب بأسعار محددة أو كـانت تعـار لهم بأجـرة محددة لكي يقـوموا هم بنسخهـا لحاجاتهم الشخصيـة . وبالإضافـة إلى هذا كان النـاشر ملزمـا بإعارة النص الأصلي للناشرين الآخرين أو حتى للأفراد من خارج الجامعة .

إلا أن الكتب التي كان يصدرها هؤلاء الناشرون لم تكن فقط لخدمة الجامعة التي تشرف عليهـا ، بل كـان النـاشرون يبيعـونها لـلأديـرة والأفـراد وحتى بقيـة الجامعات . وهكذا تفيدنا المعطيات أن الكتب التي كـان يصدرها الناشرون في بولونيا وباريس ، التي كانت حينئذ أهم مراكز نشر الكتب في أوربا ، كانت تجد طريقها إلى المدن البعيدة وهو الشيء الـذي يمكن التأكد منه بسهولة بالاستنـاد إلى المخطوطات المحفوظة . وبعبـارة أخرى لقد أدى ازدهار نشر الكتـب في الجامعات إلى تغيير سوق

الكتـاب الأوربي من الأســاس. فمع ظهـور ورش النسخ الخاصـة ــ العلمانيـة التي أخـذت تنسخ الكتب بسرعـة، كما كـانـت تفعل ورش النسخ في الجامعـات في كل أرجاء أوربا، خرج الكتاب بشكل نهائي من تلك الأماكن المغلقة للأديرة وتوجه نحو المراكز الجديدة للقوة الاقتصادية والسياسية أي إلى المدن .

جـ ـ ورش النسخ الخاصة خارج الجامعات

مع انتقال الحيـاة الثقافيـة من الأديرة والكنائس إلى المدن الغنيـة زاد باطـراد عدد الذين يطلبون الكتب، ولذلك لم يمض وقت طويل حتى برزت ورش النسخ الخاصة في هذه المدن إلى جانب ورش النسخ المذكورة في الجامعات.

وقد كان العمل في ورش النسخ في المدينـة، أي الخاصة والجامعية، يختلف كثيرا عن العمل في ورش النسخ في الأديـرة، فورش النسخ هـذه كانت جزءا لا يتجـزأ من الأديرة، بينما كـانت عملية النسخ جـزءا من المهمات اليوميـة للرهبـان، وكان الـدير يوفر كل ما يحتاجه الرهبان للحياة والعمل.

أما ورشة النسخ الخاصـة في المدينة فقد كانت مشروعـا مستقلا يفترض أن تربح كأية ورشـة حرفية. فقـد كان على النسـاخ والرسامين والمجلـدين وغيرهم أن يكسبوا بعملهم قـوت يومهم في ورشـة من هـذا النـوع، وكان عليهم أيضـا أن يـؤمنوا الـرق والورق والحبر والألوان والجلد والمواد الأخرى اللازمة للتجليد من الحرفيين الآخرين. وبالمقـارنة مع الأديـرة، حيث كان معظم الـرهبان يعتبرون النسخ مـن أعمال التقوى فقد كان معظمهم، إن لم يكن كلهم، يمارسونه بحب وحرص، على حين أن النساخ في ورش النسخ الخاصة كـانوا يمارسون هـذا العمل باعتباره مصـدر قوت لهم. ولهذا السبب فقد كان هؤلاء ينسخون الكتب بحرص أقل، وكان هذا أحد الأسباب لتردي مستوى الخط في ذلـك الوقت. أمـا السبب الآخر، الذي يـرتبط أيضا بـورش النسخ الخاصة، فقد كان يكمن في موقف الناسخ من النص الذي ينسخه، حيث كان هذا الناسخ لا يعتبر النص الذي ينسخـه مقدسا، أي أنه لم يرَ أهميـة أن يكون كل حرف تماما في مكانه كما في الأصل، ولذلك لم يكن يهتم هذا الناسخ كزملائه في الدير بدقة النسخ.

وعلى قدر ازدياد الطلب على الكتاب كان يـزداد عدد ورش النسخ وتزداد أهميتها حتى أنه في النصف الأول للقـرن الخامس عشر الميلادي، أي في الـوقت الذي سبق بداية إصدار الكتب بواسطة الطباعة، تحولت ورش النسخ هذه إلى مشاريع صناعية حقيقية. وكـان الإقطاعيـون والعلماء يوصون لمكتبـاتهم بمؤلفـات ذات موضـوعات مختلفة ومجلـدة بشكل فخم. أما في معظم ورش النسـخ الخاصة فقد كـانت الكتب تصدر بنوعية متواضعة لجمهور أوسع من القراء.

وفي القرن الخامـس عشر الميلادي نجد أن بعـض هذه الورش الخاصـة للنسخ لم تعد تعمل حسب الطلب فقط بل أصبحت تصدر الكتب للسـوق. وهكذا فقد برز الناشرون الذين لم تعرفهم أوربا منذ العصر القديم.

وقد كان أشهر ناشر من هذا النوع في ألمانيا في النصف الثاني للقرن الخامس عشر ديبولـد لاوبر (Diebold Lauber) ، الذي كان يملك ورشـة للنسخ ومكتبة لبيع الكتب في مدينة هاغنـاو. وقد كان لديه في ورشة النسخ ٤ ــ ٥ نساخ وعدة رسامين ومعلمين آخـرين. أما الكتب التي كـان يصـدرها هـذا النـاشر فلم تكن غاليـة إلا باستثنـاء تلك الكتب التي كان ينجزهـا بتوصية معينة. وعلى مـايبدو فقد كـان هذا الناشر يعتمد على الورق، ولذلك كان في إمكـانه أن يصدر كتبا رخيصة. وقد عرف هذا كتاجر ماهر أن يقدّر أهمية الإعلان، ولذلك فقد كان يقوم بإصدار قوائم الكتب المعدة للبيع في مكتبته ويضـع في نهاية القائمة هذه الملاحظـة: «كل من يرغب بشراء أي كتاب، كبير أم صغير ديني أم غير ديني، ومزين بالرسوم بشكل جيد، يمكنه أن يجد ما يرغبه لدى الكتبي ديبولد لاوبـر في هاغناو». ومع أن هذا الناشر كان يصدر ويبيع الكثير من الكتب، إلا أن الوقت الـذي عاش فيه لم يكن مـلائما للعمل الذي يمارسـه. فمنـذ منتصف القرن الخامـس عشر الميلادي جـوبهت ورشتـه وكل ورش النسخ الأخرى بمنافسة قوية من الكتاب المطبوع.

وعلى الـرغم من هذا فقـد استمرت ورشـة لاوبر، وبعض ورش النسخ الأخـرى في عملها حتى بعد قيام غوتنبرغ بطباعة كتبه الأولى وانتشار الطباعة في أوربا. إلا أن هذا لم يستمر طويلا إذ أن لاوبر اضطر أخيرا إلى إغلاق ورشة النسخ سنة ١٤٦٧ .



ورشة كتابة في القرون الوسطى: لوحة في مخطوط يعود الى ١٤٨٠ ـ ١٤٩٠م (المكتبة الوطنية النمساوية ـ فيينا)

وعلى نمط هذه الورشة التي كان يملكها لاوبر كانت هناك ورش أخرى في بقية بلدان أوربا كما في فرنسا و إنكلترا إلخ، إلا أن أهم هذه الورش كانت تلك التي وجدت خلال القرن الخامس عشر الميلادي في إيطاليا، وخاصة في فرنسا.

د ـ قسبازيانودا بيستيتشي «أمير الكتب»

كان نشاط النشر والتجارة بالكتاب قد تطور في إيطاليا أكثر من أي بلد آخر في أوربا. فقد ازداد الطلب على نسخ المؤلفات لمكتبات الملوك والأمراء والمصرفيين

والتجار والمدارس المختلفة والجامعات ورجال الكنيسة والعلماء وهواة جمع الكتب. وهكذا حل ثانية الوقت الذي كان فيه الأغنياء يساهمون بمكتباتهم الغنية في زيادة مكانتهم الاجتماعية.

وأصبحت فيرنسا الغنية هي المركز لإنتاج الكتاب والتجارة فيه على المستوى الأوربي. ونظرا لكثرة المكتبات التي تبيع الكتب فقد دعي أحد شوارعها «شارع المكتبات». وفي هذا الشارع كان يمكن للمرء أن يشتري الكتب وأن يلتقي الشعراء والكتّاب والعلماء بشكل عام، بالإضافة إلى عدد كبير من المهتمين الذين كانوا يرغبون في معرفة الجديد في سوق الكتب ومعرفة الجديد في المجال الأدبي والعلمي.

وفي ذلك الحين كان قسبازيانودا بيستيتشي (١٤٢١ ـ ١٤٩٨م) يعتبر أشهر ناشر وكتبي في فيرنسا، حيث كان يُجذب إلى مكتبة النخبة المثقفة في المدينة. وكان قسبازيانو ينحدر من أصل متواضع إلا أنه تمكن بنشاطه المتنوع كناشر وباكتشافه للمخطوطات القديمة وممارسته لتجارة الكتاب ولتنظيمه الفذ أن يفرض نفسه كأهم شخصية في عالم الكتب حتى استحق لقبه «أمير الكتب». وخلال سنوات ١٤٤٠ ـ ١٤٨٠م كان يأتي إلى ورشته للنسخ أشهر الكتّاب والفنانين في المدينة، إلا أنه اضطر سنة ١٤٨٠م أن يغلق ورشته ـ تحت تأثير منافسة الكتاب المطبوع ـ وأن يعتزل في أملاكه بالقرب من فيرنسا حيث ألف كتابه المشهور «سير حياة الناس المعروفين في القرن الخامس عشر» الذي تحدث فيه عن أولئك الكتّاب الذين كانوا يترددون كثيرا إلى ورشته للنسخ.

كان قسبازيانوي ينسخ الكتب لأشهر الأمراء وهواة الكتب في أوربا في ذلك الوقت. وهكذا فقد كان يزود عائلة ميديتشي بالكتب، والبابا نيقولا الخامس لمكتبة الفاتيكان التي أسست حينئذ، والملك الهنغاري ـ الكرواتي ماتياش كورفين لأجل مكتبته الشهيرة في بودا، وفيدريكو دا مونتقلترو من أوربين أحد أشهر هواة جمع الكتب حينئذ.

ولأجل إرضاء زبائنــه الكبار فقد طور قسبــازيانو حرفـة نسخ الكتب إلى ما يشبه صناعة كاملة لا مثيل لها في أوربا في ذلك الوقت، بل ومن الصعب أن نجد لها مثيلا في أوربا قبل ذلك الوقت أيضا. وفيما يتعلق بمستوى الإنتـاج في ورشته لدينا معلومة كافية يُستشهد بها كثيرا: خلال ٢٢ شهرا قام النساخ الـ ٤٥ الذين يعملون في الورشة بنسخ ٢٠٠ مخطوط لصـالح كوزيمو ميـديتشي. وكان قسبـازيانو يحاول بمسـاعدة العلماء الـذين كانـوا يحيطون بـه، أن يتوصل إلى أدق المخطـوطات لكي ينسخ منهـا لاحقا أفضل النسخ. وفي الواقع لقـد كان قسبازيانو الـرجل النموذجي الذي يمثل النهضة سواء من دقته في إنجاز العمل أو من حيث اتساع مفاهيمه.

وهكـذا فقـد فتح هـذا الناشر والكتبي مـن جوانب متعـددة الطـريق لإصـدار طبعـات محققـة، وهو الأمـر الـذي سيتم حين يبـدأ طبع الكتب وحين تصبح دقـة وصحة النص معيارا يفرض نفسه أكثر من أي وقت مضى.

وكان ظهـور الطباعة قـد أدى إلى أن تغلق ورش النسخ أبوابها بسرعـة، سواء في المدن أو في الأديرة. وعلى الرغم من المقاومة التي أبداها بعض الأفراد، كفيدريكو دا مونتفلترو المذكور وبعض هواة المخطوطات القديمة، إلا أنه كان من المستحيل وقف انتشار الكتـاب المطبوع. وهكذا فقـد غرب إلى الأبـد عصر المخطوطات الغـالية من الرق، المزينة بـرسوم رائعة، والمنسوخـة في نسخة فريدة للمكتبـات الخاصة للحكام والإقطاعيين أو لمكتبات الكنائس.

إلا أن اكتشاف الطباعة لم يقض فورا على عـادة نسـخ الكتب باليد. فقد نسخت مخطوطـات كثيرة في النصف الثاني من القـرن الخامس عشر الميلادى، وحتـى القرن السادس عشر الميلادى. ولكن في بعض البلدان الأوربية، حيث لم تتغلغل الطباعة أو حيث لم تتطور كثيرا، استمـر نسخ الكتب باليد حتى خلال القـرنين السابع عشر والثامن عشر للميـلاد. ولدينا حالة من هـذا النوع في كرواتيا السـاحلية حيث بقيت كتب الصلوات وبقية الكتب الدينية في اللغة الشعبيـة بالأبجدية الغلافوتيكية(*)

(*) الأبجدية القديمة للغة السلافية. (المترجم).

تنسخ باليد حتى بعد مرور زمن طويل على طبـاعة غوتنبرغ لكتابه الأول، وحتى بعد تأسيس المطابع الأولى في كـرواتيا (نهاية القـرن ١٥) التي أخذت تطبع الكتب لأجل حاجات القساوسة الذين يستعملون الأبجدية الغلافوتيكية.

هـ ـ عدد الكتب المنسوخة باليد في نهاية العصر الوسيط

خلال القـرنين الرابع عشر والخامس عشر للميـلاد أنتج في أوربا عـدد كبير من الكتب في ورش النسخ. ومن المستحيل اليوم تحديـد عدد هذه الكتب لأن قسما كبيرا من هـذه المخطـوطـات قـد قضت عليـه الحروب اللاحقـة والصراعـات الاجتماعيـة ولامبالاة أصحابها، بالإضافة إلى أنه حتى الآن لم يتم إنجاز سجل للمخطوطات التي نسخت حينئـذ والتي لا تزال إلى اليوم تحفـظ في المكتبات الأوربية. وعلى الـرغم من هذا يمكن القـول بالاستناد إلى مختلف المعطيـات، أنه تم نسخ عشرات الآلاف من المخطوطات. ويذهب هـ. لولفينغ H.Lulfing إلى أنه في القرن الخامس عشر فقط، حين وصل إنتاج الكتاب إلى أعلى مسـتوى، كـان عـدد المخطوطـات التي أنـجزت «أكبر بكثير مما أنجز خلال ألف سنة، أي حتى سنة ١٤٠٠م».

ولدينـا مثال يصور لنـا بشكل واضح الإنتاج الكبير لتلك المؤلفـات التي كانت تحظى بشعبية خـاصة. فمن هذه المؤلفات كـان كتاب الطبيب والرحالـة الإنكليزي جون دى ماندفيل Mandevillea «رحلة جون دى مانديقيل». وكان هذا الإنكليزى قد زار مصر وبـلاد الرافدين والصين ومـلأ كتابه بالـروايات الخياليـة التي كانت تثير بـالطبع خيال القـارىء الأوربى. وكان المؤلـف قد أنجـز كتابـه سنة ١٣٥٦ وبعـد ظهوره في السوق ترجم بسرعة من الأصل اللاتيني إلى عدة لغات أوربية. وهكذا فقد حفظت إلى اليـوم ١٣ نسخة مخطـوطـة بالألمانيـة والهولنديـة و٣٧ بـالفرنسيـة، و٤٠ بالإنجليزيـة، و٥٠ باللاتينية بالإضـافة إلى الكثير من النسخ بالإيطاليـة والإسبانية والدانماركية والتشيكية والإيـرلندية، وبالتحديد ٢٥٠ نسخـة من القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميـلاد. ولم يكن هذا الكتـاب يشكل أي استثنـاء بـالنسبة لـذلك الوقت.

و ـ تجارة وتوزيع الكتاب

من الصعب الحديث عن تجارة منظمـة في مجال الكتب في أوربا القـروسطية قبل تأسيس الجامعـات خلال القـرنين الثاني عشر والثـالث عشر للميلاد. ففي القـرون الأولى التي أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانيـة بقي في إيطاليا فقط نوع من التجارة المنظمـة في مجال الكتـاب وذلـك نتيجـة لـوجـود شبكـة تـوزيع الكتب من العصر القديم.

وهكـذا فقد كـان يتم في إيطـاليا تـزويد مكتبـات الأديـرة وغيرها من المكتبـات بالكتب التي تحتاجهـا، إلا أن هذا كان لا يقارن أبدا بشبكـة الكتب العملية والفنية التي كانت تـوجد في السـابق. فقد كان ينقص هنـا في الدرجـة الأولى إنتاج الكتب للسوق إذ أن كل واحـد كان ينسخ فقط تلك المؤلفات التي يحتاجهـا. وكانت ورش النسخ الخاصة القليلة تنتج الكتب والنسـخ التي يحددها المشتري، أي ليس كما كان يفعل النـاشرون الرومـانيون في العصر القـديم حين كانـوا ينسخون الكتـاب أولا ثم يرسلونه للبيع عبر شبكـة بيع الكتب. أما الرهبان المتجولون والتجـار الصغار الذين كانوا يعرضـون الكتب للبيع، وهم الذين يرد ذكرهم أحيانـا في المصادر القروسطية، فقد كـانوا عبارة عن استثناء نـادر وكانوا عاجـزين بالتأكيد عن تغيير الحالة البـائسة التي وصلت إليها تجارة الكتب في أوربا خلال العصر الوسيط. ولم يكن الأمر يتعلق فقط بقلة البيع والشراء وإنما بصعـوبة انتقال الكتاب في بدايـة العصر الوسيط وذلك بسبب صعوبة المواصلات بين البلاد المختلفة وقلة الحاجة إلى نقل المعارف والأفكار ـ التي لم تعـد كثيرة أصلا ـ بسرعـة من دير إلى ديـر ومن مـدينة إلى أخرى ومـن بلد إلى بلد. وهكذا فقـد ندرت تلك الكتب التى كانت تصل إلى أطـراف البلد الذى ألفت فيه نتيجة لقوة الطلـب عليها أو لراهنية موضوعها. وكـاستثناء لهذه الحالة يمكن أن نذكر مـؤلفات أسيدور الإشبيلي، وخاصة كتـابه «الإيتمولوجيـا» الذي انتشر خلال حيـاة المؤلف وبعد وفـاته فـورا في كل من إسبـانيا وفـرنسـا وإيطاليـا وبقية البلـدان الأوربية حتى إيـرلندا البعيـدة ومن الاستثناءات الـلاحقة يمكن أن نـذكر مـؤلفات أبيــلار Abelard (القرن ١٢م) التي فضح فيهـا معارضيه ممـا اضطرهم، كما دوّن

بغضب القديس برنار، إلى البحث عنها «من مملكة إلى أخرى» إلا أن هذه الأمثلة كانت نادرة جدا سواء في بداية العصر الوسيط أو خلال العصر الوسيط.

فقد كان الناس في ذلك الحين، سواء في الأديرة أو في القصور الإقطاعية، يعيشون في عزلة وراء الأسوار العالية وكانوا يتصلون بصعوبة مع العالم الخارجي. وفي هذا العالم المنغلق كان الكتاب يولد ويموت، وكان أولئك الذين يعملون في إنتاج الكتاب لا يعرفون غالبا إلا الكتب الدينية، التي لم تكن تختلف محتوياتها عن الكتب الأخرى الموجودة في الدير المجاور أو البعيد. وحتى حين كان يتم إهداء الكتب الدينية، ككتب الصلوات والمزامير والتفاسير إلخ. فإن هذا لم يكن يحدث نتيجة للرغبة في البحث عن شيء جديد غير معروف بعد، بل بسبب جمالها أو تجليدها الثمين.

لقد استمرت هذه الحالة زمنا طويلا، وبالتحديد طيلة الزمن الذي كانت فيه الأديرة هي المراكز المهمة للثقافة، بل الوحيدة إلى حد ما. إلا أن انتشار «الصفحات المسمومة» لأبيلار، على حد تعبير القديس برنار، فقد كانت مؤشراً لنهضة أوربية في القرن الحادى عشر حين أخذت أوربا تصحو من سبات العصر الوسيط.

ففي هذا الوقت بالذات بدأ تنظيم شبكة وإنتاج الكتاب وأخذ يستعيد بالتدريج مكانته كأداة لنقل المعلومات. وقد كان وراء هذا الانعطاف في الدرجة الأولى العدد الكبير للطلاب والأساتذة في المدن الأوربية بعد تأسيس الجامعات بالإضافة إلى الشريحة الغنية التي أدت طلباتها المتزايدة إلى إنعاش شبكة الكتاب وتنقله بشكل أسرع. وإلى جانب تجار الكتب في الجامعات، الذين كانوا يهتمون غالبا بحاجات الجامعات، فقد برز باعة الكتب الذين كانوا يعرضون الكتب أمام الكنائس أو في الأماكن التي يقصدها المثقفون. وقد كثر باعة الكتب هؤلاء بشكل خاص في إيطاليا، في فيرنسا فينيسيا وبولونيا حيث كانوا يزودون بالكتب سكان المدن بالإضافة إلى الكثير من السياح الذين كانوا يقصدون إيطاليا من كل أرجاء أوربا.

وكان هؤلاء التجار الصغار ينقلون بضاعتهم من مدينة إلى أخرى، وخاصة في فترة المعارض. أما الكتب التي كان يعرضها هؤلاء فقد كانت رخيصة على الغالب، وكانت في الأصل لأولئك الذين لا يملكون الكثير من المال ليشتروا الكتب الغالية التي يكتبها نسّاخ معروفون. وبالإضافة إلى الكتب، التي كانت على الغالب مدرسية ودينية في اللاتينية وغير دينية في اللغات الشعبية لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية، فقد كان باعة الكتب يبيعون أيضاالرسومات المقدسة بالألوان والتي كانت تتضمن بعض الأدعية القصيرة. وفي القرن الخامس عشر الميلادى أخذ هؤلاء ــ الباعة المتجولون ـ ببيع الكتب القديمة التى كان يشتريها منهم الطلاب وسكان المدن غير الأغنياء.

ولا يجب هنا أن نبخس أهمية هؤلاء التجار الصغار أو باعة الكتب، إذ أنهم وعلى طريقتهم الخاصة، لعبوا دورا كبيرا في انتشار الكلمة المكتوبة، وخاصة بين أولئك الذين كانوا عاجزين عن الدخول إلى مكتبات الأمراء وهواة الكتب. وفي نهاية الأمر فإن وجودهم في المدن الأوربية، وخاصة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، يكشف لنا عن التغيّرات التي حدثت في أوربا خلال تطور المدن وتزايد انتشار الكتابة في الشرائح الواسعة للمجتمع، أي إلى الوقت الذي مهّد بشكل مباشر لاكتشاف الطباعة.

ز ـ الكتب في اللغات القومية

كان لظهور الأدب في اللغات الشعبية، وخاصة منذ القرن الثالث عشر الميلادى نتائج بعيدة المدى فيما يتعلق بتوصيل الكلمة المكتوبة إلى شرائح واسعة من القراء. ولم يعد الأمر حينئذ يقتصر على أعمال الأدب الشعبي بل أصبحت قمم الأدب الفني تكتب باللغات الشعبية، وبهذا أصبحت قريبة من البسطاء الذين لا يعرفون اللاتينية.

لقد بدأ هذا العصر حين دونت لأول مرة قصائد شعراء القصور في ألمانيا (مينسانع وغيره)، وحين وضع غ. تشوسر Chaucer في إنكلترا أسس الأدب

الإنكليزى في اللغـة الشعبية، وحين كتب دانتي في إيطاليـا «الكوميديـا الإلهية» التي أبرز فيها بشكل نهائي أفضلية اللغة الشعبية كلغة للكتاب.

وحول هذا نجد أن جـوفاني بوكاتشو، الذي كتب أيضا قصصـه باللغة الشعبية يخصص فصـلا صغيرا من كتابـه «سيرة حيـاة دانتي» لتوضيح الأسبـاب التي دعت دانتي إلى كتـابة عملـه الشعرى في اللغة الشعبيـة، وليس في اللغـة اللاتينيـة كما كان الأمر شائعـا حتى ذلك الحين. وعلى ما يذكر بوكـاتشو فإن دانتي فعل ذلك لكي لا يقرأ كتبـه الأدباء فقط Letterati أي المتعلمون الذين يعرفون اللاتينية، بل البسطاء Idioti أيضا. وهم في تعبير ذلك العصر الذين لا يعرفون إلا اللغة الشعبية.

وبفضل هـذه المفـاهيم أصبحت روايـات العصـور الـوسطى وقصـائد الحب والبطـولـة والقصص المختلفة وغيرهـا، كتبـا رائجـة في المجتمع الجديد للمـدينـة، وبالتحديد المجتمع الذي لم يكن يعرف ابداً قراءة محتويات الكتب اللاتينية.

ح ـ ثمن الكتاب

كانت الكتب ثمينة جدا في العصر الوسيط، ولذلك فلم يتمكن من شرائها غير الحكام والأغنياء والأديرة والكنائس. ويجب ألا يثير هـذا استغرابنا لأن إنجاز نسخة من الكتاب المقدس، أو أي كتاب آخر بهذا الحجم، كان يحتاج إلى جلود المئات من الأغنام والماعز، وإلى عمل مجهـد للنساخ والرسامين والمجلدين يمتـد من عدة شهور إلى عدة سنوات.

ولـدينـا من ذلك العصر معطيـات كثيرة حـول شراء الكتب وأثمانها. ويتبين من هذه المعطيـات أن أثمان الكتب كانـت مختلفة وكانـت ترتبط بجمال الخط والـرسوم، وقدم الكتـاب، وبشكل خاص تجليـد الكتاب الـذى يمكن أن يرفـع كثيرا ثمنه إذا كان مغلّفا بالذهب أو الفضة ومرصعا بالأحجار الكريمة أو شبه الكريمة. وبالطبع فقد كان ثمن الكتاب يختلف أيضا حسب البلد الذى يباع فيه.

وهناك بعض المعطيـات في العصر الوسيط التي تكشف عن مبـالغ كبيرة دفعت في سبيل كتب نادرة أو قيمة. وهكذا لدينا معلومة من سنة ١٠٤٧ تروى أن الخطاط

ديمونـد من فيسوبرون بألمانيـا قد أنجـز نسخة للتوراة في مجلـدين وحصل في مقابل ذلك لصالح ديـره على قرية بكاملهـا. وفي سنة ١٣٨٨ اشترى دير يوهـانس برغ في ألمانيا نسخة من التوراة مقابل ٧٠ غولدن ذهبي. ونعرف أيضا حالة القانوني الإيطالي الشهير أكـورسيـوس (١١٨٥ ـ ١٢٦٣) الـذي عجـز عن دفع ألف غـولـدن ذهبي مقابل الحصول على «كتاب القانون». ولـدينا معلومة أخرى من سنة ١٤٧٠ تكشف عن أن كتاب بلـوتارك «السير المقـارنة» بيع مقـابل ٨٠٠ غولدن ذهبـي. أما الكتب المزينة بشكل خاص فقـد كانت تباع بأثمان خيالية. وهكذا فقـد اشترى الكاردينال دومينيكو غـريماني بـ ٥٠٠ دوقيـة ذهبية «كتـاب الساعـات» الذي زينـه الرسـامون الهولنديـون بـ ١١٠ لـوحات رائعة. وقـد اشتهر هذا الكتـاب لاحقا بـاسم «كتاب فـريماني» وهـو محفوظ اليـوم في مكتبـة مـارسيـانا بفينيسيـاولكن ارتفـاع ثمن هـذه المخطوطات كان أمرا استثنائياً متعلقاً بالقيمة الفنية العالية لهذه المخطوطات.

أما الكتب الأخرى، التي لم تكن منسوخة ومزينة إلى هذا الحد من الجمال، والتي أنجزت لتلبـي حاجات الطـلاب في الجامعات أو مـا شابـه ذلك، فلم تكن غـالية وبعيدة عن متنـاول الأيدى لمعظم الناس. وقـد كان الباعـة المتجولون في السـاحات العامة وإمام الكنائس يبيعون هذه الكتب الرخيصة نسبيا في نهاية العصر الوسيط أما في القرن الخامس عشر وحتى قبل أن يكتشف غوتنبرغ اختراعـه الثورى، الذي أدى إلى هبوط ثمن الكتاب إلى حد لم يتصوره أحد، فقد أدى الإنتاج الكبير لورش النسخ الخاصة وورش النسخ الجامعيـة إلى أن يصبح الكتاب أقرب للناس، وبـالتحديد في متناول القدرة الشرائية للطلاب والحرفيين وبقية المواطنين.

ي ـ مادة الكتابة

خلال العصر الوسيط كانت تستخدم في أوربا ثلاثة أنواع من مادة الكتابة: الرق وورق البردى والورق العادي.

وكان الرق بميزاتـه على ورق البردى قد فرض نفسه كأهم مادة للكتـابة منذ نهاية العصر الوسيط وبقي يستعمل طيلة هذا العصر ، وحتى فيما بعد، إلى أن برز الورق بسعره الرخيص وقضى على استخدامه.

وبالمقارنة مع ورق البردى الذى كان يستورد من مصر البعيدة في بداية العصر الوسيط فقد كان الرق يصنع في الأديرة وحتى في الكميات التي كانت تحتاجها ورش النسخ في تلك الأديرة. ومن هنا فلم يكن هناك داع لبيع وشراء الرق، كما كان الأمر مع ورق البردى، لأن كل دير كان ينتج من الرق ما يحتاج إليه. وفي الواقع، كان الاكتفاء الذاتي، حتى فيما يتعلق بمادة الكتابة، يفرض نفسه كأفضل حل نظرا لأن الكثير من طرق التجارة كانت مقطوعة أو أنها كانت تستخدم قليلا، ولأن الأديرة كانت تكفي نفسها بنفسها من كل المواد تقريبا.

أما فيما يتعلق بورق البردى، فقد بقي يستعمل في أوربا خلال بداية العصر الوسيط ولكن في كميات أقل بكثير مما في السابق وفي عدد أقل من البلدان. فقد كان ورق البردى يستعمل بشكل استثنائي في فرنسا و إيطاليا لكتابة المؤلفات حتى القرن السابع الميلادى، بينما ظل مستخدماً فيما بعد لكتابة الوثائق الرسمية وفي الإدارة بشكل عام. وهكذا نجد أن الحكام الفرانكيين في ميروفينع Meroving كانوا يستخدمون ورق البردى فقط فى مراسلاتهم حتى العقد الثامن من القرن السابع الميلادى، بينما أصبح استعماله نادرا خلال القرن الثامن الميلادى. وقد تلاشى استعمال ورق البردى حينئذ في عدة بلدان أخرى إلا أن البابوات بقوا يستخدمونه في مراسلاتهم حتى القرن الحادى عشر الميلادى.

وقد كان التخلي التدريجي عن استعمال ورق البردى في أوربا يرتبط بالتراخي التدريجي للعلاقات التجارية بين مصر وأوربا الغربية بعد فتح العرب لمصر في القرن السابع الميلادى. وفي الواقع لقد كان قدوم السفن السورية وغيرها إلى مرسيليا وبقية موانىء غرب المتوسط يقل باستمرار مما كان يقلل بدوره من وصول ورق البردي إلى أوربا. وقد كان انقطاع هذه الصلات التجارية التقليدية بين مصر وأوربا الغربية بالذات هو السبب الحقيقي الذى جعل ورق البردى الرخيص نسبيا يخسر المعركة نهائيا مع الرق.

أما الورق، مادة الكتابة الجديدة التى ستقضي بسرعة على كل المواد الأخرى، فقد برز في أوربا كسلعة تجارية مستوردة من العالم العربى. وقد كان الورق يصل أوربا

من دمشق عبر القسطنطينيـة ومن أفريقيـا الشمالية عبر صقلية، بينما كـان يصل إلى عدة مناطق في أوربا الغربية عبر إسبانيا. وقد احتكر العرب انتاج الورق لفترة طويلة من الزمن. ويُعتقـد أن أول مصنع للورق خارج العالم العربـي قد أسس سنة ١١٤٧ في فيدالون في الجانب الفرنسي من البيرينة، من قبل جـان مونتغولفيه الذي شارك في الحملة الصليبية الثانية ووقع في الأسر لـدى العرب. وكان هذا قد قضى فترة أسره في دمشق ويبدو أنه اطلع هناك على كيفيـة صنع الورق. إلا أن المصنع الآخر الذى بني في إيطاليا، في فابريانـو بالقرب من أنكونا Ancona والذى بدأ إنتـاجه سنة ١٢٧٦ كـان أهم بكثير حتى أن إيطاليـا سرعـان ما أصبحـت أهم منتج للورق، وأبعـدت العـرب بسرعة عن السـوق الأوربي. وقـد أسس مصنع آخـر للورق سنـة ١٢٩٣ في بولونيا، ثم برز بعد ذلك عدد كبير من المصانع الأخرى.

وقد ساد الاعتقاد زمنا طويـلا في أوربا بأن الورق هو مجرد بديل رخيص عن الرق يصلح لكتابة النصوص الآنية، أي التي لا يحتاجهـا أحد لفترة طويلة. فبالمقارنة مع الرق المتين كان الورق اللّين الذي يمكن أن يطوى ويمزّق بسهولة يبدو في نظر كتّاب الدواوين الملكيـة والنساخ الـذين ينسخون المخطوطـات لمكتبات الأديـرة والمكتبات الأخرى مادة غير مضمونة لكتابة الوثائق الرسمية المهمة والمعاهدات الدولية والكتب المقدسة إلخ. وهكذا نجد مثلا أن ملك صقلية ونـابولي فريدريك الثاني قد منع منذ سنة ١٢٣١ استعمال الورق لاستعمال الوثائق العامة، وحتى أن هذا المنع دخل لاحقا في قوانين بعض المدن وقوانين بعض الـروابط. وعلى الرغم من هذا المنع، ومن الشك الذى بقي يتمسك بـه النساخ وزبائنهم، إلا أن الـورق استمر في شق طريقـه. وقد أدى الطلب المتزايد على مادة الكتابة ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى، وخاصة مع افتتـاح الجامعات حيث بـرزت الحاجـة إلى نسخ عدد كبير من الكتب للطـلاب والأساتذة إلى تقصير الرق عن تلبية الحاجات المتزايدة.

وقد أخـذت الوثائق العـامة تكتب على الـورق منذ القرن الثـالث عشر الميلادى بحيث أن الـرق تحول مع الـزمن إلى مـادة تكتب وتطبع عليهـا فقط بعض المؤلفـات الغالية المزينة بتوصية خاصة من الحكام أو من هواة جمع الكتب.

وكان الورق الذى ينتج في فابريانو وبقية المدن الإيطالية من نوعية ممتازة حتى أنه تفوّق على الورق العربى. وقد أخذ التجار الإيطاليون يبيعون الورق في كل البلدان الأوربية. ونظرا للطلب المتزايد فقد أسست مصانع جديدة للورق في فرنسا أولا (في تروايز قرب باريس إلخ) ثم في ألمانيا. وقد أسس أول مصنع في ألمانيا سنة ١٣٩٠ في نورنبرغ. ويبدو أنه ليس من المصادفة أن يؤسس هذا المصنع في نورنبرغ لأن هذه المدينة كانت أهم مركز لإنتاج الكتاب بواسطة القوالب الخشبية.

ك ـ منع واحراق الكتب

في العصر الوسيط، حين كانت الكتب تنسخ داخل أسوار الأديرة أو في ورش النسخ التابعة للاسقفيات، نجد أن مكافحة الكتب غير المرغوبة والخطرة كانت أسهل بكثير مما كانت عليه في العصر اليوناني ـ الروماني. ففي هذه الظروف لا يمكن ببساطة أن نتصور وجود مفكرين أحرار يمكن أن يكتبوا مؤلفات يتعارض مضمونها مع ما تسمح به سلطة الكنيسة أو سلطة الدير.

ومع هذا فقد برزت في هذا العصر المظلم بالنسبة للفكر الإنساني الحر عدة مؤلفات اعتبرت خطرة من قبل الكنيسة. وقد كان من الطبيعي في هذه الحالة أن تمنع الكنيسة هذه المؤلفات وأن تلاحق دون رحمة مؤلفيها.

وقد كان أقدم مثل لمنع الكتب في تاريخ المسيحية قد سجل في العصر القديم. ففي سنة ٣٢٥م اتخذ مجمع نيقيه قرارا بمنع مؤلفات أسقف الإسكندرية آريوس لأنه ورد فيها بعض الآراء عن التثليث، أحد أسس العقيدة المسيحية، التي كانت تتعارض مع التفسيرات الرسمية للكنيسة. وقد صدرت فيها بعد قرارات أخرى بمنع الكتب، سواء من الكنيسة أو الدولة التي كان يصاحبها غالبا إحراق الكتب.

أما أول تسجيل للكتب غير المرغوبة فقد حدث في القرن الخامس الميلادى، وبالتحديد في سنة ٤٩٤م. وفي الواقع لقد كان هذا «مرسوم فيليسيان» وبالتحديد ذلك المقطع من هذا المرسوم الذى يحمل عنوان «الكتب المرغوبة والكتب غير المرغوبة»، حيث تذكر أولا الكتب الجيدة والمفيدة للقراء ثم الكتب الهرطقية

والمشبوهة التي تمنع قراءتها.

وخلال العصر الوسيط، حين بسطت الكنيسة سيطرتها الكاملة على المجال الروحي أصبحت ملاحقة المؤلفات، والمؤلفين بشكل خاص تتم عند أبسط انحراف عن التعاليم الرسمية للكنيسة. وفي بداية ومنتصف العصر الوسيط كان الأمر غالبا يتعلق بالمؤلفات المنسوبة إلى القديسين والمؤلفات الهرطقية ثم المؤلفات التي تتضمن الخرافات وغير ذلك.

وهكذا فقد تقرر مثلا في مجلس كنسي في القسطنطينية خلال سنة ٦٩٢م إحراق سِيَر الحياة المنسوبة إلى الشهداء، كما أن بطريرك القسطنطينية نيقفور اتخذ قرارا مشابها سنة ٨١٤م.

ومع هذا فقد كانت هذه الحالات نادرة بينما زادت كثيرا في نهاية العصر الوسيط إلى الحد الذي أدى أخيرا إلى إضعاف سيطرة الكنيسة على إنتاج الكتاب. وهكذا فقد بقيت لنا معطيات كثيرة تتحدث عن منع مؤلفات مختلف الكتاب كما حدث للكاتب اللاهوتي برينيفار سنة ١٠٥٠م وأبيلار Abelard (سنة ١١٢٠م)، وإيفان سكوت إريوغنا Eriugena (سنة ١٢٢٥) وجون ويكليفت سنة ١٣٨٧م و١٤٠٨م و١٤١٣م، وللكثير من الهراطقة وغيرهم الذين حاسبتهم الكنيسة بكل صرامة.

وقد كانت كتب هؤلاء الكتّاب الذين كانوا يعتبرون خطرين كويكلف، تدان بالحرق وتمنع قراءتها تحت التهديد بالحرمان. وهكذا كان الأمر أيضا مع التلمود، الكتاب المقدس عند اليهود، الذي منع وأحرق عدة مرات خلال العصر الوسيط.

ومن ناحية أخرى فقد صدرت خلال العصر الوسيط سلسلة من القرارات التي تمنع ترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات الشعبية. وفي بعض الحالات كانت قرارات المنع تشمل امتلاك هذه الترجمات لكي لا يفسر الناس كما يريدون الكتاب المقدس. وقد تكاثرت قرارات المنع هذه في فرنسا بشكل خاص منذ القرن الثاني عشر الميلادي.

وهكذا نجد مثلا أن المجلس الكنسي في طولوز قد أصدر سنة ١٢٩٩م قرارا يمنع فيه أفراد الشعب من امتلاك نصوص العهد القديم والعهد الجديد باستثناء

سفر المزامير على ألا يكون مترجما إلى اللغة الشعبية. وقد صدرت لاحقا قرارات منع مشابهة في إنكلترا و إسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية.

ل ـ المؤلفات المرجعية

كانت الموسوعات وقواميس الإعلام والأعمال البيليوغرافية من العصر القديم هي المصادر الأساسية التي ساعدت على تأليف الكتب المرجعية في بداية ومنتصف القرن الوسيط.

ومن أهم هذه المؤلفات القديمة كان كتاب بلين «التاريخ الطبيعي» الذي نسخ كثيرا واستخدم كمصدر أساسي للمعلومات. وقد دفعت الحاجة إلى تفسير بعض الظواهر في الطبيعة والمجتمع، حسب الفهم المسيحي للعالم، إلى تأليف بعض الموسوعات الجديدة في وقت مبكر كموسوعة «الإتيمولوجيا» التي أنجزها الأسقف إسيدور الإشبيلي. وقد كانت هذه الموسوعة الأولى في العصر الوسيط مقسمة إلى عشرين مجلدا وكل مجلد مقسم بدوره إلى عدة فصول. وقد عرض المؤلف في هذه الموسوعة كل معارف عصره في القواعد والبلاغة، والطب، والحيوان، والمدن، واللغات والزراعة، والمعادن، والأسلحة والسفن إلخ. ولتأليف هذه الموسوعة فقد كان تحت تصرف المؤلف الكثير من مؤلفات العصر القديم، التي أخذ منها بشكل مباشر أو غير مباشر المعطيات التي كان يريدها. وقد ذكر المؤلف نفسه حوالي سبعين كاتبا وثنيا استفاد منهم ولهذا السبب بالذات فإن موسوعته تميزت بسمة وثنية. ولذلك يقال عنها بحق أنها الموسوعة الأخيرة للعصر القديم والموسوعة الأولى للعصر الوسيط.

وكنا قد ذكرنا سابقا أن هذه الموسوعة قد انتشرت في كل مكان حتى وصلت إلى أبعد الأديرة والمدن، وبقيت زمنا طويلا أهم مصدر للمعلومات في أوربا خلال العصر الوسيط. فقد وصل عدد النسخ المحفوظة أو المذكورة في مصادر ذلك العصر، إلى ٩٥٠ نسخة وهو عدد كبير بالفعل. ويبدو أن الفضل في انتشار هذه الموسوعة يعود إلى

المبشرين الإيرلنديين الذين كانوا ينسخون ويحملون هذه الموسوعة من بلد إلى آخر. وكانت كل مكتبة جيدة من مكتبات الأديرة تحاول أن تحصل على نسخة من هذه الموسوعة لأنها كانت لفترة طويلة الموسوعة الوحيدة التي ألفها كاتب مسيحى، ولأنها كانت المصدر الوحيد الذى جمع معارف ذلك العصر.

ومع أننا نعرف اليوم أن هذه الموسوعة تحتوى على معطيات خاطئة وتفسيرات ساذجة إلا أن هذا بالطبع لم يؤثر على شعبيتها الكبيرة في بداية ومنتصف العصر الوسيط.

وقد نسخت هذه الموسوعة في نهاية القرن الثامن الميلادى فى دير فولدا المشهور في ألمانيا. وفي هذا الدير بالذات ألف الأباتي المثقف هرابانوس ماوروس سنة ٨٤٤م موسوعة «حول شؤون الطبيعة» أو« حول الكون» كما يُذكر في بعض المصادر. وبشكل عام يُعتقد أن موسوعة إسيدور الإشبيلي كانت المصدر الرئيسي للمعلومات بالنسبة إلى ماوروس. ولكن بالمقارنة مع موسوعة إسيدور نصف الوثنية فقد كانت موسوعة ماوروس هي نتاج نموذجي للعصر الوسيط المسيحى. فقد تشبعت تفسيراته للظواهر الطبيعية والاجتماعية بالصوفية، بينما اختلط الواقع لديه غالبا بالعالم الخيالي لإنسان العصر الوسيط. ومع ذلك فقد أمنت شهرة المؤلف شعبية كبيرة لهذه الموسوعة.

وخلال القرون اللاحقة ألفت في أوربا الغربية عدة موسوعات ولكن لم تحرز أية واحدة منها النجاح الذى كان لموسوعتي إسيدور وماوروس. ومن هذه الموسوعات لابد أن نذكر أولا «الكتاب المزهر» للكاهن القانوني لامبرت الذي كتب في بداية القرن الثاني عشر، ثم موسوعة «بستان المتع» لـ هيراد من لاندسبرغ التي كتبت في النصف الثاني عشر الميلادى.

ومن القرن الثالث عشر الميلادى لدينا أول موسوعة في لغة شعبية ألا وهى «كتب الخزانة» التي ألفها الكاتب الإيطالى المعروف برونيتو لاتيني B.Latini خلال فترة نفيه في فرنسا، التي امتدت ثلاث سنوات (١٢٦٢ ــ ١٢٦٦م). ولابد أن نذكر هنا أضخم موسوعة في العصر الوسيط ألا وهي «المرآة الكبرى» التي ألفها الدومينيكاني

فينسنت Vincent (١١٩٠ ـ ١٢٦٤م) بطلب من الملك الفرنسي لويس التاسع. وكان الملك قد أمّن لـه عددا كبيرا من النساخ الذين كانوا يستخـرجون له الخلاصات من الكتب المختلفة وبهذا التصنيف الواسع، الذي يعد أكبر تصنيف من نوعه حتى القرن الثامن عشر الميـلادى، أصبح الكتّاب القدماء مصدرا متساويـا للمعلومات مع الكتاب المسيحيين، وقد كان ذلك مؤشراً على تجاوز الموقف العدائي من الكتّاب الوثنيين اليونانيين ـ الرومانيين وتأصيل موقف جديد مـن تراث العصر القديم. وقد نسخت هذه الموسـوعة مـرات كثيرة بينما قام بطبعها النـاشر المعروف مينتيلين Men-telin في أربعة مجلدات ضخمة في ستراسبورغ خلال ١٤٧٣ ـ ١٤٧٦م.

ومع هذا فإن أية موسوعة من موسوعات العصر الوسيط لم تصل من حيث القيمة إلى مستوى موسوعة إسيدور الإشبيلي. ولذلك فليس من المستغرب أن هذه الموسوعة بقيت تنسخ طيلة العصر الـوسيط وبقيت تستخدم كمصدر رئيسي للمعلـومات من قبل كل الكتاب الذين عملوا في المجال الموسوعي خلال ذلك العصر.

وبشكل مستقل عن هذه الموسـوعات التي أنجـزت في أوربا الغربيـة ظهرت في القسطنطينية عدة مـوسوعات لعل من أشهرها «كتاب العطـورات»، الذي أنجز في القرن التاسع الميـلادى. وكان بطريرك القسطنطينية فوس، أحـد هواة الكتب الذى كان يتمتع بثقافة واسعـة هو الذى أنجز هذا العمل الموسوعي ـ البيليوغرافي. ففي هـذه الموسوعـة نجـد عـرضـا لــ ٢٨٠ كتـاب كانت في حـوزة المؤلف مع تفـاوت في التعريف بين كتـاب وآخر. فالمؤلف يكتفي أحيـانا بتعريف الكتاب في عـدة سطور بينما كان يخصّ بعض الكتب التي يعتبرها مهمة، بعـدة صفحات. ويلاحظ هنا أن المؤلف لم يميز بين الكتَّاب الوثنيين وبين الكتاب المسيحيين، حتى أن نصف الكتب الــ ٢٨٠ الـواردة في موسـوعتـه هي لكتّـاب وثنيين حظي منهم المؤرخـون بتعـريف أفضل.

وفي الواقع لقد كانت موسوعة فوس، في العصر الذي كان يفتقد أية استعادة من التراث القديم، تتمتع بأهمية كبيرة كمصدر للمعلومات للشريحة المتعلمة في المجتمع البيزنطي آنذاك. وحتى اليوم لم تفقد موسوعة فوس أهميتها لأن المؤلف يستعرض فيها

محتويات الكثير من الكتب التى لم تصل إلينا . ويكفي هنا أن نذكر أنه من أصل ٣٣ مؤلفا تاريخيا وضعها لنا فوس في الموسوعة لا نعرف اليوم إلا ثلاث عشرة بينما فقد عشرون منها .

وفي هذه الموسوعة يكتب فوس عن ضرورة تأليف معجم يعتمد على الاستشهادات من الكتب الأخرى ليشرح الأفكار المختلفة . وبالفعل فقد كتب كتابا من هذا النوع ، كما أنه أنجز معجما آخر إلا أنه لم يصل إلينا . وحتى معجمه الأول كان معروفا من خلال بعض المقاطع فقط إلى سنة ١٩٥٩ ، حتى اكتشفت نسخة كاملة منه في أحد الأديرة .

وفي نهاية القرن العاشر الميلادى تضافرت جهود بعض المتعلمين في بيزنطة لإنجاز عمل معجمي بعنوان Suidas وهو تصنيف يعتمد على الكتب البيليوغرافية السابقة والمصادر الأخرى . وفي الواقع أن هذا العمل مهم لأنه حفظ لنا الكثير من المعطيات عن كتب وكتّاب من العصر القديم لم نكن نعرف عنهم شيئا لولا هذا العمل . وهناك تفصيل مهم يميز هذا العمل عن موسوعات العصر الوسيط في أوربا الغربية . ففي هذه الموسوعات يتم استعراض المواد من خلال الفصول والأبواب بينما نجد أنه في Suidas تتسلسل المواد حسب الترتيب الأبجدي ، أى على الطريقة المتبعة في المعاجم والأعمال المشابهة في العالم اليوناني منذ القرن الثالث ق . م .

ولكن ماذا كان يمكن لإنسان العصر الوسيط أن يتعلم من هذه الموسوعات عن الطبيعة ، وعن جسم الإنسان ، وعن الرياضيات ، وعن كل الأمور الأخرى التي تهمه؟

إذا قرأنا اليوم هذه التصنيفات تبدو لنا في غالبيتها مجموعة من المعلومات الخاطئة والتفسيرات المغلوطة والساذجة ، وخاصة فيما يتعلق بالطبيعة وقوانينها ، ولكن في ذلك الوقت كانت المصدر الوحيد تقريبا للمعلومات ولذلك فإن أهميتها كانت كبيرة جدا . وفي الواقع لم يكن في الإمكان أن تكون هذه الموسوعات أحسن مما كانت لأنها أنجزت في ذلك الوقت الذى كانت الظواهر الطبيعية والاجتماعية تفسر بالاستناد إلى

الكتاب المقدس وليس على أساس الأبحاث العلمية الأصيلة.

أما المصدر الآخر للمعلومات فكان يتمثل في قواميس الأعلام. كان القديس يورينم (٣٤٧ ـ ٤١٩ أو ٤٢٠) قد أنجز، على نمط الأعمال المشابهة اليونانية والرومانية كتابه «حول الرجال المشهورين» ، الذي قلد فيه من كل ناحية قواميس الأعلام التي ظهرت في العصر القديم تحت العنوان ذاته. وقد أنجز يورنيم كتابه هذا سنة ٣٩٢ وقدم فيه سير حياة ١٣٥ كاتبا مسيحيا بالإضافة إلى سيرة حياته. وفي الواقع إن هذا القاموس يكاد أن يكون بطابع بيو ـ بيليوغرافي لأن المؤلف حرص في كل سيرة أن يقدم المعطيات الحياتية التى تخص الكاتب بالإضافة إلى عناوين كتبه. وعلى الرغم من النقائص التي لاحظها المعاصرون (القديس أوغسطين مثلا) فقد بقي هذا القاموس لوقت طويل في العصور الوسطى نموذجا لقواميس الأعلام.

وهكذا فقد تابع العمل في هذا المجال غناد Genad المرسيلي، الذي أنجز في القرن الخامس قاموس أعلام يحمل العنوان ذاته. أما في القرن السابع الميلادى فقد أنجز إسيدور الإشبيلي قاموسا آخر اهتم فيه بالكتّاب الذين ينحدرون من أصل إسباني.

ومع أنه قد ظهرت خلال العصر الوسيط عدة قواميس من هذا النوع إلا أن أهم هذه على الإطلاق، من حيث وفرة المعطيات البيوغرافية والبيليوغرافية، كان قاموس «حول الكتاب المسيحيين». الذي أنجزه رجل الدين والفيلسوف هنريك من غاند Gand في القرن الثاني عشر الميلادى. وفي هذا القاموس يرد ذكر تسعة آلاف عنوان كتاب لمختلف المؤلفين المسيحيين. وقد طبع هذا القاموس فى كلن سنة ١٥٨٠، إلا أن مخطوطه كان يستخدم كمصدر للمعلومات حتى قبل هذا التاريخ.

وابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى أخذت تظهر قواميس كثيرة على نمط قاموس بلوتارك «السير المقارنة» ولكن لم تعد الآن تقتصر على سير رجال الدين والكتّاب المسيحيين بل أصبحت تشمل الآخرين. ومن هذه القواميس يمكن أن نذكر هنا ما أنجزه بتراركا («حول مشاهير الرجال») وبوكاتشو وغيرهم، إلا أن عدد

هذه القواميس تـزايد أكثر مع تطور الثقـافة في المدن ومع تزايد الحاجـة إلى معلومات من هـذا النوع . ولكن يـلاحظ من ناحيـة أخرى أن أوربـا خلال العصر الـوسيط لم تعـرف كثيرا الأعمال الببلوغـرافيـة ، أى الأعمال التي تتحـدث في الدرجـة الأولى عن الكتب ثم الكتّـاب . ومن هـذه الأعمال النـادرة من هـذا النـوع «في أسماء الكتب» ، الذى أنجزه ريكـارد من فورنيقال سنة ١٢٥٠م . وكان ريكارد قـد أنجز هذا العمل لكي يكون دليلا لمعـاصريه إلى عالم الكتاب . وفي الواقع فقـد اكتفى ريكارد في هذا العمل بوصف مـا لديه من كتب فى مكتبته التى يُعتقـد أنها كانت تحوى حوالي ٣٠٠ كتاب ، وذلك حسب الاختصـاصات . وإذا أخذنا بعين الاعتبـار العصر الذى كوّن فيه ريكـارد هذه المكتبة فإن عدد مـا فيها من كتب يستحق التقدير ، لأن هـذا العدد من الكتب وهذا النـوع من الاختيار للكتاب لا نجد له مثيـلا في الكثير من مكتبات الأديرة والكاتدرائيات . وهكذا نـدرك من وصفه أنه كان يملك في مكتبته مسرحيات سينيكا وأشعار بروبيروس وتيبول والكثير من مؤلفات الكتّاب في العصر الوسيط . أما في القرن الـرابع عشر فقد ألف ريتشـارد دي بوري De Bury (١٢٨٧ ـــ ١٣٥٤) مؤلفـه المعروف «صديق الكتـاب» . وكان ريتشـارد قد شغل مناصب مهمـة جدا في حياتـه وتجول في أوربا كمبعـوث للملك الإنكليزى إدوارد الثـالث . وهكـذا فقد زار الكثير من مكتبات الأديرة والكـاتدرائيات وتزود منهـا بالكثير من الكتب التي أحب أن تكون في مكتبته الشخصية . فقد كان يشترى ويقبل الهدايا و«يستعير» الكتب التى لا يعيدها ثانيـة إلى أصحابها حتى تمكن من تكوين مجموعة مهمـة جدا من مؤلفات الكتـاب في العصر القـديم والعصر الوسيط . وفي كتـابـه «صـديق الكتاب» يـذكـر بالتفصيل كيف تمكـن من تجميع الكتب لمكتبته ثم يصف لنـا هذه الكتب ، ويختتم ذلك في النهايـة بتعليمات عن كيفية رعـاية الكتب وعن الشروط التي يمكـن أن تعار فيها .

وقد أحرز هذا الكتاب نجـاحا كبيرا في ذلك الوقت . فقد نسخ مرات كثيرة حتى الآن (وجدت ٤٥ نسخـة منه) بينما طبع للمرة الأولى في كلن سنـة ١٤٧٣ ، وقد بقي يترجم ويطبع بـوفرة فيما بعـد وحتى يـومنا هـذا نظرا لأنـه من الأعمال المثيرة في مجال هواية جمع الكتب .

ومع أن ريتشارد دى بوري لم يهدف في الحقيقة إلى تصنيف مؤلف مرجعى إلا أنه أنجز عملا من هذا النوع لأن الكثير من القراء كانوا يستفيدون من هذا العمل في التعرف على عدد كبير من الكتّاب مع عناوين كتبهم.

وكمصدر للمعلومات لابد أن نذكر هنا الفهارس المخطوطة للمكتبات المختلفة، مع أنها كانت مخصصة فقط للقراء الذين يستفيدون من تلك المكتبات مما كان يقلل من قيمتها كمصدر للمعلومات. أما النوع الآخر من الفهارس فيتعلق بما يسمى «الفهارس الجامعة» وهي التي كانت قد ظهرت في نهاية العصر الوسيط لتسمح لعدد أكبر من القراء بالاستفادة من الكتب المذكورة فيها. وفي الواقع فإن ظهور هذه الفهارس الجامعة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد يدل في حد ذاته على اهتمام متزايد للناس المتعلمين للحصول على معلومات من هذا النوع.

إن كل مصادر المعلومات هذه تبدو لنا اليوم قليلة من حيث العدد ومحدودة التأثير خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن عدد أولئك الذين كانوا يستفيدون منها كان قليلا نسبيا. ولكن مع ذلك فإن هذا لا يسمح لنا أن نستخلص بأن المتعلمين في أوربا خلال العصر الوسيط كانوا غير مطلعين على الكتب الجديدة والأفكار الجديدة بسبب قلة المصادر المكتوبة التى كانت متوفرة لهم. وفي الحقيقة لا يجب أن ننسى أن إنسان العصر الوسيط كان يتوصل إلى معظم المعلومات عن الكتب، وعن الشخصيات التاريخية المختلفة، وعن الحوادث إلخ.. عن طريق السماع سواء في الدير، أو في المدرسة، أو عن طريق المعارف من المتعلمين وهكذا. وبالإضافة إلى هذا فقد كان تنقل الرهبان المتعلمين من دير إلى آخر وتنقل بقية المتعلمين من مدينة إلى أخرى وسيلة جيدة وفعالة لنقل المعلومات.

ل ـ المكتبات في العصر الوسيط

خلال العصر الوسيط كانت المكتبات توجد في الأديرة والكاتدرائيات والبيوت الخاصة، بينما أخذت تظهر في نهاية هذا العصر المكتبات العامة. وقد كانت الغالبية



لوحة تمثل مكتبة في القرون الوسطى في كتاب س. برانتا الذي نشر في بازل ١٤٩٧

العظمى من هذه المكتبات في الأديرة حيث نجد مكتبة ــ حتى لو كانت متواضعة ـ في كل دير من آلاف الأديرة المنتشرة في اوربا آنذاك . وفي هذه المكتبات كانت أكثر الكتب تتعلق بالخدمات الدينية أو بتربية الجيل الجديد من الرهبان. وإذا كنا قد تحدثنا بشكل مطول عن هذه المكتبات فسوف نتعرض لها ثانية هنا .

وإلى جانب ذلك تأتي من حيث الأهمية مكتبات الكاتدرائيات، التي لعبت دورا مهما في القرون الأولى من العصر الوسيط. وكان هذا النوع من المكتبات قد ظهر في العصر القديم إلا أن بعضها فقط أصبحت لها قيمة ومكانة كبيرة في العصر الوسيط.

وهكذا فإن المكتبات من هذا النوع في إنكلترا، وخاصة تلك التي تأسست في القرن السادس في كانتربرى، والأخرى التي تأسست في القرن السابع في يورك، كانت تتمتع بمثل هذه الأهمية. وكان أشهر راهب في عصره، الكوين، قد حصل تعليمه في مكتبة كاتدرائية يورك بالذات قبل أن ينتقل إلى القارة الأوربية. وفي فرنسا كانت أهم هذه المكتبات في ليون وريمس Rejms، بينما كانت أشهر هذه المكتبات في ألمانيا في ماينس وتريية Trier وفيرسبورغ إلخ. وفي إيطاليا لابد أن نذكر من هذه المكتبات مكتبة لوتشي وخاصة مكتبة فيرونا التي تأسست في القرن الخامس الميلادى والتي تعتبر من المكتبات الأوربية النادرة التي حافظت على استمراريتها من ذلك العصر وحتى يومنا هذا. وقد حفظت في هذه المكتبة نسخ نادرة من الكتب القديمة ومخطوطات أخرى بينما انتقلت بعض الكتب التي نسخت في هذه المكتبة إلى مكتبات أخرى. وقد كانت ورشة النسخ في هذه المكتبة، التي بدأت عملها منذ بداية القرن السادس الميلادى، كانت من أنشط ورش النسخ في إيطاليا وخاصة خلال القرن التاسع الميلادى. وفي الواقع لدينا من القرن السادس بالذات أقدم مخطوط مؤرخ تم نسخه في هذه الورشة ألا وهو كتاب «سيرة حياة مرتينوس» لسولبيسي سيفر، الذي قام بنسخه المصحح في المكتبة أورسينيوس سنة ٥١٧م، وذلك كما دون هذا بنفسه في المخطوط. وعلى كل حال إن هذا هو أقدم مخطوط مؤرخ في أوربا خلال العصر الوسيط.

وفيما يتعلق بكرواتيا فقد برزت أهمية مكتبة كاتدرائية سبليت، التي كانت تضم ورشة نسخ أيضا. وكانت ورشة النسخ قد أسست في القرن السابع الميلادى أو في القرن الثامن على أبعد تقدير، وكانت تنسخ فيها الكتب لحاجات الكاتدرائية التي أسست في ذلك الحين. ويبدو أن ما يسمى «إنجيل سبليت» قد كتب هنا في القرن

الثامن الميلادى على حد رأى ق. نوفاك. وقد اغتنت لاحقا مكتبة الكاتدرائية بمخطوطات كثيرة بقي بعضها إلى يومنا هذا. وفي الواقع فإن هذه هي أقدم مكتبة نعرفها في كرواتيا وفي يوغسلافيا بشكل عام.

وتشكل مكتبات الجامعات مجموعة مهمة جدا، وهي المكتبات التي أخذت تبرز في الجامعات منذ القرن الثالث عشر الميلادى. ومن هذه المجموعة تميزت بغناها ومكانتها المكتبات التي أسست في إطار الكليات في باريس، وخاصة تلك الكلية التى حملت اسم مؤسسها روبرت دى سوربون، وكانت هذه المكتبة قد أصبحت خلال وقت قصير أحد أغنى المكتبات في أوربا. وقد برزت أيضا مكتبات مهمة في جامعة ألمانيا (هايدلبرغ، إيرفورت و كلن) وإيطاليا (بولونيا، بادوفا، ونابولي) وإنكلترا (أوكسفورد وكامبردج) وإسبانيا (سالامانكا) وغيرها.

وقد جمع أيضا الحكام في قصورهم والإقطاعيون في حصونهم مجموعات مهمة من الكتب. ومن هؤلاء كان فريدريك الثاني ملك صقلية والإمبراطور الجرماني لاحقا (حكم ١٢١٢ ــ ١٢٥٠) يمتلك مكتبة غنية جدا بقصره في باليرمو. وكان هذا الحاكم من جوانب كثيرة النموذج السابق للحكام والأمراء المتعلمين لعصر النهضة في إيطاليا. فقد كان يجمع في قصره عددا كبيرا من المترجمين والفلاسفة والشعراء والعلماء بحيث حوّل قصره إلى واحد من أنشط المراكز الثقافية في أوربا. وقد نظم بنفسه ترجمة الكتب العلمية من اللغة العربية ثم ترجمة مؤلفات الرياضيات والفلك والفلسفة للكتّاب اليونانيين الكبار وأرسطو بشكل خاص، كما أنه كان يكتب بنفسه المقالات العلمية.

وفي باريس جمع ملوك فرنسا مخطوطات قيمة وأسسوا بهذه نواة «المكتبة الملكية» التي ستتحول بعد وقت طويل خلال الثورة الفرنسية، إلى «المكتبة الوطنية» التي هي اليوم من أكبر المكتبات في العالم.

وكنا قد ذكرنا من مكتبات حكام العصر الوسيط تلك المكتبة التي كونها في قصره الملك الفرانكي كارل الكبير، والتي طورها من بعده خلفاؤه ولا سيما كارل الأصلع (٨٤٣ـ ٨٧٧م).

وقد لجأ الكثير من الحكام والإقطاعيون لاحقا إلى إنفاق المبالغ الطائلة لشراء المخطوطات النادرة والمزينة بشكل فخم سواء بدافع حب المعرفة أو بدافع التقليد والحفاظ على المكانة. وقد تضررت الكثير من المكتبات خلال الحروب والصراعات الاجتماعية بينما سلمت بعض هذه المكتبات من الأخطار وتحولت لاحقا إلى نواة للمكتبات الضخمة في القصور خلال عصر النهضة.

ومن بين كل هذه المكتبات كان لمكتبة البابوات وضع خاص في العصر الوسيط. وحول وجود هذه المكتبة تعود الأخبار الأولى إلى القرن الرابع الميلادى. ففي ذلك الوقت قام البابا داماس الأول ببناء كنيسة القديس لورنس، وخصص قرب هذه الكنيسة بناء كمركز للوثائق البابوية حيث كانت تحفظ الكتب أيضا. ومع أن الأخبار تتضاءل عن هذه المكتبة خلال العصر الوسيط إلا أنه لا يوجد شك بوجودها وأهميتها. وقد نقلت هذه المكتبة في عهد البابا غريغور الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤م) إلى لاتيران، ولدينا من سنة ٨٧١م أقدم خبر يكشف عن وجود أمين للمكتبة فيها. وقد *دُمّرت هذه المكتبة خلال القرون عدة مرات، ولكنها كانت تبنى من جديد فى كل* مرة. ففي عهد البابا بونيفاتيوس الثامن (القرن ١٢م) ازدهرت هذه المكتبة كثيرا في البداية ولكنها لم تنج من الدمار في النهاية. وقد جدد البابا يوحنا الثاني والعشرون (١٣١٦ ـ ١٣٣٤م) هذه المكتبة ولكن في أفينيون(*) هذه المرة. وبالاستناد إلى فهرس محفوظ يعود إلى سنة ١٣٦٩م نجد أن هذه المكتبة كانت تحوى حينئذ ٢٠٥٩ كتابا. إلا أن هذه المكتبة تعرضت للدمار بعد عودة البابوات إلى روما من منفاهم في أفينيون. وقد أسس لاحقا البابا نيقولا الخامس، أحد أشهر هواة جمع الكتب في عصر النهضة، هذه المكتبة من جديد في الفاتيكان، حيث ستصبح بسرعة أهم مكتبة في إيطاليا وأوربا بشكل عام.

م ـ ١ مظهر المكتبة

كانت المكتبات في العصر الوسيط تحتوى على عدد متواضع من الكتب، ولذلك

(*) مدينة على نهر الرون في فرنسا، أصبحت مقرا للبابوية فترة من الزمن (١٣٠٩ ـ ١٣٧٧م) (المترجم).

لم يكن هناك ضرورة لتشييد أبنية خاصة وضخمة للمكتبات كما كان الأمر في روما خلال العصر القديم. وكانت الكتب في مكتبات الأديرة والكنائس تستخدم في الدرجة الأولى للخدمات الدينية مما كان يحتم وجودها قرب الرهبان ورجال الدين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعبير «مكتبة» Bibliotheca الذي استخدمه القديس بينيديكت في كتابه، «قانون الرهبان» كان يشير فقط إلى معنى الأثاث ـ أي الرفوف التي توضع عليها الكتب ــ بينما لم تكتسب المعنى الحالي ــ المكان الذي توضع فيه الكتب ـ إلا في وقت متأخر. وكانت الكتب في القرون الأولى للعصر الوسيط تحفظ غالبا في الخزائن Armarium . وفي الواقع فقد كانت الخزائن تستعمل للكتب منذ العصر الروماني، بينما لدينا من بداية العصر الوسيط مشهد بديع لخزانة الكتب المصنوعة من الموزاييك وهي الموجود في ضريح غال بلاسيديه G.Placidie في رافينا Ravena، الذي يعود إلى القرن الخامس الميلادى. ولدينا أيضا مشهد بديع لخزانة كتب في «مخطوطة امياتينوس» المشهورة التي تعود إلى القرن السابع الميلادى إلخ. .
وقد وصل الأمر في بعض الأحيان أن يصبح تعبير «أرماريوم» (خزانة الكتب)مرادفا لتعبير المكتبة ذاته وليس مجرد خزانة الكتب في المكتبة. ومن هنا فقد شاع في العصر الوسيط تعبير «أماريوس» Armarius للتدليل على أمين المكتبة. وفي ذلك الوقت كانت الكتب توضع أحيانا في تجاويف الجدران، بينما ظهر في نهاية العصر الوسيط نوع جديد من المكتبات يضم صفوفا من الطاولات المائلة التي تثبت عليها الكتب بالسلاسل Iiber Catenati . إلا أن هذا النوع من المكتبات ازدهر بشكل خاص في عصر النهضة.

٢ ـ حجم ومضمون الكتب

بالمقارنة مع المكتبات العربية والبيزنطية في العصر نفسه، التي كانت الواحدة منها تحوى عشرات ومئات الألوف من الكتب، نجد أن المكتبات في أوربا الغربية خلال العصر الوسيط كانت متواضعة جداحيث احتوت المكتبة الفنية على عدة

مئـات من المجلــدات فقط (عـادة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مجلـد)، بينما كــانت بعض المكتبات النادرة تحوي على ألف كتاب أو أكثر. وفي الواقع أن المعطيات المأخوذة من فهارس المكتبات تصور لنا بوضوح الوضع في عدد من أشهر مكتبات الأديرة في أوربا الغربية. وهكـذا، على سبيل المثال، نجد أن مكتبـة دير البنيديكتيين في درام Dur-ham كانت تحوى فى القرن الثـاني عشر الميلادى على ٣٦٦ كتابا، ومكتبة ديـر بوبيو المشهور في إيطاليـا الشمالية كانت تحوى فى القرن العاشر الميـلادى على ٦٦٦ كتابا، ومكتبة دير لورش Lorsch في ألمانيا كانت تحوى في القرن التاسع الميلادى على ٥٩٠ كتابـا، بينما كانت مكتبة دير سـانت غالين المشهور في سويسرا تحوى فى نهايـة القرن الحادى عشر على حوالي ألف كتـاب. وقد كـانت كل هذه مكتبـات كبيرة نسبيا لأن بقية الأديرة والاسقفيات كانت تملك عددا أقل من الكتب. وعلى سبيل المثال، نجد أن دير كريمونا كان يحوى في القرن العاشر على ٩٥ كتابا بينما كان دير فوناتولا يحوى على ٦١ كتابا إلخ.

ولم يختلف الـوضع في كرواتيـا كثيرا. ففي سجل ديـر القـديس بطرس في سيلـو بالقـرب من سبليت، نجد في نهاية القـرن الثاني عشر الميلادى ٢٥ كتـابا فقط. وفي أشهر دير للبنيديكتيين، وهو دير القديس كرشفان في زادار والذي كان يحوى ورشة للنسخ، لم يكن الوضع أفضل إذ أننا نجـد في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ٦٠ كتابا في هذا الدير.

أما مكتبـات الجامعات فقد كانت أغنـى نسبيا من بقية المكتبات. وهكـذا نجد مثـلا أنه في القـرن الثالث عشر الميـلادى، وبالتحـديد بعـد أربعين سنة من إنشـاء روبرت دى سوربون لكلية اللاهوت في باريس، أن عدد الكتب في مكتبة هذه الكلية وصل إلى حوالي ألف كتاب.

ومن سجلات وفهارس الكتب يمكن لنا أن نعرف اليوم نوعية الكتب التي كانت تضمها المكتبات. وهكذا فإن أكثرية هذه الكتب كانت ذات طابع ديني، وبين هذه تأتي نسخ التوراة في الدرجة الأولى ثم كتـب الصلوات المختلفة إلخ، بينما كانت أغنى المكتبات فقط تحوى بعض مـؤلفات الكتاب القـدماء والكتـاب المعاصرين من غير

رجال الدين بشكل عام. ولم تحو العديد من المكتبات إلا على الكتب الدينية فقط. ومن هذا النوع كانت مكتبة دير القديس بطرس في سيلو، التي مر ذكرها، إذ لا نجد فيها سوى الكتب الدينية فقط.

٣ ـ الطابع العام للمكتبات

بعد أن فقد الكتاب خلال العصر الوسيط دوره من عدة جوانب كأداة لنقل المعلومات كان من الطبيعي أيضا أن تفقد المكتبات أيضا دورها الاجتماعي. وهكذا عوضا عن أن تكون المكتبات كما كانت في العصر الروماني، أو كما كانت حينئذ في بيزنطة والعالم العربي، مكانا يلتقي فيه الناس المتعلمون والمهتمون بالعمل العلمي والارتقاء في مجال اختصاصاتهم فقد أصبحت المكتبات الآن مستودعات للمخطوطات الغالية المخصصة لدائرة ضيقة جدا من النخبة. وبعبارة أخرى لم تعد المكتبات مؤسسات مفتوحة وعامة، وهي الحالة التي استمرت حتى القرن الخامس عشر الميلادى. وحتى في الحالات التي كان يسمح فيها أصحاب المكتبات (الأديرة، الكنائس الحكام وهواة جمع الكتب، الأغنياء) بالاستفادة من الكتب التى فيها فإن هذه الاستفادة كانت تقتصر على عدد محدود من الأصدقاء، والرهبان من الأديرة الأخرى، والناس المتعلمين وغيرهم، ولكن لم يكن في الإمكان أن يدخل المكتبة كل من يريد كما كان الأمر في العصر القديم، وفي الواقع فقد كان الوصول إلى كتاب ما في بداية ومنتصف العصر الوسيط يعتبر صعبا للإنسان العادى ومستحيلا لأكثرية الناس.

لقد كانت الكتب ملكية الأديرة والكنائس، بينما كانت المكتبات في قصور الحكام والأمراء الأغنياء تعتبر ملكية خاصة بكل ما في الكلمة من معنى. وهكذا فإن كارل الكبير كان يعتبر مكتبته الغنية في آخن، التي كان يستفيد منها الناس المتعلمون من حاشيته، شيئا خاصا حتى أنه حدد في وصيته بأن تباع وأن توزع قيمتها على الفقراء.

وهكذا فقد كانت التغيرات التي طرأت على الدور الاجتماعي للمكتبات، منذ

نهاية العصر القديم وحتى العصر الوسيط، ظاهرة بوضـوح وذلك بسبب الانغلاق المتزايـد لها في وجه القـراء. وقد بـدت هذه التغيرات بشكل واضح للغـاية في حـالة كاسيودور. وكان كـاسيودور بالاستناد إلى مفاهيم العصر القديم حـول الطابع العام للمكتبات، يريـد أن يؤسس أكاديمية جـديدة مع مكتبة كمؤسسـة عامة يمكن أن يدخلها كل مـن يرغب في الاشتغال بالكتب، على أن تنظم على نمط المكتبـة العامة في العصر القـديم. إلا أن هذه الفكـرة فشلت ولذلك أسس كـاسيودور مكتبتـه في الدير، دير فافاريوم، حيث لا يمكن أن تقوم بدور المكتبة العامة لأن الدير بعيد عن الناس الذين قد يـرغبون بالاستفادة منها. وقد كان وجود أكثـرية المكتبات في الأديرة المنعـزلة، البعيـدة غالبـا عن طرق المواصـلات، يسـاهم في حد ذاتـه في إبعاد هـذه المكتبات عن المشاركة النشطة في الحياة الثقافية. وهكذا فقد بقي الكتاب طيلة الفترة التي كانت فيهـا الأديرة المراكز الـرئيسية للثقـافة والكتابـة والمنتجة والمالكة الـرئيسية للكتاب، يجد بصعوبة بالغة دوره إلى دائرة أوسع من القراء.

إن فكرة المكتبـة كمؤسسة هامـة بقيت مجهولة حتى القرن الـرابع عشر الميلادى، أى حتى بترارکا. وكـان بترارکا قـد أخذ هذه الفكـرة من العصر القديم، وقـرر سنة ١٣٦٢م أن يهدى مكتبته لكنيسة القـديس مرقس في البندقية على أمل أن يـدفع هذا حكومة البنـدقية لتأسيس مكتبة كبيرة عامة في المدينة. إلا أن هـذه الفكرة لم تنفذ في ذلك الحين لأن الظروف لم تكن قد نضجت بعد لتـأسيس مكتبة من هذا النوع. ومع ذلك لم يطل الانتظار كثيرا إذ سرعان ما ظهرت في إيطاليا المكتبات العامة الأولى التى كان يحلم بها بترارکا.

٤ ـ استعارة وسرقة الكتب

في بـداية ومنتصف العصر الـوسيط كانـت الكتب لا تعار بـرغبة أصحـابها ولا يسمح بإخراجها من الدير أو الكنيسة إلا في حالات نادرة، وذلك نظرا للقيمة المادية الكبيرة للكتب.

وعلى الغـالـب كانت استعـارة الكتب تتم بين الـدير والكنيسـة سواء للقـراءة أو

للنسخ وفي داخل أسوار الـدير كـان يمكن للرهبـان أن يستعيروا الكتب لحاجاتهم، وبالتحـديد لكـي ينسخوها أو لكـي يقرأوهـا. وكان أمين المكتبة هـو الذي يـراقب استعـارة الكتب، يعير الكتب للـرهبـان ويستعيدهـا منهم، ويحرص على أن تعـود الكتب سليمة إلى المكتبة. وإذا استعار شخص من خارج الدير أو الكنيسة الكتاب فقد كـان عليه أن يترك مقـابله إمـا كتابـا آخرا يماثل قيمتـه أو مبلغا كبيرا من المال أو يرهن شيئـا قيما يفوق قيمة الكتـاب المستعار. ومن بين حالات الاستعـارة المشهورة في التاريخ نـذكر هنا واحـدة منها، حين اضطر الملك الفـرنسي لويس الحادى عشر في القرن الخامس عشر أن يستعير كتابـا طبيا من مدرسة الطب في بـاريس. فقد اضطر الملك أن يضع في تحت تصرف مكتبة المدرسة ١٠٠ كـورون ذهبي و١٢ من الصحون الغالية مقابل استعارة الكتاب، التي أعيدت له لاحقا فور إعادته للكتاب.

وقد كانت بعـض الرهبانيات الدينيـة تحدد في أنظمتها بشكل واضح متى يمكن أن تعـار الكتب ولمن يمكن أن تعـار، ومـا هو الـرهن الـذي يجب أن يتركـه مقـابل الكتـاب المستعـار. وقـد حفظت لنـا قـوائم للكتـب المستعـارة منـذ القـرن التـاسع الميلادى، حيث يبدو الحرص الشديد على تسجيل الكتب المستعارة.

وللحيلـولة دون سرقـة الكتب كـان يتم تـدوين ما يسمـى «لعنة الكتـاب» على صفحـات الكتاب نفسـه. ونجـد أمثال هـذه «اللعنـة» كثيرا في كتب دير القـديس ألبانس في إنكلترا، ومن هذه اللعنات نقرأ مثلا ما يلي: «هذا الكتاب يخص القديس ألبانس وتحل اللعنة على كل من يسرقه أو يمحي عنوانـه». وفي الواقع لقد كان هناك الكثير من هذه اللعنات على صفحات الكتب لأن أصحـاب الكتب كانوا على قناعة بأن هـذه اللعنات تـدفع اللصوص للتفكير طـويلا قبل أن يقـرروا سرقة الكتـاب أو الإساءة إليه. وبـالإضافة إلى هذا فقد كـان الكثير من أصحاب الكتب يعتقدون بأن هذه اللعنات يمكن أن يكون تأثيرا أقوى إذا طال نصها أو إذا كتبت شعرا مما أدى إلى أن يتطور «فن» أدبي جديد.

ولكن في نهاية العصر الوسيط شاعت استعـارة الكتب بشكل متزايد وهكذا فقد

اتخذ مجلس كنائسي عقد في باريس خلال ١٢١٢ قرارا يحظر فيه على الرهبانيات الدينية أن تمنع في قوانينها استعارة الكتب لـ «أولئك الذين يحتاجون إليها». وقد تضمن أيضا هذا القرار منع حماية الكتب عن طريق اللعنات واعتبار اللعنات المكتوبة لا قيمة لها.

وهكذا مع مرور الزمن أصبحت مكتبات الأديرة تسمح للقراء من الخارج بالاطلاع على بعض كتبها، وبالتحديد على الكتب التي لم تكن ذات قيمة كبيرة مادية أو معنوية. وبهذا أصبحت الكتب أكثر قرباً من القراء ومن اللصوص أيضا، الذين كان عددهم كبيرا أيضا. وبالطبع فإن اللعنات المدونة على الكتب لم تكن كافية لتصرف اللصوص عن هدفهم، ولذلك فقد استخدمت طريقة أكثر فعالية لحماية الكتب القيمة من السرقة. وببساطة فقد كانت هذه الكتب تربط بالسلاسل إلى الطاولات أو إلى الرفوف، وقد أصبحت هذه «الكتب المربوطة» شائعة في نهاية العصر الوسيط. وهكذا فقد كان من نتائج انفتاح المكتبات على القراء، وتأسيس المكتبات العامة لاحقا، بروز خطر اللصوص أو أولئك المتعلمين الذين كانوا يعرفون قيمة الكتاب ولكنهم كانوا عاجزين عن شرائه.

وبالطبع فإن المكتبات لم تكن تربط بالسلاسل كل ما لديها من كتب، بل كانت تكتفي بربط الكتب التي يمكن أن يطلبها القراء وتترك الكتب الأخرى طليقة، أى الكتب التي يحتاجها الرهبان لممارسة الشعائر أو القراءة في غرفهم. وبالإضافة إلى هذه لم تعد تربط أيضا تلك الكتب التي يمكن أن تشترى بثمن بسيط في سوق الكتب، أو تلك الكتب التى انهالت على المكتبات بعد اختراع الطباعة لأن ثمنها كان أقل بكثير من ثمن المخطوطات. ويفيدنا في هذا المجال فهرس المكتبة المذكورة لدير القديس فرانسيس في أسيزى لمعرفة الكتب التى كانت تربط بالسلاسل والكتب التي كانت تترك طليقة. وهكذا نقرأ في مقدمة الفهرس أن المكتبة تتألف من قسمين: كان القسم الأول يسمى «المكتبة السرية» وتحوى الكتب المخصصة للرهبان التي كانت تحفظ في إحدى عشرة خزانة، أما القسم الثاني من الكتب فكان يوضع على الطاولات المخصصة للقراءة بعد ربطه بالسلاسل. وكان بإمكان القراء من

الخارج أن يأتوا إلى هذا القسم بعد أن تسمح لهم سلطات الـدير بالاستفادة من هذه الكتب.

وفي الواقع أن معظم القرارات المتعلقة بربط الكتب تعود إلى القرن السادس عشر الميلادى. وهكذا نجد مثلا أن كلية الطب في باريس اتخذت قراراً سنة ١٥٠٩م بربط الكتب في المكتبـة بعد أن تكـررت سرقـة المخطوطـات القيمـة. وقد لجأت إلى هـذه الطريقـة أيضا «مكتبة لاورنزيـانا» في القرن الخامس عشر الميـلادي في فيرنسا، وهي إحدى أشهر المكتبات في عصر النهضة.

لقد استمرت عادة ربط الكتب بالسلاسل حتى القرن الثامن عشر الميلادى، إلا أن هذا الاستمرار كان بسبب التقليد أكثرمن كونه بسبب الفائدة. فقد كانت الكتب المربوطة تضايق القراء لأنها كانت غير قابلة للنقل من مكان إلى آخر في المكتبة مما كان يحد من الاستفادة منها للأغراض العلمية.

٥ ـ الفهارس الجامعة للمكتبات

أصبح نقص المعلـومـات عن الكتب الجديـدة وعن الكتـاب، وخـاصـة عن محتويات المكتبات القديمة، يؤدي بازدياد إلى عرقلة تطور العلم وخاصة بعد أن أخذ مركـز الحياة الثقافيـة ينتقل من الأديرة إلى المدن. ففي القرون السـابقة كانت أكثـرية المكتبـات تجمع عددا محدودا من الكتب، وكـانت غالبيـة هذه المكتبـات تتألف من كتب القداس وكتب التراتيـل وكتب الصلوات اليوميـة. ومن هنا نجـد أن سجلات هذه المكتبات في مختلف البلدان الأوربية تتشابه فيما بينها على الغالب. ولهذا السبب لم يشعر أحـد بالحاجة إلى تعـريف الآخرين بمحتـويات مكتبة معينـة في حد ذاتها، وذلك عن طريق نسخ فهرس المكتبة وإرساله إلى مكتبات الأديرة والكنائس الأخرى. وبعبارة أخرى فإن سجلات المكتبات كـانت تبقى حبيسة الأديرة والكنائس، وهكذا فقد ندرت الحالات التي كانت تتبادل فيها المكتبات سجلات الكتب لديها، وذلك لأن الأسباب التي كانت تحتم هذا التبادل كانت قد تلاشت في الواقع.

أما في نهاية العصر الوسيط فقد ظهـرت فهارس جامعة لعدة مكتبات تهدف إلى

إعطاء المعلومات عن الكتب التي تحتفظ بها المكتبـات . وقد أنجز الفرنسيسكان فهرسا جـامعا من هذا النوع في منتصف القـرن الرابع عشر بعنوان «سجل الكتب في إنكلترا» وذلك بالاستنـاد إلى تقصي الوضع في ١٨٦ مكتبة في إنكلترا . وبالإضـافة إلى هذا فلدينا معلومات عن وجود فهرس من هذا النوع منذ القرن الثالث عشر الميلادى في كلية السوربون في باريس ، حيث سجلت فيه كتب كل الكليات في باريس . ومن القرن الرابـع عشر الميلادى لدينا فهرس جـامع آخر قام بإعداده رئيس ديـر القديس امران في ريغنسبرغ وجمع فيـه كتب مكتبات الأديرة في المدينة . أمـا في القرن الخامس عشر الميلادى فلدينا فهارس جامعة في بلجيكا وغيرها من البلدان .

لقد كان وراء هذه الفهارس الجامعة الدومينيكان والفرنسيسكان وغيرهـم من ممثلي الرهبـانيات الجديدة الـذين ساهموا بإحيـاء ثقافة الكتـاب في الأديرة ، والذين كـانوا بنشاطهم المعروف أقرب إلى التيارات الروحيـة لنهاية العصر الوسيط من البينيديكت وغيرهم من ممثلي الرهبانيات القديمة .

وبهذا الشكل كـان العصر الحديث يـدق أبواب الأديـرة أيضـا . فالأديـرة لم تكن خارج الـزمن ولذلك فقد غـرب عصر عزلتها واحتفـاظها بالكتب لنخبـة من الناس المتعلمين . فبالإضافـة إلى الرهبان المتعلمين ، والآخرين الذين كـان يحق لهم الدخول إلى هذه المكتبـات ، أخذ يهتم بكتب الأديرة عدد متـزايد من الناس العـاديين الذين كـانوا يبحثـون عن المخطـوطـات حتى في الأديـرة البعيدة . ومن هنـا فقـد أصبحت الحاجة تدعـو إلى تقديم كتب هذه المكتبات إلى كل من يهتم بها ، وقـد كانت أفضل طريقة لذلك هي الفهارس الجامعة التي يمكن أن يعود إليها كل الأفراد المهتمين .

المراجــع

حول الكتاب بشكل عام في العصر الوسيط انظر:

W. Wattenbach, Das Schriftwesen im Mittelalter, Leipzeg 1896;

B. Bischoff, Scriptoria e manoscritti mediatori di civilta dal sesto secolo alla riforma di Carlo Magno, Centri e vie di irradiazione della civilta nell'alto Medioevo, Spoleto 1963, p. 479-504;

L. D. Reynolds-N. G. Wilson, Scribes and Scholars, Oxford 1968;

A. Petrucci, Scritura e libro nell'Italia altomedievale, Studi medievali, 3, ser, 10, 1969, p. 157-207;

H. Lulfing, Schreibkultur vor Gutenberg, Der Gegenwartige Stand der Gutenberg-Forschung. Hrsg. v. H. Widmann, Stuttgart 1972, p. 48-67;

Libri e lettori nel medioevo, a cura di G. Gavallo, Bari-Roma 1977.

وحول الكتاب كرمز انظر:

L. Koep, Das himmliche Buch in Antike und Christentum, Bonn 1960

وبشكل خاص حول هذه القضية في بداية العصر الوسيط انظر:

A. Petrucci, La Concezione Cristiana del Libro fra VI e VII secolo, Studi medievali, 3, Ser., 14 (1973), p. 961-984.

حول تنظيم العمل في ورش النسخ خلال العصر الوسيط انظر:

E. Lesne, Les livres: "scriptoria" et bibliotheques du commencement du VII a la fin du XI siecle, Lille 1938;

F.E. Roover, The Scriptoium, The Medieval Library, New York 1957;

L.S. Thompson, Scriptoria, Encyclopedia of Library and Information Science, Vol. 27, New York-Basel 1979, p. 139-159;

وحول ورشة النسخ في دير القديس غريسوغونو البينيديكتي في زادار انظر:

G. Praga, Lo'scriptorium dell'abbazia benedittina di San Grisogono in Zara, Archivio storico per la Dalmaziya, 7/1929 -9/ 1930.

حول فيفاريوم ودوره في الثقافة الأوربية القروسية انظر:

Th. Klauser, Vavarium; Th. Th. Klauser, Gessammelte Arbeiten, Munster 1974, p.212-217.

ويتميز هذا الكتاب بوجود لائحة كبيرة للمصادر والمراجع القديمة. وعن الكتب التي كانت موجودة في مكتبة هذا الدير انظر:

H. Leclercq, Cassiodorus, Dictionnaire d'archeologie Chretienne, et de liturgie, T. II, 2, p. 2357-2365;

وانظر الطبعة المحققة من «التعليهات» لكاسيودور:

R. A. B. Mynors, Cassiodori Senatoris "Institutiones", Oxford 1937

وفيها يتعلق بدير جبل كاسينو كمركز للنسخ وحول مكتبته انظر:

H. Bloch, Monte Cassino's Teachers and Library in the High Midle Ages, Settimane di studio del Centro Ltaliano di studi sull'alto medioevo, 19, Spoleto 1972, p. 567;

G. Cavallo, Libri e lettori nel medioevo, Bari 1977, p.105-120;

F. I. Newton, Reconstructing the Monte Cassino Library of the early eleventh century, New Book of the American Philosophical Society, 1967, p. 603;

وحول الكتابة الإيطالية الجنوبية نسجل هنا أهم كتاب :

E. A. Lowe, The Beneventan Script, a History of the South Italian minuscule, Oxford 1914;

وحول هذه الكتابة في دالماسيا انظر:

V. Novak Scriptura Beneventana, s osobitim obzirom na tip dalmatinske beneventane, Zagreb 1920.

فيما يتعلق بالمبشرين الإرلنديين ودورهم في الثقافة الأوربية :

B. Bischoff, Il monachesimo irlandese nei suoi raporti col continente, Il monachesimo nell'alto Medioevo e la formazione della civilta occidentale, Spoleto 1957, p. 121-138;

وانظر أيضا حول هذا :

E. Coccia, La Cultura irlandese precarolingia. Miracolo o mito? Studi medievali, 3 ser., 8 (1967), p. 257-240;

وحول الكتاب والمكتبات لدى الفرنسيسكان انظر:

L. Alessandrini, Inventario dell'antica biblioteca del s. Convento di S. Francesco in Assisi, compilato nel 1381, Assisi 1906;

G. Abate, Biblioteche francescane nel medioevo, Il libro e le biblioteche II, Roma 1950, p.77-126;

وحول ورشة النسخ في دير الفرنسيسكان في زادار انظر:

A. Matijevic, Porijeklo renesansnih psaltira franjevackog samostana u Zadru, Radovi Instituta JAZU u Zadru, 2 (1955), p. 193-232.

وفيما يتعلق بتنظيم إنتاج الكتاب في الجامعات خلال العصر الوسيط انظر:

G. Finkferrera, La produzione dei libri di testo nelle universiteta medievali, Libri e lettori nel medioevo, Bari 1977, p.131-165.

وانظر أيضا الدراسة الواسعة :

J. Desterez, La "Pecia" dans les manuscrits universitaire du XIII et Du XIV siecle, Paris 1935.

وحول ورش النسخ المدنية انظر:

R. Kautzsch, Dieblod Lauber und seine Wekstatt in Hagenau, Zentralblatt fur Bibliothekswesen, 12 (1895), p.1-32, 57-113;

G. M. Cagni, Vespaziano de Bisticci e il suo epistolario, Roma 1959.

وفيما يتعلق بالمعطيات حول تجارة وأسعار الكتب انظر:

F. Kapp, Geschichte des deutschen Buchhandels, Leipzig, 1886;

W. Krieg, Materialen zu einer Entwichlungseeschichte der Bucher-Preise und des Autoren-Honorars vom 15. zum 20. Jahrhundert, Wien 1953, p.15-18;

J. W. Thompson, TheMedieval Library, New York 1957, p.645-646.

وللتوسع حول الكتب الممنوعة في العصر الوسيط انظر:

J. Hilgers, Der Index der verbotenen Bucher, Freiburg im Breisgau

وحول المؤلفات المرجعية في العصر الوسيط انظر:

R. Collison, Encyclopaedias: Their History Throughout the Ages, 2 ed. New York 1966;

M. de Gandillac (ed.), La Pensee encyclopedique au moyen age, Neuchatel 1966;

F. J. Witty, Medieval Encyclopedias: a Librarian's View, The Journal of Library History, 14 (1979), No. 3, p. 274-296.

وفيما يتعلق بالمكتبات في أوربا خلال العصر الوسيط لدينا مرآة ممتازة لدى:

Handbuch der Bibliothekswissenchaft, 2. Aufl. Bd. III, 1, Wiesbaden 1955, p. 243-498.

وخاصة في الملحق حيث لدينا قائمة مفصلة بالمصادر والمراجع القديمة:

"Das Mittelalter" K. Christit and A. Kern

ولابد أن نذكر هنا بشكل خاص مجموعة الدراسات:

The Medieval Library, J. W. Thompson Hafnner Publ. Co. New York 1957.

وللتعرف على التنظيم الداخلي للمكتبات في العصر الوسيط، وبشكل خاص على مظهرها انظر:

J. W. Clark, The Care of Books, Cambridge 1901.

وحول مكتبة بلاط كارل الكبير انظر:

B. Bischoff, Die Hofbibliothek Karls des Grossen, Karl der Grosse. II. Das geistige Leben, Dusseldrof 1965.

وحول الكتب «المقيدة» بشكل خاص انظر:

W. Blades, Books in Chains, London 1892

وفيما يتعلق بالمكتبات القروسطية في سبليت لدينا دراسة لدى :

H. Morovic, Povijest biblioteka u gradu Splitu, I, Drustvo biblio-tekara Hrvatske, Zagreb 1971, p. 5-56.

وحول المكتبة المطرانية في زغرب انظر:

A. Markov, Metropolitanska knjiznica, Kulturno-poviestni zbornik zagrebacke biskupije, Zagreb 1945, p. 493-550.



الفصل الخامس
الكتاب في الإمبراطورية البيزنطية

في الوقت الـذي كانت فيـه الإمبراطورية الـرومانية الغـربية تتعـرض إلى ضربات عنيفة من البرابرة، الذين تمكنوا أخيرا من القضاء عليها، كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية قد نجحت في مجابهة العاصفة وأمنّت لنفسها التواصل السياسي والثقافي حتى سقـوط القسطنطينيـة بيـد الأتـراك العثمانيين سنـة ١٤٥٣م. وقـد حـاول الأبـاطـرة الطموحون للإمبراطـورية الرومانية الشرقية أن يأخـذوا من روما الدور القيادي في كل ناحية، ولذلك فقـد اهتموا أيضا بالكتاب والمكتبات كما كـان يفعل الأباطرة العظام في روما خلال العصر القديم. إلا أن الزمن كـان قد تغير ولذلك فإن القسطنطينية لم تستطع أن تصل أبـدا إلى ذلك المستوى السيـاسي والثقافي الـذي كان لرومـا في وقت ازدهارها الكبير.

كان عصر الثقافة العظيمة للعصر القديم قد غرب وقد ساهم الأباطرة البيزنطيون بدورهم في هـذا: ففي سنة ٥٢٩م أغلق الإمبراطور يوستينيـان المدرسة الفلسفية في أثينـا، بينما تلاشت خـلال القـرنين الخامس والسادس للميـلاد الكثير من المدارس والمؤسسات الثقافيـة بعد أن استمرت مئات السنين بنشاطهـا. وقد أدت الصراعات الدينيـة في القسطنطينية خلال القرون الـلاحقة إلى تناقص اهتمام الأبـاطرة والمواطنين معا بالكتاب. ففيما يتعلق بالكتاب والمكتبات كان الوضع صعبا بما فيه الكفاية حتى القرن التاسع الميلادي، إلا أن هذا لا يعني بـالطبع توقف الاهتمام بالكتاب أو توقف إنتاج الكتاب.

وفي ذلك الوقت بقيت «المكتبـة الامبراطورية» مـركز نسخ ورعايـة الكتاب ولكن

نشأت مع الزمن مكتبتـان أخريتان: مكتبة البطـريركية في القسطنطينية ومكتبـة دير ستوديون Studion.

وكانت «المكتبة الإمبراطـورية» بعد أن أحرقت سنة ٤٧٥م قد بقيت زمنـا طويلا وهي تحاول أن تستعيـد مكـانتهـا السـابقة، إلا أنها انتكسـت ثانيـة خـلال حـروب الإيقـونات في القـرنين الثامن والتـاسع للميلاد. ولكن فيما بعـد، في عهد مـايسمى النهضة المقـدونية خلال القـرن التاسع ثم بعد ذلك، تـزودت بكتب كثيرة نظرا لأن الإمبراطـور الهاوي للكتب قسطنطين السابع (٩١٢ ــ ٩٥٩م) استفاد منهـا لكتابـة مؤلفاتـه التاريخية. وقد اعتمدت الأميرة آنـا كومنينا Ana Komnena (١٠٨٣ ـ ١١٥٠م) على هذه المكتبـة أيضا لتأليف كتـابها «الكسيادا» Aleksiada، حيـث استفادت من مؤلفات عدد كبير من المؤرخين القـدامى (توكيـديد وبوليب وهيرودوت وغيرهـم) التي وجدتها هناك.

وقد سلمت هذه المكتبة من احتلال الصليبيين للقسطنطينية وبقيت موجودة إلى أن سقطت المدينـة بيد الأتـراك العثمانيين. ولا نعرف بعد ذلـك ماحـدث للمكتبة، ولكن يُعتقد أن بعض مخطوطاتها القيمة انتقلت إلى مكتبة السلاطين في ساراي.

أما مكتبة البطريـركية فقد أسسها بطريرك القسطنطينية تومـا الأول في بداية القرن السـابع الميـلادي، وأصبحت أهميتها تتنـاسب مع المكـانـة الاجتماعيـة والسياسيـة لبطاركة القسطنطينية.

في مجال نسخ المؤلفات فقد تميز بأهمية خاصة دير ستوديون في القسطنطينية ذلك الذي أسسه سنة ٤٦٢م الحاكم الروماني السابق ستوديون Studion. وبعد فترة مهمة من التطور في الدير وفي ورشة النسخ التـابعة له حلّت فترة من الجمود استمرت حتى القرن السابـع، حين جاء لرئاسة الـدير الأباتي ثيودور (حـوالي ٧٥٩ ـ ٨٢٦م). وقد وضع ثيودور قـوانين جديدة للـدير حدد فيها ضرورة وجـود مكتبة للديـر وعين وقتا محددا يمارس فيه الرهبان نسخ المؤلفات. وهكذا فقد جمع الأباتي ثيودور في هذا الدير حوالي ألف راهب كـان من بينهم من يشتغل في إنتاج الكتـاب كالنساخ والـرسامين

والمجلـدين وغيرهم. وقد بقي هـذا الديـر حتى القرن الخامس عشر الميـلادي مركـزا نشيطـا للنسخ، وقد بقيت المؤلفـات التي كانت تنسخ في الـدير بـداخله أو كـانت ترسل للأديرة الأخرى. وفي حالات نادرة كان يتم هنا أيضا نسخ بعض المؤلفات بناء على طلب خاص.

لقد اعتبر دير ستوديون نموذجا يحتذى في نظر الكثير من الأديرة في القسطنطينية وخارجهـا. وقد برزت أهميـة الأديرة التي تأسست منذ القـرن التاسع الميلادي كـدير جبل أتوس (الجبل المقدس) وفي الجزء الشرقي من شبه جـزيرة خالكيديكي في شمال اليونـان. ففي تلك الأديرة (ديـر القديس اثنـاس، دير هيلينـدار إلخ) كان الـرهبان ينسخون بهمـة ونشاط الكتب المقدسـة والكتب الأخرى، ويزينـونها بالرسـوم. وقد حفظت في هـذه الأديرة حتـى اليوم حـوالي أحـد عشر ألف مخطوط تـرجع إلى القـرن التاسع الميلادي وما بعده.

وقـد أرسل من هذه الأديـرة إلى أوربـا الغربيـة عـدد كبير من الكتب، وخاصـة مـؤلفات كتّـاب العصر القـديم، بينما سقط عدد آخـر من كتب هـذه الأديرة في يـد الأتراك العثمانيين. وكـانت تـرسل إلى أوربا الغـربية على الغالـب مؤلفـات الكتاب الوثنيين، اليونانيين والرومانيين، في الوقت الذي بدأت فيه إيطاليا وغيرها من البلدان عمليـات بحث واسعة عن مـؤلفات هـؤلاء الكتاب. وفي الـواقع فقد كـان الفضل الأكبر لهذه الأديـرة وبقيـة الأديرة في أرجـاء الإمبراطـوريـة البيـزنطية، وخـاصـة في القسطنطينية بـالذات، يكمن بالضبط في أنها كـانت تنسخ وتترجم مؤلفـات كتّاب العصر القـديم بنسخ كـافيـة بحيث إن بعضهـا على الأقل حفظ إلى الـوقت الـذي أخذت فيـه المراكز الثقـافية في إيطـاليا في عصر النهضـة مهمة حفـظ تراث العصر القديم.

ولم تكن مؤلفات الكتّاب الوثنيين للعصر القديم تُلاحق أو تُهمل في بيزنطة. وفي الواقع لقد كـانت حالات ملاحقة هذه الكتب وحرقهـا نادرة لأن المتدينين المتعصبين كانوا غالبـا ما يوجهون نقمتهم ضد كتب الهراطقة. وقـد أدى هذا الموقف المتسامح

للسلطات الرسمية والدينية إزاء مؤلفات الكتاب الوثنيين للعصر القديم إلى أن تُحفظ في القسطنطينية وغيرها من مدن الإمبراطورية البيزنطية الكثير من هذه المؤلفات التي كانت قد فقدت بالتأكيد في ظل موقف آخر. وكان مما ساعد على حفظ هذه المؤلفات الترجمات الكثيرة إلى اللغة السريانية، إذ أنه ترجمت إلى هذه اللغة مؤلفات أرسطو ولوقيان وغيرهم، بحيث إن بعض المؤلفات قد وصلت إلينا اليوم بفضل ترجمتها إلى اللغة السريانية. وقد ترجمت أيضا بعض الكتب إلى اللغة الأرمنية في بداية العصر الوسيط، بينما ترجمت كتب أخرى إلى اللغة العربية في القرون اللاحقة.

وكان مما ساهم في إنقاذ تراث العصر القديم توقف حروب الإيقونات في القسطنطينية. ففي سنة ٨٦٣م افتتحت من جديد الجامعة الإمبراطورية، التي تحولت بسرعة إلى أحد أهم مراكز النشاط الأدبي والعلمي في الدولة البيزنطية. لقد كان ذلك الوقت فترة إعادة بناء حقيقية في المجال الثقافي، وقد برز فيها البطريرك فوس الذي ألف كتابه الموسوعي «كتاب العطورات». ثم رئيس الأساقفة القيساري أريتاس Aretas الذي بقي قسم من مكتبته إلى اليوم. وفي هذا القسم الذي وصلنا نجد مؤلفات أفلاطون ولوقيان وأرسطو وباوزان وغيرهم من الكتّاب الوثنيين.

ومن الوثائق المدونة التي تعود إلى ذلك الوقت نعرف الآن كيف كان أريتاس يجمع الكتب وكم كان يدفع لأجلها. ففي معظم الحالات كان يوصي بنفسه على الكتب في ورش النسخ التابعة للأديرة وينفق الكثير في سبيل الحصول عليها. وهكذا فقد دفع ١٤ دوقية ذهبية في سبيل الحصول على كتاب لـ أوكليد Euklid، ودفع ٢١ دوقية في سبيل الحصول على كتاب آخر لأفلاطون. وقد كانت هذه مبالغ كبيرة بالنسبة لذلك الوقت وكان من الواضح أن مبالغ كهذه كان يمكن أن يدفعها الأغنياء الكبار فقط.

وعلى الرغم من أنه لم يحدث أبدا انقطاع في قراءة ونسخ المؤلفات الكلاسيكية في القسطنطينية إلا أن بيزنطة لم تنجح مع ذلك في رعاية تقاليد العصر القديم فيما يتعلق بالكتاب. ولكن السبب في هذا لا يجب أن نبحث عنه في الموقف السلبي لرجال

الدين من بعض المؤلفات الوثنية للعصر القديم بل في إعراض جمهور المثقفين عن بعض المجالات العلمية وعن بعض الفنون الأدبية في الإمبراطورية البيزنطية. ومع هذا فقد بقيت الأسماء الكبيرة في الأدب والعلم، من اليونانيين في الدرجة الأولى وإلى حد ما من الرومانيين، تُقرأ باهتمام وتدخل في قائمة كتب المطالعة الإلزامية في المدارس.

وقد زاد الاهتمام بمؤلفات الثقافة الكلاسيكية اليونانية ـ الرومانية في نهاية العصر البيزنطي، أي في الوقت الذي كان قد نشط فيه بعض المثقفين المعروفين. ومع أن هؤلاء لم يؤلفوا كتبا أصيلة سواء في مجال العلم أو الأدب إلا أنهم قد ساهموا بعملهم في إحياء ثقافة العصر القديم، وبالتحديد في نسخ مؤلفات كتّاب العصر القديم وفي حفظ هذه المؤلفات للأجيال القادمة. وبين هؤلاء المثقفين يحتل المترجم والكاتب مكسيموس بلانودس (حوالي ١٢٥٥ ــ ١٣٠٥م) مكانة بارزة، وهو الذي اشتهر بمعرفته الممتازة باللغة اللاتينية واهتمامه الكبير بالكتب. وقد ترك لنا بلانودس مراسلاته الكثيرة التي يبدو فيها بوضوح كيف كان يبحث باهتمام عن مؤلفات الكتّاب القدماء، وماذا كان يفعل لكي تُنسخ وتُشرح وتُحفظ وتترجم هذه المؤلفات. وقد أعد بنفسه عددا كبيراً من كتب المؤلفين القدماء بعد أن علق عليها، وبهذا يعتبر السلف الحقيقي للمتنورين الإيطاليين. وبالطبع فإن بلانودس لم يكن الوحيد الذي يترجم ويجمع ويحفظ مؤلفات الكتاب القدماء في القسطنطينية، ففي ذلك الوقت، في زمن الإزدهار الثقافي خلال القرن الثالث عشر الميلادي كان هناك الكثير من المتعلمين الذين جعلوا القسطنطينية لآخر مرة مركز إنتاج الكتاب، إذ إنها تفوقت حينئذ كثيرا على كل المراكز الأخرى في أوربا الغربية.

وقد تمكن الكثير من المسافرين والباحثين عن المخطوطات في عصر التنوير والنهضة من الحصول على كثير من هذه الكتب ونقلها إلى إيطاليا، حيث استيقظت أوربا من سباتها وتولت العناية بهذا التراث القديم بنسخه أولا ثم بطبعه بعد ذلك. ومن ناحية أخرى فقد كان الشعور بالخطر من الأتراك قد دفع الكثير من اليونانيين المتعلمين إلى أن يغادروا أديرتهم وجامعاتهم وأن يلجأوا مع مخطوطاتهم إلى أمكنة أكثر أمنا في إيطاليا.

المراجـــع

فيما يتعلق بالمكتبات البيزنطية لدينا دراسة جيدة تتضمن قائمة مفصلة بالمصادر والمراجع القديمة :

V. Burr, Der byzantinsche Kulturkreis, Handbuch der Bibliotekswissenschaft, 2. Aufl. Wiesenbaden 1955, Bd. III, 1, p. 146-187;

وانظر أيضا :

S. K. Padover, Byzantine Libraries, The Medieval Library, New York 1957, p. 310-329;

C. Wendel, Planudes als Bucherfreund, Zentralblatt fur Bibliothekswesen, 58 (1941), p.77-87

وقد طبعت هذه الدراسة ثانية في:

C. Wendel, Kleine Schriften zum antiken Buch-und Bibliothekswesen, Koln 1974, p.210-220;

وفيما يتعلق بنسخ الكتب في الدولة البيزنطية انظر:

J. Irigoin, Pour une etude des centres de copie byzantins, Scriptorium, 12 (1958), p. 208-227;

وبشكل خاص فيما يتعلق بنسخ مؤلفات الكتاب القدماء :

A. Dain, La transmission des textes litteraires classiques de Photius a Constantin Porphyrogenete, Dumbarton Oaks Papers, 8 (1954), p. 47;

وحول اهتمام البيزنطيين بتزيين المخطوطات انظر:

V. D. Lihaceva, Iskustvo knjigi Konstantinopol XI vek, Moskva 1976.

الفصل السادس

العـــرب

لم يلعب العـرب حتى القـرن السابع الميـلادي دورا مهما في منطقـة الشرق الأدنى بينها دخلـوا الساحـة التـاريخية بـزخم بعـد ظهـور النبي محمد (ﷺ) . فقـد اعتنقت القبائل العربيـة ، التي كانت غالبا في حـالة انقسام ونزاع ، الـدين الجديد (الإسلام) الـذي منح العرب حيـوية ضخمـة . فبعد وفـاة النبي محمد(ﷺ) بـدأوا فتوحـاتهم السريعة والنـاجحة خارج الجزيرة العـربية ، حتى أنهم خلال عدة عقـود فقط قضوا على الإمبراطـورية الفـارسية القـوية وفتحـوا سوريـا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيـا بكـاملها . وفي سنـة ٧١١م فتح العـرب إسبانيـا ، ووصلت حـدودهم في الشرق إلى سهول آسيـا الوسطى والهنـد ، مما أسفر عـن صلات ثقافيـة مثمرة بين حملـة الإسلام والصين والهند .

ونظر الأن فتحـوا بلدانـا تعددت فيهـا الثقافـات وتمايزت فقـد امتزجت الثقـافة العربيـة مع بقايـا الثقافـات القديمـة في المناطق التي فتحـوها . ممـا أدى إلى تقبّلهم السريع لهذه الثقـافات ولإبـداعهم ثقـافة عـربية جـديـدة . وفي الواقع أن استمـرار ذوبان التراث الثقافي ، الذي نـراه في بلدان مختلفة ، كان يمكن أن يحدث فقط بفضل السياسة المتسامحة للحكام العرب إزاء رعيتهم في المنـاطق المفتوحة . وهكذا فقد تحول الحكام الجدد إلى مدافعين ومشجعين للعلـوم والفنون في المناطق المفتـوحة ، كما أثمر هذا الاتصال الإيجابي بين الثقافات القديمة والثقافة الحديثة عن نتائج خصبة بشكل خاص في بلاد الفرس . ففي بلاط الأسرة الحاكمـة الأخيرة ، الأسرة الساسانية ، ازدهر الأدب والفن والعلم على مستوى رفيع جـدا ، وكان هناك أيضا مكتبـات منظمة يتم فيهـا نسخ وترجمة المخطـوطات القـديمة . وهكـذا في الوقت الـذي كان فيـه التراث اليوناني ـ الـروماني يواجه أياما صعبة في أوربا الغـربية ، وحتى في بيزنطة في وقت من

الأوقات، فإن بلاد الفرس كانت هي المكان الذي يجد فيه الشعراء والعلماء الملجأ الأمين والظروف المناسبة للنشاط.

فقد لجأ إلى هذه البلاد مثلا فلاسفة الأفلاطونية الجديدة، الذين اضطروا إلى مغادرة أثينا بعد أن أمر الإمبراطور يوسيتينان بإغلاق الأكاديمية سنة ٥٢٩م. وقد حدث هذا أيضا لأساتذة المدرسة المعروفة في أديسة بآسيا الصغرى، التي أغلقها الإمبراطور زينون. فقد هاجر هؤلاء سنة ٤٨٩م إلى مدينة نصيبين القديمة وأسسوا هناك أكاديميتهم من جديد.

وهكذا فقد وجد العرب بعد أن فتحوا بلاد الفرس سنة ٦٣٧م الكثير من الكتب والكثير من العلماء والشعراء والمتأثرين بالثقافة القديمة، ووجدوا هناك ماهو أهم أيضا ــ الأشكال الجاهزة للعمل العلمي والثقافي المنظم (المكتبات، مراكز الوثائق الأكاديميات) مما سهل عليهم تقبل إنجازات الثقافة الفارسية في ذلك الحين، التي كانت قد تأخرت في جوانب كثيرة، ومن ثم تطويرها أيضا.

وفيما يتعلق بشريحة العلماء من السكان الأصليين، الذين اعتنقوا الإسلام بدورهم فلم يكن هناك ما يعيق استمرار نشاطهم وأسلوب حياتهم. وهكذا يمكن القول إن العرب سواء في بلاد الفرس أو في البلاد الأخرى، قد نجحوا في مد جسر قوي بين ثقافة العصر القديم وثقافة العصر الوسيط، وحتى ثقافة العصر الحديث، وذلك بفضل سياستهم الحكيمة إزاء الرعية وبفضل اندماج المثقفين والمؤسسات الثقافية في مسار الثقافة الجديدة التي أبدعها العرب.

أ ـ الكتابة العربية

إن حب العرب للكلمة المكتوبة، الذي عبّروا عنه بسرعة في البلدان المفتوحة، لا يمكن أن يقارن إلا بحبهم للخط نفسه ـ للخط العربي ــ فالخط بالنسبة للعرب ليس مجرد نظام عملي للحروف التي تعبر عن الأفكار، بل هو أكثر من ذلك بكثير. إن الخط العربي نفسه، وهو الذي كُتب به الكتاب المقدس للمسلمين (القرآن) وغيره من الكتب، مقدس في حد ذاته وله مغزى ديني ورمزي عميق. إن الخط

العربي يستخـدم في آن واحد للـرسم والتزيين والتعبير عـن الأفكار. وهكـذا فالخط العربي يتداخل مع المشاعر الإسلاميـة ومع الفن الإسلامي إلى حد أنه أصبح جزءا لا يتجزأ من الهوية الدينية والقومية، وذلك بغض النظر عن المكان والزمان الذي يكتب فيه. إن نسخ القرآن هـو في حد ذاته عمل ديني وسحري، ولـذلك فإن هذا الكتاب المقـدس ينسخه كل مـن يطلب التقرب إلى الله أو ينتظـر الـرحمة من الله، أو كل من يتمنى أن يـرضي الله بعملـه هذا. وفي العـالم الإسـلامي يأخـذ شكل وجمال الحروف العـربيـة معنى رمـزيـا وسحـريـا. وهكـذا فإن التفنن في كتـابـة الحروف أو ابتـداع تشكيـلات جماليـة من الحروف، مـاهو إلا عمل مقـدس. ولـذلك لا نستغـرب أن العـرب، والمسلمين بشكل عام، قـامـوا بذلـك النشاط العظيم في نسخ المؤلفـات، الشيء الذي لا نجد له مثيلا في تاريخ الكتاب المخطوط.

لقد تطـور الخط العربي عن الخط النبطي، الذي كـان يستعمل منذ بدايـة القرن الأول الميـلادي في شرق الأردن. وقـد كـان هـذا الخط يستعمل قبل ظهـور الإسـلام لـلأغراض الإداريـة إلا أنه أخـذ سمة مقـدسـة عندمـا شرع العرب يـدونون كتـابهم المقدس.

ب ـ مادة الكتابة ـ إنتاج الورق

كـان العـرب حتى القـرن الثـامن الميـلادي مثلهم مثل بقيـة الشعـوب في ذلك الوقت، غالبـا ما يستعملون الرق للكتابة ثم أخـذوا يستعملون ورق البردي بعد فتح مصر. ولكن القفزة التي حدثت لاحقا في إنتاج الكتاب لم تكن ممكنة لولا ظهور مادة جديدة ورخيصة للكتابة وهي الورق.

وحول هذا يسجل المؤرخـون العرب حادثة، لها ما يؤكـدها في المصادر الصينية، تتعلق ببداية إنتـاج الورق في العالم العربي. وكما يروي هؤلاء المؤرخـون فقد اندلع في صيف سنة ٧٥١م نزاع بين قبيلتين تركيتين في آسيـا الوسطى وطلبت حينئذ كل قبيلة المسـاعدة من جيرانها، الأولى من العـرب والثانيـة من الصينيين. وقد انتهت حينئـذ المعركة بين هاتين القبيلتين بفوز القبيلة التـي يدعمها العرب، مما أدى إلى أسر العرب

لبعض الصينيين الذين كانوا يعرفون سر إنتاج الورق. وقد اقتاد العرب هؤلاء الأسرى إلى مدينة سمرقند، حيث أسسوا بمساعدتهم أول معمل لصنع الورق، وخلال فترة قصيرة أصبحت هذه المدينة معروفة بورقها الممتاز الذي كانت تنتجه وتصدره إلى كثير من البلاد العربية. وفي نهاية القرن الثامن الميلادي، وبمساعدة الصينيين بدأ إنتاج الورق في بغداد نفسها بينما اشتهرت دمشق بسرعة كمركز معروف لإنتاج الورق. ففي دمشق بقي ينتج لوقت طويل أفضل نوع من الورق، وبقي هذا يصدر إلى عدة بلدان أوربية حيث كان يشتهر باسم مصدره (الورق الدمشقي).

وفيما بعد أخذت معامل الورق تظهر في مصر، حيث سيقضي الورق بالتدريج على استعمال البردي. وعبر المغرب وصل إنتاج الورق أخيرا إلى أوربا، وبالتحديد إلى إسبانيا. وفي الواقع فإن أول إشارة حول هذا نجدها لدى الإدريسي، الذي يذكر سنة ١١٥٠م مدينة شاطبة (ياتيقا اليوم) في قالانسيا حيث الورق «الذي لا يوجد له مثيل في العالم المتمدن» والذي يصدّر لـ «الشرق والغرب».

ولكن في العالم الإسلامي لم يلغ الورق فورا استعمال الرق كمادة للكتابة، إذ بقي يستعمل لفترة أخرى لكتابة القرآن كما بقي ورق البردي يستعمل لفترة أخرى أيضا. ففي بغداد نفسها، وهي أكبر مركز لإنتاج الكتاب في العالم العربي حينئذ، لم يظهر أول كتاب على الورق إلا سنة ٨٧٠م. وفي الواقع فقد استمرت المنافسة بين ورق البردي والورق الجديد حتى القرنين ١٢ ؛ ــ ١٣م، حين أنهى الورق الجديد تماما استعمال ورق البردي للكتابة.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي انتشر أخيرا الورق خارج العالم العربي ـ في أوربا. ففي ذلك الوقت تقريبا انتهى احتكار العرب لإنتاج الورق والاتجار به، بعد أن بقي في أيديهم حوالي ٥٠٠ سنة.

ج ـ إنتاج الكتاب وانتشاره

حتى القرن الثامن الميلادي، أي إلى أن بدأ العرب بإنتاج الورق، كانت معظم الأبيات الشعرية والروايات وحتى «الإنجازات» العلمية تنتقل من فرد إلى آخر

بالمشافهة.

ولكن لدينا في القرآن ذاته معطيات كافية تشير إلى أن العرب كانوا يستخدمون الرق قبل ظهور الإسلام وغيره من مواد الكتابة لتدوين النصوص التجارية والإدارية إلخ.

ومع إنتاج الورق بدأت المرحلة الذهبية للكتاب الإسلامي فقد ازداد عدد المخطوطات كثيرا وأخذ التنافس يشمل الخلفاء والوزراء والأغنياء على اقتناء الكتب الغالية والنادرة وأصبح الخطاطون موضع البحث والتقدير بينما كان الكبار منهم يُغمرون بالتواصي والهدايا القيمة. وكان الكثير من الخطاطين يعملون في المكتبات، حيث ينسخون هناك المؤلفات لحساب تلك المكتبات، بينما كان كبار الخطاطين يعيشون في قصور الخلفاء حيث ينسخون المؤلفات الغالية للمكتبات الخاصة. وإلى جانب هؤلاء كان هناك خطاطون يعيشون فقط من عملهم، أي يعملون حسب الطلب. وبين هؤلاء الخطاطين تمتع أولئك الذين كانوا ينسخون القرآن بشهرة خاصة كابن مكلا (٨٨٦ ـ ٩٤٠م) وابن البواب (توفي ١٠٢٢م و١٠٣٢م)، الذي يقال إنه كتب بخط يده خلال حياته ٥٠٠ نسخة من القرآن.

في كل المدن الإسلامية كانت التجارة بالكتب نشيطة للغاية. وكان الوارقون عادة يفتحون دكاكينهم أمام الجوامع والمدارس، وكانت هذه الدكاكين كثيرا ما تتمركز في شوارع خاصة حيث تكون حركة المارة على أشدها. إلا أن هذه الدكاكين لم تكن فقط لبيع الكتب. فهناك كان يجتمع المثقفون وأولئك الذين يريدون أن يصبحوا مثقفين وهناك كانت تناقش الموضوعات المختلفة وتنشد الأشعار وهكذا. وعلى الرغم من هذا فقد كان الدور المهم لهذه الدكاكين، بالإضافة إلى بيع الكتب، يكمن في نشر المعلومات حول المؤلفات الجديدة.

وفي العصر العباسي كانت بغداد المركز الأساسي لإنتاج الكتاب والإتجار به. ففي مرحلة الازدهار الكبير لإنتاج الكتاب في هذه المدينة وصل عدد دكاكين الوراقين إلى مئة. ومن بغداد كانت الكتب سرعان ما تجد طريقها إلى أبعد المدن في العالم الإسلامي. وعلى ظهور الجمال كانت القوافل تحمل الكتب من بغداد إلى أقصى

البلدان، كما كانت أيضا تحمل الكتب من هذه البلدان (بيزنطة، سوريا، الهند) إلى بغداد.

وقد كانت الكتب التي ينسخها الخطاطون المعروفون، أو التي يكتبها المؤلفون أنفسهم غالية جدا ولم يكن في استطاعة أحد أن يقتنيها سوى الأغنياء. وعلى سبيل المثال يكفي أن نذكر أن ثمن كتاب المؤرخ الطبري (٨٣٩ ـ ٩٢٣م)، كما يذكر المقريزي، كان يصل إلى مئة دينار.

وكان هذا بالنسبة لذلك الوقت ثمنا مرتفعا إذ أن الكتاب المتوسط كان يباع بدينار أو دينارين. وحتى هذا يبدو ثمنا مرتفعا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأجرة السنوية لمقهى كانت لا تتعدى الدينار. أما أولئك الذين لم يكونوا يملكون هذه الإمكانية فقد كانوا ينسخون المؤلفات بأنفسهم أو يعطونها إلى خطاطين مغمورين لكي ينسخوها.

د ـ الكتب والمكتبات

بالمقارنة مع الكثير من المراكز الثقافية للعالم الإسلامي فإن بغداد تتميز بأنها ليست مدينة قديمة بل هي مدينة جديدة بنيت في القرن الثامن الميلادي. وقد بناها العرب بأنفسهم في مركز دولتهم الواسعة، وبالتحديد على ضفة دجلة حيث تتقاطع الطرق التجارية التي كانت تربط المحيط الهندي بالبحر الأبيض المتوسط. ونظرا للسياسة الحكيمة للأسرة العباسية، والموقع الجغرافي الملائم، فإن بغداد سرعان ما تحولت إلى أهم مركز سياسي وثقافي للعالم الإسلامي وأكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان (حوالي مليون ونصف نسمة). ففي هذه المدينة، ابتداء من القرن التاسع الميلادي وحتى سقوطها بأيدي المنغوليين سنة ١٢٥٨م، تطور إنتاج الكتاب بشكل لا مثيل له في ذلك الوقت.

كان الخلفاء أنفسهم يتحمسون للكتاب ويهتمون به، إذ أنهم كانوا يشجعون العلماء على ممارسة العلوم ويحضّون الكتّاب على كتابة مؤلفاتهم. وكان هؤلاء أيضا يشجعون كثيرا على جمع وترجمة ودراسة مؤلفات الكتّاب اليونانيين القدماء. وهكذا فقد شاركت أعداد كبيرة من الناسخين والمترجمين والمجلدين والمزخرفين والمثقفين في

إنتاج الكتاب، وفي ترجمة وتفسير النصوص المختلفة. وقد كان من الأهمية بمكان ما قام به هؤلاء من محاولات لجمع مؤلفات الكتّاب اليونانيين القدماء، حيث وصل إلينا عـدد كبير من هذه المؤلفـات بفضل الترجمات السـورية وبفضل الترجمات الأخـرى التي جرت في نهاية العصر القديم وبداية العصر الوسيط. إلا أن بغداد لم تكن تجمع فقط مؤلفات الكتـاب اليونانيين القدمـاء بل كان يصل إليها أيضا مـؤلفات الكتاب من البلدان المجـاورة كالهند وغيرهـا. وقد كان من الطبيعي في هـذه الظروف أن تبرز بسرعـة المكتبات الأولى الخاصـة أولا ثم مكتبـات القصور والخلفـاء وبيوت الـوزراء والعلماء الذين كـانوا يقلدون بـدورهم الخلفاء وبالإضافـة إلى هذه فقد أخـذت تكثر المكتبات الأخرى في الجوامع والمدارس الدينية.

كانت معظم الكتـب التي تنسخ في ذلك الوقت وتحفظ في المكتبـات ذات طابع ديني، وكانت نُسَخ القـرآن تحتل مكانة خـاصة بخطها الجميل وتجليـدها النفيس. وإلى جـانب ذلك كـانت هنـاك كتب مـن الفلك والتـاريخ والطب والـريـاضيـات والحقوق وبقية العلوم، بالإضافة إلى الكتب الأدبية.

وفي مكتبات العلماء نجد أولا تلك الكتب التي كانوا يعودون إليها كل يوم والتي يعتمدون عليهـا لإنجاز مـؤلفاتهم. وقـد أوصى الكثير من أصحاب هـذه المكتبات الخاصة بمكتباتهم إلى المكتبات العـامة، مما يشهد برغبة هـؤلاء لكي يستفيد الآخرون من هـذه الكتب. ولـدينا هنـا استثنـاء واحـد يتعلق بـالكاتب المعـروف أبي حيـان التوحيـدي (القرن العاشر الميلادي) الـذي حرص على إحراق مكتبته عـوضا عن أن يتركها لمواطنيه نظرا لأنه كان يعتبرهـم غير قادرين على تفهم ما يكتبه.

وقد جمعت المكتبـات الكبرى في بغداد المثقفين حيث كـانوا يتناقشـون في العلوم ويسمعون النصوص الأدبية، كما في مكتبة الإسكندرية والمكتبات القديمة الأخرى. وفي بغـداد أيضـا كان يُعيّن لإدارة هـذه المكتبـات أنـاس مثقفـون يتمتعون بمكـانـة اجتماعية كبيرة.

ومن بين هواة جمع الكتب الكبـار في بغداد يحتل الخليفة هارون الـرشيد (٧٦٦ ـ



الخطاط حسايو زارين قلم والرسام مـاندهـار في مخطوطـة تعود الى سنـة ١٥٨١ في بلاط الحاكم المسلم اكبر في الهند (الجمعية الملكية الاسيوية ـ لندن) .

٨٠٩م) مكانـة خاصـة ، إذ أنه كان قـد جمع في بلاطـه مترجمين ليترجموا له مـؤلفات الكتّاب اليونانيين القدماء ، أما ابنه المأمون الذي حكم خلال (٨١٣ ـ ٨٣٣)م ، فقد أسس الأكاديمية المعروفة «بيت الحكمة» التي ضمت مرصدا فلكيا ومكتبة ضخمة . وفي هذا المكـان اجتمع أشهر العلماء والمترجمين والخطاطين في ذلك الـوقت سواء من العرب أو من الهنـود والفرس إلخ . وقـد كان المأمون نفسـه يشجع العلماء على دراسة الفلسفة اليونـانية وعلى ترجمة الكتب من اللغات اليـونانية والسريانيـة والسنسكريتية والفارسية إلى اللغة العربية .

وقـد كان المأمـون يرسل مبعـوثيـه الذين يثق بهم إلى بلـدان الشرق الأوسط لكي يبحثوا عن المخطـوطات اليـونانيـة القديمـة ، بل حتى أنه أرسل وفـدا إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الخامس لكي يطلب منه بعض المخطوطات اليونانية . وقد أثمرت هذه المهمة في القسطنطينية نتائجها الطيبـة حينئذ إذ عاد الوفد بكتب كثيرة تشمل مختلف العلوم ، مما دفع المأمـون أن يطلب ترجمتها فورا إلى العـربية . وحسب بعض المصادر ، التي يمكن أن ننظـر إليها ببعض التحفظ ، فإن مكتبـة المأمون بلغت من الضخـامة أيام حكمه إلى حـد أنها جمعت مليون مخطوطة . وقـد تابع الخلفاء الذيـن جاءوا بعد

المأمون دعم «بيت الحكمة» حتى أن مكتبتهـا أصبحت تجمع كنزا هائلا، إلا أن المنغوليين أحرقوها للأسف حين فتحوا بغداد سنة ١٢٥٨م.

وإلى جانب «بيت الحكمـة» كانت هنـاك مكتبات أخرى في بغـداد، ومن أهمها تلك المكتبـة التي أسسها في نهايـة القرن العـاشر الميلادي الوزيـر صبر ابن أرادشير، التي كانت أيضا في إطار أكاديمية أخرى. وقد تمتعت هذه المكتبة بشهرة خاصة لدى المعـاصرين نظرا لغنـاها بـالكتب حتى أن الكاتب يـاقوت الحمـوي يقول في القـرن الثالث عشر الميلادي إنه «لا يوجد في كل العالم كتب أجمل مما في هذه المكتبة».

وقـد كانت مكتبـات المدارس أيضا غنيـة بـالكتب، وخاصـة تلك التي أقامهـا الخليفة المستنصر خلال ١٢٣٢ ـ ١٢٣٣م في بناء رائع. وقـد كان طلبة العلم الذين يرغبون بتكـوين مكتبات خاصة بهم يحصلـون بالمجان على الورق والأقـلام لنسخ ما يريدون من الكتب.

وبالإضافة إلى المكتبات العامة كانت هناك في بغداد الكثير من المكتبات الخاصة التي كان بعضها يحتوي على كتب ذات قيمة كبيرة. ومن بين هذه نذكر مكتبة المؤرخ الواحـدي (توفي ٨٢٢م)، التي كـانت مكتبته الخاصـة والتي كانت تحوي على ٦٠٠ صندوق.

ولم تكن بغـداد بطبيعة الحال تحتكـر وجود المكتبـات في العـالم الإسلامي إذ أنـه وجدت في المدن الأخرى كسمرقند والبصرة وحلب والموصل ودمشق إلخ.. مكتبات كبيرة وكثيرة. وقد خلف لنا الكتّاب العـرب معطيات كثيرة عن هذه المكتبات، ومن بين هؤلاء الطبيب والفيلسوف المعروف ابن سينـا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) الذي وصف لنا في سيرته مكتبة الأسرة السمنـدية في بخارى. وهكذا فهـو يروي لنا أنه خـلال إقامته في المدينة مرض سلطان المنطقة نوح بن منصور ولذلك استدعوه لمعالجته.

وكما يضيف ابن سينا: «في أحـد الأيام رجوتـه أن يسمح لي بالدخـول إلى مكتبته لأرى الفهـرس وأقـرأ كتب الطب. وحين سمح لي بـذلك دخلت إلى بنـاء مقسم إلى عدة أقسـام وفي كل قسم كانت هناك صنـاديق الكتب الواحد فوق الآخـر. في أحد

الأقسام كانت هناك الكتب الخاصة باللغة والشعر، وفي قسم آخر كانت هناك الكتب المتعلقة بالحقوق إلخ. وهكذا ففي كل قسم كانت هناك الكتب التي تتعلق بأحد العلوم، شاهدت هناك فهرس المؤلفات اليونانية القديمة وطلبت ما كنت أريده. وهناك شاهدت كتبا قد لا يعرف أحد عنها شيئا ورأيت كتبا لم أرها في أي مكان آخر لا سابقا ولا لاحقا. قرأت هناك تلك الكتب وأخذت بعض الملاحظات. وهكذا عرفت المكانة التي شغلها كل واحد في علمه»(*)

وعلى الرغم من هذا فإن المكتبات التي أسست في مصر كانت تفوق بضخامتها وأهميتها كل المكتبات الأخرى في العالم الإسلامي. ففي القاهرة مارست الأسرة الفاطمية (٩٦٩ ـ ١١٧١م) ذلك الدور الايجابي في التطور الثقافي على نمط ما قامت به الأسرة العباسية في بغداد. فقبل تولي الأسرة الفاطمية للحكم في مصر لم يكن العرب يعبرون عن اهتمام بالكتابة والكتب والمكتبات، وقد شكلت في السنوات المتأخرة تلك الإسطورة التي تقول بأن العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية الشهيرة حين فتحوا هذه المدينة سنة ٦٤٢م. وحسب هذه الإسطورة فإن حمامات المدينة بقيت أربعة شهور تحرق كتب المكتبة لتسخين المياه في مراجلها. أما اليوم فيشك بحق في أن يكون العرب هم الذين أحرقوا بقايا مكتبة الإسكندرية.

في العصر الفاطمي أصبحت العاصمة الجديدة لمصر (القاهرة) من أكبر المراكز الثقافية للعالم في ذلك الوقت. وقد أسس حينئذ الخليفة العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦م) مكتبته الشهيرة في قصره، تلك التي ضمت حسب بعض المصادر ٢٠٠ ألف مخطوط وحسب بعض المصادر الأخرى ٦٠٠ ألف مخطوط. وربما يكون في هذه المصادر بعض المبالغة، إلا أنه لا يشك أبدا في أن هذه المكتبة كانت ضخمة بالفعل إذ أنها كانت تتوزع على أربعين قسما مما كان يدفع شهود العيان للتحدث عنها باندهاش

(*) أورد صاحب شذرات الذهب إضافة لها مغزى ومعنى: «واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد أبوعلي بما حصّله من علومها، وكان يقال: إن أبا علي توصل إلى إحراقها ليتفرد بمعرفة ماحصل منها وينسبه إلى نفسه». انظر:

ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الارناؤوط ج٥، بيروت ١٩٨٩، ص ١٣٤. (المترجم).

وهكذا نعرف الآن أنه كان يوجد في هـذه المكتبة ٢٤٠ نسخة من القرآن مزينة ومجلدة بشكل نفيس، بالإضافة إلى ١٨٠٠ مخطوطة حول العلوم القديمة. وقد نقل قسم من هذه المكتبة إلى الأكاديمية الجديدة «دار الحكمة» التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٥م على نمط «بيت الحكمة» في بغداد.

وقـد تحولت «دار الحكمـة» القـاهريـة أيضـا إلى مكـان يلتقي فيـه العلماء، وفي مكتبتها كان يمكن للعلماء والمترجمين والمهتمين أن يجدوا ما يحتـاجون إليه من الكتب في كل فـرع من فـروع العلم. وكـان يمكن لأي شخص أن يـدخل إلى مكتبـة «دار الحكمة»، بينما كانت تقدم للقراء بالمجـان الأوراق والأقلام والمحابر. وقد كان هناك خطاطون يختصون بنسخ الكتب والاكثار منها، إلا أن العدد الأكبر من كتب المكتبة كان يأتيها مع القوافل من المدن الأخرى.

وقد سجلت نهاية العصر الفاطمي بداية انهيار المكتبات الكبرى في القاهرة. فقد أدى النهب والحرائق واللامبـالاة إلى القضاء على قسم كبير من ثـروة المكتبات، التي كان الخلفـاء الفاطميـون وهم من محبي الكتب قد أنفقـوا عليها الكثير من اهتمامهم وثروتهم.

ولكن هـذا لا يعني بطبيعة الحال نهايـة الاهتمام بالكتـاب ونهاية الحيـاة بالنسبـة للمكتبـات في مصر. فمـع أن الحكـام في العصر المملـوكـي (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) لم يستطيعوا أن يعيـدوا لمصر أهميتها الثقـافية التي كـانت لها في العصر الفاطمي إلا أن بعضهم حاول أن يرعى العلوم والفنون وأن يشجع على نسخ المؤلفات وأن يساعد على تأسيس وتطوير المكتبات. وبالإضافـة إلى هذا فقد أسست في ذلك الوقت مكتبات خـاصة بـالعلماء من أطباء وحقـوقيين ولغـويين الخ.. مما يـدل على تطور في إنتـاج الكتاب في ذلك الحين. وهنا تـذكر لنا المصادر على سبيل المثال أن الإمـام ابن جابر (توفي ١٣٢٥م) كانت له مكتبته الخاصة التي تحتوي على ٦٠٠٠ مخطوط.

وإلى جانب هـذه المكتبات الكبرى في بغداد والقـاهرة كانت هنـاك مكتبة الأسرة الأمويـة في قرطبة بالأنـدلس، التي أسسها الخليفة الحَكَم الثـاني (٩٦١ ـ ٩٧٦م)،



صفحة من القرآن الكريم بخط الخطاط المشهور ابن البواب من القرن العاشر الميلادي
(مكتبة شيستر بتي ـ دبلن)

الذي يحتل مكانة خاصة بين الحكام المتنورين العرب. ونظرا لرغبته في أن يجمع بأسرع وقت الكتب القيمة لمكتبته فقد أرسل المبعوثين إلى القاهرة ودمشق وبغداد والمدن الأخرى التي تهتم بالكتب، وذلك لشراء الكتب بأثمان عالية حتى استطاع أن يجمع بسرعة حوالي ٤٠٠ ألف مجلد لمكتبته. وفي هذه المكتبة كان هناك «جيش» من الخطاطين والمزخرفين والمجلدين الذين كانوا يعملون لحاجات المكتبة، بينما تمكن العاملون في المكتبة بوضع فهرس لها في ٤٤ مجلدا.

ولسوء الحظ فإن هذه المكتبة لم تعمر طويلا إذ أن البرابرة نهبوها سنة ١٠١٣م وانتهت من الوجود حين سقطت الأسرة الأموية. وبالطبع فقد كان في قرطبة مكتبات أخرى، إذ أن هذه المدينة كانت المركز الرئيسي للكتاب في البلاد. فقد كان في المدينة عدد كبير من الخطاطين الذين كانوا ينسخون الكتب في محلاتهم ثم يبيعونها في قرطبة أو في مدن أخرى. وفي ذلك الوقت كان هناك الكثير من محبي الكتاب من العلماء والشعراء وغيرهم، الذين يرغبون في تكوين مكتبات خاصة بهم. وإلى جانب هؤلاء كان أولئك الذين لا يعرفون الكثير عن الكتب ولكنهم مع ذلك يحرصون على أن يجمعوا في بيوتهم مجموعات نفيسة من المخطوطات ولدينا من ذلك الوقت نادرة تصور بأفضل شكل تقليد الآخرين في الاهتمام بالكتاب: «أقمت بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، وهو بخط فصيح وتجليد مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: ياهذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي. قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي لست بفقيه ولا أدرى مافيه، ولكن أقمت خزانة كتب، وحافظت عليها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. فقلت لنفسي: لك حكمتك يارب، تعطي البندق لمن لا نواجذ له»(*)

(*) النص الأصلي ورد لدى المقريزي في كتابه «نفح الطيب» على لسان أندلسي - م. المترجم.

إلا أن المكتبات لم تكن موجـودة فقط في قرطبة بل كانت هناك مكتبـات غنية في بقية المدن الكبيرة في الأندلس كما في مـالاغه وأشبيلية وغرنـاطة. وبالإضافـة إلى المكتبات العـامة في هـذه المدن كانـت هناك مكتبـات خاصـة للعلماء والأدبـاء، منها مـاهي إسلامية ومنها ماهي عبرية أو يونانية (بيزنطية) إلخ، وذلك بحكم السياسة المتسامحة لحكـام البلاد. وعلى الـرغم من هـذا فقد بقيت قـرطبـة لوقت طـويل مـركز الحيـاة الثقافية، وهي التي كانت إلى جانب القسطنطينية أكبر مدينة في أوربا.

وقد كان لنشاط الخطاطين في ذلك الوقـت، وخاصة خلال القرنين ١٠ ـ ١١م، أهمية عظيمة. فحسب بعض التقديرات كـان ينجز في كل سنة نسخ ٦٠ ـ ٨٠ ألف كتـاب في قرطبـة، ومن المثير أن نشير هنـا إلى أن النسـوة كن يشاركـن أيضا في هـذا النشاط ففي أحد مراكز النسخ كانت تعمل ١٧٠ امرأة في نسخ القرآن.

وفي الواقع لقد كان لهذا النشاط الكبير، وخاصة النشاط المتعلق بالترجمة في ذلك الحين، أهميـة كبيرة بـالنسبة للثقـافـة الأوربيـة فقد تـرجمت الكثير من كتب العلـوم والفلسفـة اليونـانيـة إلى العربيـة، وسيتعـرف الأوربيـون لاحقا إلى هـذه الكتب عبر الترجمات العربيـة بالـذات. وقد كـانت طليطلة هـي المركز لنشـاط الترجمة، بعد أن استردها المسيحيون وأسس فيها برعايـة الفونسو الحكيم (١٢٥٢ ـ ١٢٨٤م) مدرسة المترجمين المعروفة.

فقد تـرجمت هنا من العـربية إلى اللاتينيـة مؤلفـات الطب والفلك والريـاضيات والفلسفـة وبفضل هـذه الترجمات تعـرفت أوربـا على إنجـازات العـرب في العلم والفلسفة وعلى مؤلفات الكتّاب القدماء.

هـ ـ المؤلفات المرجعية

في عصر الازدهـار العظيم لإنتـاج الكتاب في العـالم الإسـلامي، أي في الـوقت الذي بدأت فيـه تعددية المراكز الثقافيـة الإسلامية تطرح مشكلات جـدية حول نشر المعلومات المتعلقة بالإنجازات العلمية والمؤلفات الأدبية بعد أن أصبحت المعلومات التي تسمع في بـلاط الخليفـة أو في المدارس غير كافيـة، ولـدت الحاجة إلى إنجـاز

مـؤلفات مـرجعيـة. وهكذا كـان لابـد من تسجيل وترتيـب عناوين عـدد كبير من الكتب، سـواء تلك التي ألفها العـرب أو التي تـرجمها العـرب عن اللغات الأخـرى كاليونانية والسريانية والهندية وكان لابد أيضا من توفير المعطيات حول مؤلفي الكتب ومحتوياتها.

وقد كـان فضل الريادة في هـذا العمل العظيم لابن النديم، الذي ولـد في بغداد وعاش في القسطنطينيـة. ففي سنة ٩٨٧م ألّـف كتابـه المعروف «الفهرسـت» الذي سجل فيه كل المؤلفـات العربية بالإضـافة إلى مؤلفات الأمم الأخـرى التي ترجمت إلى العربيـة. وفي مقدمة كتـابه يطرح ابن النـديم بوضوح كبير الهدف من عملـه: «هذا فهـرست كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجـود منها بلغـة العرب وقلمهـا في أصنـاف العلـوم، وأخبـار مصنفيهـا وطبقـات مـؤلفيهـا، وأنسـابهم، وتـاريخ موالـدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأمـاكن بلدانهم ومنـاقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم اخترع وإلى عصرنا»(*)

ومن المثير أن ابن النـديم يزودنـا أيضا بـالمعطيات عن هـواة جمع الكتب في ذلك الوقت وعن مكتباتهم، وحتى عن المزايدات التي كانت تقام حول الكتب.

وقد ألفت فيما بعـد مؤلفات مشابهة خلال القـرن الحادي عشر الميلادي، ولكن ليست لها تلك القيمة التي يمتـاز بها «فهرست» ابن النديم. ومن بين هـذه المؤلفات لابد أن نـذكر «فهـرست» الطوسي(**) (٩٥٥ ـ ١٠٦٧م)، حيـث تذكـر فيه ٩٠٠ مؤلف من كل مجالات العلم والـدين والأدب الخ. وقد ظهرت مـؤلفات ببليوغـرافية من هذا النـوع في الأندلس الإسلامية، ولابـد أن نخص بالذكـر «فهرست» ابن خير الأشبيلي (١١١٠ ـ ١١٧٩م). ففي هـذا الكتـاب يـذكـر ١٤٠٠ مـؤلف في اللغـة العربية في مجال الأدبيات الدينية والمعاجم والشعر الخ.

(*) عدنـا إلى النص العربي كما ورد على لسـان ابن النديم. انظـر: كتاب الفهرست للنـديم، تحقيق رضا ـ تجدد، طهران ١٩٧١ / ص ٣. (المترجم).

(**) من الواضح أن المؤلف يقصد هنـا «فهرست كتب الشيعة» لأبي جعفر الطـوسي انظر «الإعلام» للزركلي، ج٦ ص ٨٤ ـ ٨٥. (المترجم).

وفي الواقع أن أهمية هـذه المؤلفات الببليوغرافية كانت كبيرة جـدا في الوقت الذي وصل فيه إنتاج الكتـاب في العالم الإسلامي إلى مستوى رفيع جـدا، وفي الوقت الذي لم تعد فيه الثقافـة الإسلامية تقتصر على مركز واحد ممـا كان يجعل من الصعب معرفة ماذا يؤلف من كتب في أرجاء الدولة الإسلامية الواسعة.

و- الإسلام والطباعة

في الـوقت الذي كـانت فيه الكتب تطبع في أرجـاء واسعة من آسيـا، في اليابـان وكـوريا والصين وبـلاد الأويغور الأتـراك، بـواسطة القـوالب الخشبيـة ثم بواسطـة الحروف المتحركة، نجـد أن إنتاج الكتاب بقي يعتمد في بقيـة آسيا وأوربا على النسخ بخط اليد. وكما هو معروف فإن الاكتشافات الكبيرة في حقل الطباعة، سواء بواسطة القوالب الخشبية ثم بواسطة الحروف المتحركة، لم تصل إلى أوربا مع أن هذه الإمكانية لا يمكن استبعـادها تمامـا، لأن التأثيرات الثقـافيـة والسلع التجاريـة كـانت تسير باتجاهين عبر «طريق الحرير» المعروف بحركته الدائمة.

وربما كان السبب في عـدم وصول هذه الاكتشافات إلى أوربـا في العصر الوسيط يكمن في عدم اهتمام العـرب بهذه الاكتشافات، ممـا أدى الأمر إلى تأخر انتقـال هذه الاكتشافات إلى الغرب.

وقـد حاول البـاحث الاختصـاصي بشـؤون الطباعـة في الشرق الأقصى ث. ف كارتر في كتابه «اختراع الطباعة في الصين وانتشارها باتجاه الغرب» أن يبرر هذا الموقف للعـرب بقولـه إنهم قـد رفضـوا لأسباب دينيـة أن يطبعـوا كتبهم المقـدسـة بوسـائل ميكانيكية مما أخر انتشار الطباعة من الشرق الأقصى إلى أوربا.

وفي الواقع أن العرب المسلمين قـد رفضوا طباعة القـرآن حتى في العصور المتأخرة ويبدو من المثير هنا أن نسجل ما حصل في استنبول للمـدعو إبراهيم الهنغاري الذي طلب سنة ١٧٢٧ أذنا لتأسيس مطبعـة في المدينة. وقد حصل أولا على فتوى صريحة من العلماء ترفـض بشدة طباعـة القرآن على أسـاس أن هذا يتعارض مـع الإسلام ثم حصل أخيرا على مـوافقة بتأسيس مطبعـة بشرط ألا يطبع فيها القـرآن. وإذا استثنينا بعض الحالات نرى أن العرب لم يكونوا ليسمحوا بتأسيس المطابع في بلادهم.

وهكذا فقد تأخر عمل أول مطبعة في مصر إلى سنة ١٨٢٥ . وعلى كل حال فإن القرآن قد بدىء في طباعته منذ القرن الخامس عشر الميلادي ولكن خارج المنطقة العربية. فقد طبع للمرة الأولى في فينا خلال سنوات ١٤٨٣ ـ ١٤٩٩م بينما طبعت عدة كتب عربية أخرى في مدينة فانون بإيطاليا الوسطى خلال ١٥١٤م.

ومع أنه لا يوجد شك بأن موقف المسلمين لم يكن مشجعاً لانتشار مهنة الطباعة من الشرق باتجاه الغرب، إلا أن ظهور الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر خلال العصر الوسيط يستحق اهتماما خاصا لأنه يعبر عن حالة غير مألوفة في العالم الإسلامي.

ز ـ الكتب المطبوعة بالقوالب الخشبية في مصر

في نهاية القرن التاسع عشر اكتشفت في آثار مدينة قديمة بالقرب من الفيوم نصوص لحوالي خمسين كتابا تم إنتاجها بواسطة الطباعة بالقوالب الخشبية خلال سنوات ٩٠٠ ـ ١٣٥٠م. وكانت هذه الكتب دون استثناء مكتوبة باللغة العربية وتناولت موضوعات دينية، وهي اليوم محفوظة في المكتبة الوطنية في فينا ـ حيث توجد غالبيتها وفي بقية المكتبات الأوربية. وليس من السهل هنا تفسير ظهور هذه الكتب المطبوعة في إطار حضارة كانت ترفض طبع الكتب الدينية بوسائل ميكانيكية. ويعتقد هنا أن إنتاج هذه الكتب كان من قبل الشعب، الذي كان يعتقد بالقوة الخارقة للكلمة المطبوعة، والذي لم يكن يملك القدرة على شراء المخطوطات بأسعارها العالية في أسواق الوراقين.

وهكذا يمكن أن يقال إن الأمر في مصر، كما في أوربا لاحقا، يتعلق بالإنتاج الثقافي الدوني للشرائح الفقيرة. ومن الصعب الاعتقاد بأن إنتاج الكتب على هذا النحو كان بمساعدة أو مباركة رجال الدين، وهم الذين كانوا يتميزون بموقف صارم من طبع الكتب المقدسة. وهناك من يعتقد أن أمثال هذه الكتب قد طبعت في البلاد العربية والإسلامية الأخرى، وليس فقط في مصر، ولكن مناخ مصر الجاف هو الذي ساعد على حفظ النصوص التي وجدت.

إن الباحثين الاختصاصيين الذين اهتموا بهذه المطبوعات النادرة في العالم

الإسلامي قدموا براهين مقنعة بما فيه الكفاية لتكوين رأي يقول بأن هذه الكتب المطبوعة قد ظهرت بتأثير مباشر أو غير مباشر للتقنية الصينية في الطباعة بالقوالب الخشبية، ولذلك فهي تعتبر جسراً مهماً بين الطباعة التي ظهرت أولا في الشرق الأقصى وبين الطباعة التي ظهرت لاحقا في أوربا في نهاية العصر الوسيط. وفي الواقع أن القارىء يجد نفسه مقتنعا بما يذهب إليه هؤلاء الاختصاصيون، مع أنهم لا يستطيعون أن يدعموا آراءهم ببراهين قوية، من أن الأوربيين قد تعلموا هذه التقنية من المسلمين نتيجة للصلات التي كانت قائمة بينهم. وعلى الرغم أنه من الصعب إثبات الصلة بين الطباعة المصرية والطباعة الأوربية إلا أنه تبقى لدينا حقيقة لا شك فيها، ألا وهي أن الكتب المطبوعة الأولى بالقوالب الخشبية قد ظهرت في أوربا في الوقت الذي توقف فيه إنتاجها في مصر.

المراجع

فيما يتعلق بالكتاب والمكتبات في العالم الإسلامي انظر:

K. Holter, Der Islam, Handbuch der Bibliothekswissenschaft, 2. Aufl, Wiesbanden 1955, Bd. III, 1, p.188-242;

ومن بين الدراسات الكثيرة حول المكتبات العربية لابد أن نذكر:

O. Pinto, Le Biblioteche degli Arabi nell'eta degli Abbassidi, Bibliofilia, 30 (1929), p. 139-165;

A. Grohmann, Bibliotheken und Bibliophilen im islamischen Orient, Festschrift der Nationalbibliothek in Wien, Wien 1926, p.431-442;

R. S. Mackensen, Four Great Libraries of Medieval Baghdad, The Library Quarterly, 2 (1932), No. 3, p. 279-229;

S. K. Padover, Muslim Libraries, The Medieval Library, New York 1957, p. 347-368;

وحول الخط الإسلامي لدينا صورة جميلة لدى:

A. Katibi-M. Sijelmassi, The Splendor of Islamic Calligraphy, New York 1975

وحول الببليوغرافيا الإسلامية بشكل خاص انظر:

Syed Jalaluddin Haider, Bibliographic heritage of Muslims, Libri, 29 (1979), No. 3, p.207-218.

المؤلف في سطور

* باحث كرواتي معروف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات .
* عمل فترة طويلة بعد الحرب العالمية الثانية مديرا لمكتبة الأكاديمية اليوغسلافية للعلوم والفنون .
* بروفسور في جامعة زغرب منذ ١٩٧٢ لمادة «تاريخ الكتاب والمكتبات» .
* ترجمت معظم أعماله إلى اللغات الغربية (الإيطالية ، الإنكليزية ، الألمانية) .
* **من مؤلفاته :**

- فن الإليريين ، الطبعة الإيطالية ١٩٦٣ ، الطبعة الإنجليزية ١٩٦٦ .
- الإليريون ، الطبعة الإيطالية١٩٦٦ ، الطبعة اليوغسلافية ١٩٦٧ .
- البيليوغرافيا الإليرية ، أربع طبعات ١٩٦٧ , ١٩٧٤ , ١٩٧٨ , ١٩٨٤ .
- رموز العبادة عند الإليريين ١٩٨٢ .

المترجم في سطور

* مواليد دمشق ١٩٥٠ .
* ماجستير ودكتوراة في التاريخ الحديث من يوغسلافيا .
* أستاذ مساعد للتاريخ الحديث في قسم التاريخ بجامعة اليرموك .
* يشتغل في التاريخ الحضاري لبلاد البلقان وبلاد الشام في العصر العثماني .
* له عدة أبحاث في المجلات العلمية المتخصصة وشارك في عدة مؤتمرات دولية .

* **من كتبه المنشورة :**

- تاريخ بلغراد الإسلامية ، الكويت ١٩٨٧ .
- ملامح عربية إسلامية في الأدب الألباني ، دمشق ١٩٩٠ .
- الوجه الآخر للاتحاد والترقي ، ترجمة وتقديم ، إربد ١٩٩٠ .
- دراسات ووثائق حول الدفشرمة ، ترجمة وتقديم ، إربد ١٩٩١ .
- معطيات عن دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر ، إربد ـ دمشق ١٩٩٢
- الإسلام في يوغسلافيا ـ بيروت ١٩٩٢ .



تاريخ الكتاب

(القسم الثاني)

تأليف :

د. الكسندر ستيبتشيفتش

ترجمة : د. محمد . م. الأرناؤوط

صدر عن هذه السلســلة

العنوان	المؤلف	التاريخ
١ـ الحضارة	تأليف : د/ حسين مؤنس	يناير ١٩٧٨
٢ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس	فبراير ١٩٧٨
٣ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا	مارس ١٩٧٨
٤ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى	أبريل ١٩٧٨
٥ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : د/ زهير الكرمي	مايو ١٩٧٨
٦ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د/ عزت حجازي	يونيو ١٩٧٨
٧ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : / محمد عزيز شكري	يوليو ١٩٧٨
٨ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا	اغسطس ١٩٧٨
٩ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما	سبتمبر ١٩٧٨
١٠ـ جحا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار	أكتوبر ١٩٧٨
١١ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا	نوفمبر ١٩٧٨
١٢ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	د. حسين مؤنس د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا	ديسمبر ١٩٧٨
١٣ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبدالعليم	يناير ١٩٧٩
١٤ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي	فبراير ١٩٧٩
١٥ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح	مارس ١٩٧٩
١٦ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبدالفضيل	أبريل ١٩٧٩
١٧ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي مراجعة : زهير الكرمي	مايو ١٩٧٩
١٨ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري، د/ علي الراعي	يونيو ١٩٧٩
١٩ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : / سعد أردش	يوليو ١٩٧٩

٢ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة حسن سعيد الكرمي مراجعة : صدقي حطاب	أغسطس ١٩٧٩
٢ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد على الفرا	سبتمبر ١٩٧٩
٢٢ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صباريني	أكتوبر ١٩٧٩
٢٣ـ الرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني	نوفمبر ١٩٧٩
٢٤ـ الإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى	ديسمبر ١٩٧٩
٢٥ـ المسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي	يناير ١٩٨٠
٢٦ـ مصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن	فبراير ١٩٨٠
٢٧ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم	مارس ١٩٨٠
٢٨ـ أفريقيا في عصر التحول الإجتماعي	ترجمة : شوقي جلال	ابريل ١٩٨٠
٢٩ـ العرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره	مايو ١٩٨٠
٣٠ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني	يونيو ١٩٨٠
٣١ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني	يوليو ١٩٨٠
٣٢ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف مراجعة : د/ رجا الدريني	أغسطس ١٩٨٠
٣٣ـ الإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله	سبتمبر ١٩٨٠
٣٤ـ قضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي	أكتوبر ١٩٨٠
٣٥ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري	نوفمبر ١٩٨٠
٣٦ـ الحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله	ديسمبر ١٩٨٠
٣٧ـ المساجد	تأليف : د/ حسين مؤنس	يناير ١٩٨١
٣٨ـ تكنولوجيا الطاقة البديلة	تأليف : د/ سعود يوسف عياش	فبراير ١٩٨١
٣٩ـ إرتقاء الإنسان	ترجمة : د/ موفق شخاشيرو مراجعة : زهير الكرمي	مارس ١٩٨١
٤٠ـ الرواية الروسية في القرن التاسع عشر	تأليف : د/ مكارم الغمري	أبريل ١٩٨١
٤١ـ الشعر في السودان	تأليف: د/ عبده بدوي	مايو ١٩٨١
٤٢ـ دور المشروعات العامة في التنمية الإقتصادية	تأليف : د/ علي خليفة الكواري	يونيو ١٩٨١
٤٣ـ الإسلام في الصين	تأليف: فهمي هويدي	يوليو ١٩٨١
٤٤ـ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع	تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي	أغسطس ١٩٨١

العنوان	المؤلف/المترجم	التاريخ
٤٥ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار	سبتمبر ٩٨١
٤٦ـ دعوة إلى الموسيقا	تأليف : د/ يوسف السيسي	أكتوبر ٩٨١.
٤٧ـ فكرة القانون	ترجمة : سليم الصويص مراجعة : سليم بسيسو	نوفمبر ١٩٨١
٤٨ـ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح	ديسمبر ٩٨١
٤٩ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي	تأليف : صلاح الدين حافظ	يناير ١٩٨٢
٥٠ـ التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية	تأليف : د/ محمد عبدالسلام	فبراير ١٩٨٢
٥١ـ السينما في الوطن العربي	تأليف : جان ألكسان	مارس ١٩٨٢
٥٢ـ النفط والعلاقات الدولية	تأليف : د/ محمد الرميحي	أبريل ١٩٨٢
٥٣ـ البدائية	ترجمة : د/ محمد عصفور	مايو ١٩٨٢
٥٤ـ الحشرات الناقلة للأمراض	تأليف : د/ جليل أبو الحب	يونيو ١٩٨٢
٥٥ـ العالم بعد مائتي عام	ترجمة : شوقي جلال	يوليو ١٩٨٢
٥٦ـ الإدمان	تأليف : د/ عادل الدمرداش	أغسطس ٩٨٢
٥٧ـ البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية	تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن	سبتمبر ١٩٨٢
٥٨ـ الوجودية	ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح	أكتوبر ١٩٨٢
٥٩ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا	تأليف : د/ انطونيوس كرم	نوفمبر ١٩٨٢
٦٠ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري	ديسمبر ١٩٨٢
٦١ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري	يناير ١٩٨٣
٦٢ـ حكمة الغرب	ترجمة : د/ فؤاد زكريا	فبراير ١٩٨٣
٦٣ـ الإسلام والاقتصاد	تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار	مارس ١٩٨٣
٦٤ـ صناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : احمد حسان عبدالواحد	أبريل ١٩٨٣
٦٥ـ مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل	مايو ١٩٨٣
٦٦ـ الإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني	يونيو ١٩٨٣
٦٧ـ بنو الإنسان	ترجمة : زهير الكرمي	يوليو ١٩٨٣
٦٨ـ الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكو	اغسطس ١٩٨٣
٦٩ـ ظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمر	سبتمبر ١٩٨٣
٧٠ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) القسم الأول	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطيه محمود هنا	أكتوبر ١٩٨٣
٧١ـ الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/ عبدالمالك التميمي	نوفمبر ١٩٨٣
٧٢ـ حكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا	ديسمبر ١٩٨٣

العنوان	المؤلف / المترجم	التاريخ
٧٣ـ التخطيط للتقدم الاقتصادي والإجتماعي	تأليف : د/ مجيد مسعود	يناير ١٩٨٤
٧٤ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : أمين عبدالله محمود	فبراير ١٩٨٤
٧٥ـ التصوير والحياة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم	مارس ١٩٨٤
٧٦ـ الموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين مراجعة : د/ إمام عبدالفتاح	أبريل ١٩٨٤
٧٧ـ الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا	تأليف : د/ أحمد عتمان	مايو ١٩٨٤
٧٨ـ قضاياالتبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن	يونيو ١٩٨٤
٧٩ـ مفاهيم قرآنية	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله	يوليو ١٩٨٤
٨٠ـ الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني	أغسطس ١٩٨٤
٨١ ـ الأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد	سبتمبر ١٩٨٤
٨٢ ـ تشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال مراجعة : صدقي حطاب	أكتوبر ١٩٨٤
٨٣ ـ البيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار	نوفمبر ١٩٨٤
٨٤ ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية	تأليف : د/ رمزي زكي	ديسمبر ١٩٨٤
٨٥ ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية	تأليف : د/ بدرية العوضي	يناير ١٩٨٥
٨٦ ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم	فبراير ١٩٨٥
٨٧ ـ في تراثنا العربي الإسلامي	تأليف : د/ توفيق الطويل	مارس ١٩٨٥
٨٨ ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ عبدالرزاق العدواني، د/ سمير رضوان	أبريل ١٩٨٥
٨٩ ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف : د/ محمد عماره	مايو ١٩٨٥
٩٠ ـ الغرب والعالم (القسم الأول)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا	يونيو ١٩٨٥
٩١ ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال	يوليو ١٩٨٥
٩٢ ـ عقول المستقبل	ترجمة : د/ لطفي فطيم	أغسطس ١٩٨٥
٩٣ ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام	سبتمبر ١٩٨٥
٩٤ ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف : د/ مصطفى المصمودي	أكتوبر ١٩٨٥

٩٥ ـ تغيّر العالم — تأليف : د/ أنور عبدالملك — نوفبر ١٩٨٥

٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية — تأليف : ريجينا الشريف — ديسمبر ١٩٨٥
ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز

٩٧ ـ الغرب والعالم (القسم الثاني) — تأليف : كافين رايلي — يناير ١٩٨٦
ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي
مراجعة : د/ فؤاد زكريا

٩٨ ـ قصة الأنثروبولوجيا — تأليف : د/ حسين فهيم — فبراير١٩٨٦

٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع — تأليف : د/ محمد عماد الدين إسماعيل — مارس ١٩٨٦

١٠٠ ـ الوراثة والإنسان — تأليف : د/ محمد علي الربيعي — أبريل ١٩٨٦

١٠١ ـ الأدب في البرازيل — تأليف : د/ شاكر مصطفى — مايو ١٩٨٦

١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية — تأليف : د/ رشاد الشامي — يونيو ١٩٨٦

١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون — تأليف د/ محمد توفيق صادق — يوليو ٩٨٦

١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء — تأليف جاك لوب — أغسطس ١٩٨٦
ترجمة : أحمد فؤاد بلبع

١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي — تأليف : د/ إبراهيم عبد الله غلوم — سبتمبر ١٩٨٦

١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول» — تأليف : هربرت . أ . شيللر — أكتوبر ١٩٨٦
ترجمة : عبدالسلام رضوان

١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية — تأليف : د/ محمد السيد سعيد — نوفمبر ١٩٨٦

١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني) — ترجمة : د/ علي حسين حجاج — ديسمبر ١٩٨٦
مراجعة : د/ عطية محمود هنا

١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير — تأليف : د/ شاكر عبدالحميد — يناير ١٩٨٧

١١٠ ـ مفاهيم نقدية — ترجمة : د/ محمد عصفور — فبراير ١٩٨٧

١١١ ـ قلق الموت — تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق — مارس ١٩٨٧

١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث — تأليف : د/ جون . ب . ديكنسون — أبريل ١٩٨٧
ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو

١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث — تأليف : د/ سعيد إسماعيل علي — مايو ١٩٨٧

١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا — ترجمة : د/ فاطمة عبدالقادر الما — يونيو ١٩٨٧

١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة	يوليه ١٩٨٧
١١٦ ـ أدب أمريكا اللاتينية (قضايا ومشكلات) القسم الأول	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى	اغسطس ١٩٨٧
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ أسامة الغزالي حرب	سبتمبر ١٩٨٧
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي	اكتوبر ١٩٨٧
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي	نوفمبر ١٩٨٧
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزانا ميلر ترجمة : د/ حسن عيسى مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل	ديسمبر ١٩٨٧
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف : د/ رياض رمضان العلمي	يناير ١٩٨٨
١٢٢ ـ أدب أمريكا اللاتينية (القسم الثاني)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى	فبراير ١٩٨٨
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي	مارس ١٩٨٨
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف : د/ دافيد . ف . شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة	أبريل ١٩٨٨
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبد الحافظ حلمي	مايو ١٩٨٨
١٢٦ ـ اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د/ نايف خرما د/ علي حجاج	يونيو ١٩٨٨
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف: د/ إسماعيل إبراهيم درة	يوليو١٩٨٨
١٢٨ ـ المدينة الإسلامية	تأليف : د/ محمد عبدالستار عثمان	أغسطس ١٩٨٨
١٢٩ ـ الموسيقا الأندلسية المغربية	تأليف: عبدالعزيز بن عبدالجليل	سبتمبر ١٩٨٨
١٣٠ ـ التنبؤ الوراثي	تأليف : د/ زولت هارسيناي ريتشارد هتون ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ مختار الظواهري	أكتوبر ١٩٨٨

العنوان	المؤلف	التاريخ
١٣١ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام	تأليف : د/ أحمد سليم سعيدان	نوفمبر ١٩٨٨
١٣٢ ـ أوروبا والتخلف في أفريقيا	تأليف : د/ والتر رودني ترجمة : د/ أحمد القصير مراجعة : د/ إبراهيم عثمان	ديسمبر ١٩٨٨
١٣٣ ـ العالم المعاصر والصراعات الدولية	تأليف : د/ عبدالخالق عبدالله	يناير ١٩٨٩
١٣٤ ـ العلم في منظوره الجديد	تأليف : روبرت م . اغروس جورج ن . ستانسيو ترجمة : د/ كمال خلايلي	فبراير١٩٨٩
١٣٥ ـ العرب واليونسكو	تأليف : د/ حسن نافعة	مارس ١٩٨٩
١٣٦ ـ اليابانيون	تأليف : إدوين رايشاور ترجمة : ليلى الجبالي مراجعة : شوقي جلال	أبريل ١٩٨٩
١٣٧ ـ الاتجاهات التعصبية	تأليف : د/ معتز سيد عبدالله	مايو ١٩٨٩
١٣٨ ـ أدب الرحلات	تأليف : د/ حسين فهيم	يونيو ١٩٨٩
١٣٩ ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا	تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم	يوليو ١٩٨٩
١٤٠ ـ الإنسان بين الجوهر والمظهر (نتملك أو نكون)	تأليف : إريك فروم ترجمة : سعد زهران مراجعة : د/ لطفي فطيم	أغسطس ١٩٨٩
١٤١ ـ الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري)	تأليف : د/ أحمد عتمان	سبتمبر ١٩٨٩
١٤٢ ـ مستقبلنا المشترك	إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة : محمد كامل عارف مراجعة : علي حسين حجاج	أكتوبر ١٩٨٩
١٤٣ ـ الريف في الرواية العربية	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله	نوفمبر ١٩٨٩
١٤٤ ـ الإبداع العام والخاص	تأليف : الكسندرو روشكا ترجمة : د/ غسان عبدالحي أبو فخر	ديسمبر ١٩٨٩
١٤٥ ـ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي	تأليف : د/ جمعة سيد يوسف	يناير ١٩٩٠
١٤٦ ـ حياة الوعي الفني (دراسات في تاريخ الصورة الفنية)	تأليف : غيورغي غانشف ترجمة : د/ نوفل نيوف مراجعة : د/ سعد مصلوح	فبراير ١٩٩٠
١٤٧ ـ الرأسمالية تجدد نفسها	تأليف : د/ فؤاد مُرسي	مارس ١٩٩٠

١٦٦ـ الأمومة : نمو العلاقات بين الطفل والأم	تأليف : د/ فايز قنطار	اكتوبر ١٩٩٢
١٦٧ـ تاريخ الدراسات العربية في فرنسا	تأليف د/ محمود المقداد	نوفمبر ١٩٩٢
١٦٨ ـ بنية الثورات العلمية	تأليف/ توماس كون ترجمة/ شوقي جلال	ديسمبر ١٩٩٢



سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الافكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية : اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات .

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة .

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ـ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية .

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته، وفي حالة الترجمة ترسل صفحة الغلاف والمحتويات، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع / المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتياً مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة و المترجمة ـ من نسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة.

الاشتراك السنوي: وهو مقصور على الفئات التالية:

● المؤسسات والهيئات داخل الكويت	١٠	دنانير كويتية
● المؤسسات والهيئات في الوطن العربي	١٢	ديناراً كويتيا
● المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي	٨٠	دولارا أمريكيا
● الأفراد خارج الوطن العربي	٤٠	دولارا أميركيا

الاشتراكات:

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا : ثقف ـ تلكس : ٤٤٥٥٤ TLX. NO. 44554 NCCAL

فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة

مطابع السياسة - الكويت

هـذا الكتاب

تحت هـذا العنوان، أو بعنـاوين مشـابهة، صـدرت في أوربا خـلال القرن العشرين حـوالي عشرة كتب، ولكن أهمهـا دون شك هـو هـذا الكتـاب الـذي صـدر للبروفسـور اليـوغسـلافي د. الكسنـدر ستيبتشفيتش، الـذي يعتبر من الخبراء المعروفين في مجال تاريـخ الكتاب والمكتبات.

ففي هـذا الكتاب الضخم يعيـد المؤلف الاعتبار للشرق نظـرا للدور الكبير الذي كـان له على مـر العصور. وهكـذا لم يعد الشرق يحتـل عدة صفحات، بل أصبح هنا يحتل عدة فصول وأصبح للعرب فصل خاص بهم تقـديرا للمكـانـة الكبيرة التي شغلها الكتـاب لـديهم. ومن ناحيـة أخرى فإن ميزة هـذا الكتاب تكمن في أنه يتخذ تـاريخ الكتاب كمفتاح ليعرفنا على جوانب هامة في تاريخ الحضارة الإنسانية.



سعر النسخة

البلد	السعر	البلد	السعر	البلد	السعر
الكويت	٧٥٠ فلس	ليبيا	دينار واحد	اليمن	٨٠٠ فلس
السعودية	١٢ ريال	المغرب	١٥ درهما	السودان	١٠ جنيهات
الأردن	دينار واحد	تونس	دينار ونصف	البحرين	دينار واحد
سوريا	٥٠ ليرة	الجزائر	٢٠ دينارا	قطر	١٠ ريالات
لبنان	٧٥٠ ليرة	مصر	جنيهان	عمان	ريال واحد
				الامارات المتحدة	١٠ ريالات